

مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

مجلة محكمة فصلية



ربيع الثاني ١٤٣٠ هـ

نيسان ٢٠٠٩ م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

المدير المسؤول: الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

لجنة المجلة

الدكتور محمد إحسان النص الدكتور عبد الله واثق شهيد

الدكتور محمد زهير البابا الأستاذ جورج صدقني

الدكتورة ليلى الصباغ الدكتور محمد مكي الحسني الجزائري

الدكتور محمود السيد

أمين المجلة: الأستاذ محمود الحسن

أغراض المجلة:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية، وأبرزها: المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمةً لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والتقنية والأدبية والحضارية، ودراساتها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأفطار العربية كافة.

خطة المجلة وشروط النشر فيها:

- ألا تكون البحوث والمقالات مستلة من أطروحة جامعية، وألا تكون منشورة من قبل.
- تنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد إليها بعد أن تخضع للتقييم.
- يفضل ألا يقلّ البحث أو المقالة عن عشر صفحات وألاً يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة، وعدد الكلمات في الصفحة الواحدة لا يزيد عن (٢٥٠) كلمة.
- ترتيب البحوث والمقالات يخضع لاعتبارات فنية.
- ينبغي أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة، ويفضل أن تشفع بقرص حاسوبي ليزري مسجلة عليه، أو مرسلة بالبريد الإلكتروني.
- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردّ إلى أصحابها.
- يرسل الكاتب الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة، مع بحثه أو مقالته، سيرته الذاتية العلمية وعنوانه.
- تُعطى الحواشي أرقامًا متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته. وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها.
- توضع الكلمات العربية (أو المعربة) قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة، نحو: تقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).
- من الضروري أن يعتني الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، إلخ...
- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان:

العنوان البريدي: دمشق ص.ب ٣٢٧

البريد الإلكتروني: E-mail: mla@net. sy

فهرس الجزء الثاني
من المجلد الرابع والثمانين

البحوث والدراسات

- المنهج المدرسي للغة العربية
د. محمود السيد ٣١٥
- من واقع حال الأدب والنقد الأدبي في العصر المملوكي
د. محمد رضوان الداية ٣٣٥
- ابن جني وأثره في البحث اللغوي الغربي
د. حازم الحلّي ٣٦٣
- رواية الأدب الجاهلي في مؤلفات الجاحظ: المنهج والأثر
د. أحمد حالو ٣٩١
- الفن في رجز أبي الخطاب البهدي وقصيده
د. أحمد علي محمد ٤٢١
- البنية الجمالية للتشبيه في معلقة امرئ القيس
د. خلدون صبح ٤٤٥
- (أو) ودلالاتها في اللغة العربية
د. عبد الجليل مصطفىاوي ٤٦٣
- دور الحيوان في التعبير عن التجربة الجاهلية
د. سليمان طعان ٤٨١
- أثر متعلّقات الفعل في معناه
أ. محمود الحسن ٤٩٩

المقالات والآراء

- النكرة القريبة من المعرفة
د. محمد مكّي الحسني الجزائري ٥٢٧
- صفحة منسية من تاريخ المعارض في دمشق
د. مازن المبارك ٥٣١
- استدراك على الأصمعيات
أ. ناصر توفيق الجباعي ٥٤٥

أبناء جمعية وثقافية

- ٥٦٧ حفل استقبال الدكتور أنور الخطيب
- ٥٦٨ - كلمة د. مروان المحاسني
- ٥٧٣ - كلمة د. مكّي الحسني
- ٥٧٧ - كلمة د. أنور الخطيب
- ٥٨٧ حفل استقبال الدكتور ممدوح خسارة
- ٥٨٨ - كلمة د. مروان المحاسني
- ٥٩٣ - كلمة د. إحسان النص
- ٥٩٧ - كلمة د. ممدوح خسارة
- ٦٠٩ الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع في الربع الأول من عام ٢٠٠٩



المنهج المدرسي للغة العربية

أ.د. محمود السيّد (*)

نحاول في هذا البحث أن نتعرف بعضًا من معايير مكونات المنهج المدرسي للغة العربية أسسًا وأهدافًا ومحتوى ومادة وأنشطة وتقويمًا.

أولاً: معايير أسس المنهج المدرسي

ينطلق إعداد المنهج المدرسي من الفلسفة التربوية والاجتماعية، ومن الأهداف العامة للتربية، ومن ثم اشتقاق أهداف المناهج منها في كل مرحلة من مراحل التعليم، لتوضع في ضوءها الخطة والمادة والمفردات والمحتويات التفصيلية والمناشط المرافقة لهذه المحتويات، وتبيان لطرائق التدريس والتقنيات وأساليب تنفيذها، ليحيى أخيراً التقويم لهذا المنهج.

ومن المعايير التي تعتمد في هذا المجال:

١- تبني النظرة الحديثة إلى المنهج على أنه نظام system، وهو عبارة عن حصيلة تفاعل عضوي مستمر لمجموعة متشابكة من العوامل، تشمل المجتمع بثقافته وفلسفته ومشكلاته، والمتعلم من حيث النظر إلى طبيعته وفهم خصائص نموه، وأساليب تعلمه، كما تشمل العصر الذي يحيا فيه باتجاهاته ومناشطه وتحدياته.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

وفي عملية بناء المنهج المدرسي لا بدّ من النظر إلى هذه المكونات كلها في إطار علاقاتها المتشابكة. ويجري بناء المنهج المدرسي في ضوء النظرة الحديثة في خطوات تبدأ بتحديد أساسيات المادة تحديداً علمياً، ثم يختار من هذه الأساسيات أكثرها فائدة للمتعلم من حيث مساعدته على الإسهام في حل مشكلات مجتمعه ومواجهة مشكلات حياته الخاصة، وإشباع حاجاته، وتنمية ميوله، ثم تهيأ الظروف والإمكانات المدرسية المناسبة لتحقيق الأهداف التي وضعت هذه المناهج من أجلها.

وفي ضوء هذا التوجه لا بدّ من التكامل بين أسس بناء المنهج مادة ومتعلماً ومجتمعاً، والربط الوثيق بين المنهج وحاجات التنمية، ودمج هذه الحاجات دمجاً عضوياً بالمنهج أهدافاً ومحتوى وطرائق وتقويمياً... إلخ.

ومن الملاحظ أن في مناهج اللغة العربية تركيزاً على الماضي أكثر من الحاضر والمستقبل، وأن ثمة ضعفاً في استجابتها لحاجات المجتمع المستقبلية، وإدراك طبيعة العصر ومستلزماته والإرهاصات بالمستقبل وجدائده وصورته المنشودة، كما أن هذه المناهج تفتقر إلى تنمية شخصية الفرد تنمية متوازنة مبدعة، وإلى استخراج كامل مواهبه وإمكاناته.

٢- تحقيق وحدة اللغة في المنهج، ونسخ ما كان سائداً من قبل من حيث النظر إلى اللغة على أنها فروع، إذ إن النظرة الحديثة تركز على أن اللغة وحدة متكاملة، وأن الانفصال في تعليمها لا يخدم ممارسة اللغة في مواقف الحياة، وأن فروع اللغة ما هي إلا أجزاء لكل، وليست غايات في حد ذاتها، وإنما هي وسائل لتحقيق وظيفة التواصل اللغوية.

٣- التركيز على التمهير وإكساب المتعلمين المهارات اللغوية إرسالاً في المحادثة والكتابة واستقبالياً في الاستماع والقراءة، ذلك لأن التمهير يؤدي إلى أن تغدو اللغة عادة لدى المتعلم في استعمالها. والتمهير يحتاج إلى المران والممارسة في مواقف الحياة بصورة طبيعية، كما يحتاج إلى توفّر القدوة الحسنة أمام المتعلم وتعزيزه إن كان أدائه جيداً، وتوجيهه إن كان أدائه دون المستوى.

٤- اختيار المحتوى الوظيفي الذي يؤدي وظيفة للمتعلم في تفاعله مع مجتمعه، فيؤدي حاجاته وينفذ متطلباته، ويشبع ميوله ورغباته واهتماماته من خلال استعماله لهذه اللغة الوظيفية.

٥- المرونة المتسقة مع الهيكل التعليمي وتنوعه ومراحل النمو المختلفة.

٦- التجريب قبل التعميم والتعديل المستمر في ضوء ملاحظات الميدان.

* * *

ثانيًا: الأهداف

تشتق أهداف المنهج المدرسي للغة العربية من:

١- الفهم الصحيح للإسلام قيمًا ومواقف واتجاهات مستمدة من القرآن الكريم الذي نزل به الروح الأمين على قلب الرسول العربي الكريم ﷺ آية لنبوته، وتأييدًا لدعوته، ودستورًا لأمتة ومن السنة النبوية الشريفة.

٢- العروبة بمقوماتها وحضارتها ونظرتها الإنسانية، وعميق الصلة بينها وبين اللغة العربية، لغة القرآن الكريم.

٣- أهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

٤- اتجاهات العصر ومقتضياته وخصائصه.

٥- حاجات المتعلم العربي ومطالب نموه المتكامل في مختلف جوانب شخصيته.

ولما كان ثمة تلازم بين العروبة والإسلام فإن الأهداف التي نشأتها من العروبة تتمثل في:

١- أن العرب هم أول من رفع راية الإسلام، ونشروا لواءه بين الأمم.

٢- أن العروبة بناء متكامل له مقومات وجوده، ومن أهم هذه المقومات اللغة العربية التي كرمها الله سبحانه وتعالى فجعل الرسول ﷺ عربيًا، وأنزل القرآن عربيًا.

- ٣- أن العرب في سائر أنحاء الوطن العربي يؤلفون الأمة العربية، مما يستوجب العمل العربي المشترك من أجل التغلب على المشكلات والتحديات وتحقيق الآمال والطموحات.
- ٤- أن للأمة العربية تاريخها الحضاري المشرف بإسهام أبنائها إسهامًا رائدًا، وعظيمًا في بناء صرح الحضارة الإنسانية، وهذا الأمر يدفعهم إلى السعي لتطوير حاضرهم، ليسهموا أكثر في التقدم المعاصر، ويجمعوا بين الأصالة والمعاصرة.
- ٥- أن للوطن العربي موقعًا جغرافيًا متميزًا، وللأمة العربية إمكانات حضارية مادية وبشرية وروحية مما يؤهلها لمكانة مرموقة في العالم.

ومن الاتجاهات التربوية الحديثة التربية بالأهداف، ويقوم هذا الاتجاه على تخطيط منهجي لإجراءات تنفيذ الأهداف التربوية تبعًا لما يوحي به تحليل متطلباتها. وثمة ثلاثة مستويات من الأهداف أولها الغايات الكبرى للتربية مستمدة من فلسفة المجتمع وواقعه ومتطلباته، وثانيها الأهداف العامة وهي ترجمة للغايات التربوية إلى مضمون تربوي أي إنما إلى حد ما وسائل لتلك الغايات، وتتجلى في المناهج الرسمية لمراحل التعليم المختلفة، وثالثها وهو أكثر إجرائية الأهداف السلوكية.

ومهمة هذه الأهداف ترجمة المناهج إلى أهداف إجرائية تتعلق بالهدف النهائي للعملية التربوية ممثلة في المتعلم. وفي هذا المستوى تتوفر تقنيات جديدة تستهدف صوغ الأهداف على صورة أنماط من السلوك، على أن الطابع الإجرائي ينبغي أن يكون حاضرًا منذ المستوى الأول من الأهداف.

ووضوح الأهداف يساعد على تحديد المسار ووضوحه، وعلى اختيار المحتوى والطرائق والأساليب والناشط، ويساعد على التقويم، ومن ثم على رفع مستوى العملية التعليمية التعلمية محتوى وكتابًا ووسيلة ونشاطًا وعلاقة وتقويمًا وتطويرًا، كما يساعد على تهيئة المناخ المناسب لتحقيقها، وللانتفاع بهذه الأهداف وتحقيقها، ولا بد من التنسيق بين جميع المعنيين بالعملية التربوية أسرة ومدرسة ومجتمعًا والتبصير بأهمية تحقيق هذه الأهداف.

وما دمتنا في صدد المنهج المدرسي لتعليم اللغة العربية وتعلمها، كانت الأهداف التي نبتغيها من هذا المنهج تتمثل في جعل المتعلم قادراً على استعمال اللغة في مختلف الظروف التي يعيش فيها، والأحوال الخطابية التي يمر بها، على أن يكون هذا الاستعمال سليماً من كل لحن أو عجمة، ويمكن تبيان هذه الأهداف مفصلة على النحو التالي:

- ١- إكساب المتعلمين المهارات اللغوية محادثة واستماعاً وقراءة وكتابة.
- ٢- تنمية الثروة اللغوية والفكرية للتمكن من الاتصال مع الآخرين والتواصل معهم بلغة عربية فصيحة بكل سهولة ويسر وتلقائية إن بطريق المحادثة أو الكتابة.
- ٣- تنمية القدرة على فهم ما يستمع إليه وقراءته بلغة عربية فصيحة، وإفهام الآخرين بلغة عربية صحيحة نطقاً وكتابة وبالسرعة المناسبة.
- ٤- تطوير القدرة على قراءة النصوص الأدبية المختلفة وفهمها وتذوقها وإدراك بعض مواقع الجمال فيها وتحليلها ونقدها.
- ٥- غرس الشغف بالقراءة ومحبتها في نفوس الناشئة بحيث يغدو الكتاب الصديق الصدوق للمتعلم.
- ٦- إكساب الناشئ القدرة على اختيار المادة الصالحة للقراءة.
- ٧- إكساب الناشئ مهارات التعلم الذاتي الذي هو أساس للتعلم المستمر.
- ٨- صقل مهارة الكتابة الصحيحة الجميلة في ضوء قواعد الإملاء والخط العربي، وتنمية المواهب الفنية في مجال الخط العربي.
- ٩- تمكين الناشئة من امتلاك أساسيات اللغة العربية وأحكامها الوظيفية إملاءً ونحوًا وترقيماً ودلالةً وصولاً إلى الفهم الصحيح، والقدرة على التعبير السليم وظيفياً وإبداعياً.
- ١٠- تعزيز الميول والأهداف الأدبية وصقلها وتنمية الذوق الجمالي وصولاً إلى الإبداع والابتكار.
- ١١- تنمية القدرة على التفكير العلمي والبحث والتحليل والنقد والحوار من خلال اللغة.

وإن تنفيذ أي هدف من الأهداف يستلزم التغيير في عناصر المنهج محتوى وطريقة وأسلوبًا وتقويمًا، فإذا أخذنا على سبيل المثال هدف «إكساب الناشئ مهارات التعلم الذاتي» فإن تنفيذه يستلزم تغييرًا جوهريًا في أدوار المعلم الوظيفية بحيث يتحول معها إلى مرشد إلى مصادر المعرفة والتعلم، ومنسق لعمليات التعلم، ومصصح لأخطائه، ومقوم لنتائجه، وموجه إلى ما يناسب قدرات كل متعلم وميوله.

وهكذا نرى أن كل شيء يتغير في إطار الهدف ومتطلبات تنفيذه من حيث المواقف التعليمية والمواد والأنشطة المدرسية وأساليب التعليم والتعلم، وفلسفة التوجيه الفني والإدارة المدرسية وتقويم نتائج التعلم... إلخ.

* * *

ثالثًا: المحتوى

وتشتمل عليه الكتب المدرسية، ويشتمل محتوى الكتاب المدرسي على أربعة عناصر متكاملة ومتوازية في علاقاتها وتفصيلها، وهي على التوالي:

١- الأهداف. ٢- المعارف والاتجاهات والقيم. ٣- أنشطة التعليم. ٤- تقويم التحصيل.

أما مواد وكيفيات تعليم الكتاب المدرسي من المتعلمين ثم تعليمه من المعلم فهي من اختصاص كتاب عمل المتعلم وكتاب المعلم أو دليل المعلم.

ومن المعايير التي لا بد أن تتوفر في المحتوى:

١- الربط الوثيق بينه وبين الأهداف المرسومة.

٢- الموضوعية في إيراد المعارف والمعلومات.

٣- العلمية في تنمية أساليب التفكير العلمي.

٤- التنظيم والمنهجية والمنطقية وبيان مستوى السهولة والصعوبة في العرض،

وتناسب أسلوب عرض المحتوى والمرحلة العمرية.

٥- الشمولية شكلاً ومضموناً، وأسلوباً ومحتوى، وخلو الأسلوب من التعقيد، واتسامه بالسهولة والرشاقة.

٦- مواكبة روح العصر وآخر المستجدات العلمية والتقانية.

٧- ملاءمته للوقت المخصص في الخطة.

٨- التوازن بين حجم المادة المقررة في الحصص الدراسية وعدددها في الخطة الدراسية.

٩- الوضوح والدقة في استعمال المصطلحات.

١٠- الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

١١- الوظيفية في اختيار المحتوى، ومن معايير الوظيفية:

أ- اختيار المناشط اللغوية السائدة في المجتمع والتي يكثر استعمالها في مواقف الحياة، وترتيبها ترتيباً تنازلياً في ضوء الشيوع والتواتر في الاستعمال الواقعي، بحثاً عن مواقف التعبير الوظيفية في الحياة، فما استعمل بكثرة عدّ وظيفياً، وما قلّ استعماله لا يعتبر وظيفياً.

وتختار أكثر البنى اللغوية شيوعاً وتواتراً في اللغة المنطوق بها، وفي أساليب الكتاب المعاصرين في مختلف جوانب الحياة، وفي جميع ميادين المعرفة بحثاً عن القوالب المستعملة بكثرة فتختار من اللغتين المنطوق بها والمكتوبة، وينطبق الأمر على المفردات اللغوية الشائعة في اللغتين المنطوق بها والمكتوبة وترتيبها في ضوء مبدأ الشيوع أيضاً، والبحث عن النحو الوظيفي فيها.

ب - الانتقال من الانعزال المعرفي إلى التداخل المعرفي، والتكامل بين مجالات المعرفة المختلفة على النحو المستعمل في واقع الحياة.

ج- الجمع بين النظري والعلمي وربط المادة التعليمية بمجالات الطبيعة وتاريخ التطور العلمي.

١٢- إتاحة الفرصة لاختيار الطرائق المناسبة بما يتناسب وطبيعة المادة ومستويات الطلاب والبيئة الصفية.

١٣- المساعدة على تعرف أفضل تقنيات التعليم التي تقرب المفاهيم إلى الأذهان.

١٤- اشتمال المحتوى على الأنشطة التي لا بدَّ أن تمارس في داخل الصف أو في خارجه.

١٥- توضيح الأسئلة والتدريبات التي تساعد على تنمية التفكير النقدي والإبداعي.

١٦- اختيار النصوص من الحاضر والماضي على نحو يحقق التوازن، على أن تكون النصوص المتخيرة من الماضي تلقي أضواء على الحاضر تحقيقاً لاستمرار الخبرة، وانطلاقاً من أن النمو عملية مستمرة.

١٧- التركيز في المحتوى على السلوكيات الديمقراطية وحقوق المواطن وواجباته نحو أسرته وجيرانه ومجتمعه وأتمته والإنسانية كافة، وعلى التربية البيئية والسكانية، وواجب المجتمع نحو ترشيد مصادر البيئة وتوظيفها لمصلحته ومصلحة الإنسانية كافة، وعلى القيم الإنسانية في حضارتنا العربية، وعلى التحديات التي تواجهها أمتنا العربية وفي طبيعتها التحدي الصهيوني الاستيطاني والاحتلال للعراق، وما يواجهه الواقع العربي من تجزئة وخلافات... إلخ والدعوة إلى التضامن العربي واستنهاض الهمم، بغية تجاوز التحديات المعترضة والصعوبات الحائلة دون تقدم المجتمع العربي.

ومن معايير الوقوف على محتوى الكتاب المدرسي بوجه عام:

١- المعايير النفسية والتربوية التي تدور حول عدد من المفاهيم منها مراعاة الكتاب لمبدأ تعلم اللغة، ومراعاته للعلاقة بين اللغة والفكر والمعنى، ومراعاته لتكامل شخصية المتعلم، ومراعاته لمبدأ الفروق الفردية، ومبدأ عملية التعلم، ومراعاته لتقنيات العملية التعليمية التعليمية.

- ٢- المعايير اللغوية: مراعاته لمبدأ التمهير اللغوي، ومراعاته لتكامل الأجزاء ومراعاته للمواقف والاتجاهات، ولكون اللغة ممارسة وإبداعاً.
- ٣- المعايير الثقافية والاجتماعية: التوازن بين الأصالة والمعاصرة «بين التراث والحداثة، وبين الحاضر والمستقبل، وبين المعطيات الفردية والاجتماعية، وبين التوجيه والاستقلالية، وبين المعطيات الإقليمية والوطنية والإنسانية».
- ٤- المعايير المرتبطة بمادة الكتاب وموضوعه: وتشمل صياغة الأهداف التعليمية ومحتوى الكتاب وأسلوبه وتنظيمه، ومدى ارتباطه بعناصر المنهاج الأخرى وطرائق تقويمه.
- ٥- المعايير الفنية وتتعلق بالوسائل التعليمية ومقدمة الكتاب وإخراجه وطباعته واتباع قواعد الترتيب والفهارس والتعريف بالأعلام... إلخ.

* * *

رابعاً: طرائق التدريس

تعد طرائق التدريس عنصراً من عناصر المنهج، وهي عملية تخطيط ودراسة وإشراف وإدارة، لكل من الأهداف التعليمية التعلمية والأنشطة المنهجية واللامنهجية، والأدوات والوسائل التعليمية والمصادر المرجعية والأدوات المتنوعة بحيث يكون دور المعلم فيها دور المخطط والمصمم والمشرف والمدير والمقوم، ويكون دور الطالب فيها دور المشارك والمساهم والمتفاعل مع كل نشاط من أنشطتها، وكل موقف من مواقفها.

وإذا كانت طرائق التدريس ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع الأهداف المراد تحقيقها فإنها ترتبط عضوياً في الوقت نفسه بسائر مكونات المنهج. ومن المعايير التي تؤخذ بالحسبان في مجال الطرائق:

- ١- المرونة في اختيار طرائق التدريس في ضوء الأجواء ومستويات المتعلمين، إذ إن المعلم هو الذي يستعمل الطريقة ويتحكم فيها، وهو الذي يصنعها، وما من معلم يتحكم

فيه طريقة معينة يلتزمها في دروسه كافة إلا كان مآله إلى الإخفاق والجمود والتحجر، إذ لا شيء أقتل للإبداع والمبادرة من القولية.

٢- التنوع في الطرائق في ضوء الأهداف المراد قياسها، والتنوع في الأنشطة والوسائل التعليمية.

٣- استشارة الدافعية وشد الانتباه.

٤- مراعاة الفروق الفردية.

٥- الربط بين النظري والعملي.

٦- المشاركة الإيجابية الفعالة في العملية التعليمية التعلمية، وألا يكون العبء ملقى على كاهل المعلم، وطريقة القدح الذهني أو العصف الدماغية تحقق هذه المشاركة الإيجابية.

٧- إتاحة الفرصة للممارسة والمران والتدريب والمواقف التطبيقية.

٨- توفير التغذية الراجعة ارتقاء بالأداء وتلافياً للخطأ.

٩- إكساب المتعلم مهارات التعلم الذاتي الذي هو أساس للتعلم المستمر، وضرورة سيورة مبادئ التعلم الذاتي في مختلف مناحي المنهج لأن التعلم الذاتي ضرورة في عصر يتسم بالتفجر المعرفي والانتشار الثقافي. ومن الملاحظ أن ناشئتنا عازفون عن القراءة الحرة ومواصلة الاطلاع بعد تخرجهم^(١) إن في المدارس أو في المعاهد والجامعات.

١٠- إكساب المتعلم القدرة على التفكير بأنواعه المختلفة «التفكير الابتكاري، التفكير المفهومي، التفكير النقدي، التفكير الخلافي، التفكير العلمي، التفكير الاستشراقي، التفكير المبادر، التفكير المحدد، التفكير الجمعي، التفكير التنفيذي، التفكير البدائلي، التفكير الحدسي، التفكير التواصلي، التفكير الشمولي...».

(١) تخرُّجهم، سواء كانوا من خريجي المدارس أو المعاهد والجامعات.

١١- الانتقال في تعليم اللغة وتعلمها من اللادإدراك إلى الإدراك، ومن استعمال التراكيب إلى بيان وظيفة الكلمة في التركيب، إذ إن الأطفال يتكلمون اللغة ويستعملون التراكيب والبنى اللغوية من غير أن يدركوا وظيفة الكلمة في الجملة، فإذا ما دربوا على أن يتكلموا أكثر ما يمكن أن يتكلموا، وأن ينطلقوا في الكلام على سحيتهم وعفويتهم، يجري الانتقال بعدها إلى تبيان المصطلحات النحوية ووظائف الكلمات في الجمل والتراكيب مع النمو الفكري للناشئة.

١٢- البعد عن التعميم في أفضلية الطرائق ما لم تكن مبنية على تجارب علمية منضبطة.

١٣- اعتماد أسلوب الانتقالية بحيث يركز على الإيجابيات في الطرائق وتلافي السلبيات، إذ من المعروف أن ثمة ثلاث طرائق في تعليم القراءة في الصف الأول من مرحلة التعليم الأساسي «الطريقة التركيبية، والطريقة التحليلية، والطريقة التوفيقية»، كما أن هنالك ثلاث طرائق في تعليم القواعد النحوية والإملائية وهي «الطريقة القياسية والطريقة الاستقرائية والطريقة المعدلة». وفي ميدان الأدب ثمة عدة مناهج في تحليل النصوص الأدبية منها المنهج البلاغي، والمنهج النفساني، والمنهج الاجتماعي، والمنهج الهيكلائي، والمنهج الشكلائي وهنالك عدة توجهات في تدريس الأدب «طريقة العصور التاريخية، وطريقة الفنون الأدبية، وطريقة الأقاليم الأدبية، والطريقة المتكاملة».

ولكل من هذه الطرائق، إن في القراءة أو القواعد أو الإملاء أو الأدب، أنصار وخصوم، أنصار ينسبون إليها كثيراً من المزايا، وخصوم يوجهون إليها سهام النقد. والمعيار الذي توصي به التربية المعاصرة هو أسلوب الانتقائية بحيث تؤخذ الإيجابيات من هذه الطرائق وتلافي السلبيات.

١٤- استعمال الوسائل والتقنيات المساعدة على توضيح المفاهيم وتقريبها إلى الأذهان، ومن هذه الوسائل «المجسمات والصور المتحركة واللوحات المصورة، والرسوم والأشكال والكتب الإضافية المكملة للكتب المقررة، المصادر والمراجع ودوائر المعارف،

المجلات والصحف، المواد المبرمجة، برامج الإذاعة، برامج التلفزيون، التسجيلات الصوتية، الشرائح والشفافيات، الأفلام الثابتة والرسوم المتحركة، والمختبرات اللغوية، والحواسيب... إلخ.

١٥- التبصير والتهيئة الذهنية لإدراك أهمية تقانة المعلومات في المنهج المدرسي من حيث الانتقال من التلقين إلى منظومة التعليم المتكاملة، ومن تحصيل المعرفة إلى توظيفها، ومن الجمود إلى المرونة.

١٦- اعتماد استراتيجية التعلم من أجل الإتقان في إكساب المتعلمين المهارات اللغوية والانتقال من التحفيظ والتسميع إلى التمهير.

١٧- انتهاز استراتيجية التربية في العمق أو التربية الإبداعية انسجامًا مع العصر واستجابة لمتطلباته في الكشف عن المواهب وتنميتها.

* * *

خامسًا: الأنشطة

تعد الأنشطة المنهجية واللامنهجية للغة العربية عنصرًا من عناصر المنهج المدرسي، وترتبط بالأهداف والمحتوى ارتباطًا وثيقًا، وتعزز الخبرات التي يهدف المنهج إلى تكوينها وإعطائها الصبغة الطبيعية، وهي مجموعة من الألوان المتنوعة محادثة واستماعًا وقراءة وكتابة، وهذه تمارس في داخل المدرسة وفي خارجها، على أن تكون ممارسة المتعلم لها خارج المدرسة ممارسة غير متكلفة ومنظمة تنظيمًا خاليًا من صرامة القيود التي تفرضها المدرسة غالبًا.

ومن المعايير التي تؤخذ بالحسبان في مجال الأنشطة المتعلقة باللغة العربية:

١- تحقيقها للهدف التعليمي الذي صممت من أجله.

٢- تعدد مجالاتها وتنوعها «إعداد صحف حائطية ومجلة مدرسية، إذاعة مدرسية، إعداد معارض كتب ومعارض رسوم وشرحها والتعليق عليها، تمثيل مسرحيات هادفة، إلقاء كلمات في المناسبات الوطنية والاجتماعية، مشاهدة المسلسلات والأفلام التلفزيونية والسينمائية ومناقشته مضمونها...إلخ.

٣- الواقعية وقابلية التنفيذ في ضوء الإمكانيات المتاحة.

٤- اتسامها بالتشويق واستثارة دافعية المتعلمين وسدّ حاجاتهم «الحاجة إلى المعرفة، الحاجة إلى البحث، الحاجة إلى النظر، الحاجة إلى العمل» فالحاجة هي التي تجعل من استجابة المتعلم عملاً حقيقياً وفعالاً.

٥- مراعاة قدرات المتعلمين وميولهم.

٦- توفير الأجواء الملائمة للجان الأنشطة لتقوم بدورها.

- لجنة الصحافة والتحرير.

- لجنة التمثيل.

- لجنة الإذاعة المدرسية.

- لجنة المكتبة والقراءة الحرة.

- لجنة المنتدى الأدبي.

- لجنة التلفزة والسينما... إلخ.

٧- وضوح التعليمات الموجهة لممارسة الأنشطة في منأى عن الغموض والتعقيد.

٨- دفع المتعلمين إلى العمل الجماعي والتعاوني، فيعملون على تخطيط العمل وتنظيمه وتحديد المسؤولية، والتدريب على القيادة واحترام النظام، وكتابة تقارير محاضر الجلسات... إلخ.

- ٩- دفع المتعلمين إلى تحمل المسؤولية والتفكير المبدع في إنجاز العمل.
- ١٠- الكشف من خلال الممارسة لهذه الأنشطة عن الموهوبين فتنمى شخصياتهم، ويؤخذ بأيديهم إلى إبراز مواهبهم.
- ١١- اتخاذ المناشط أسلوبًا من أساليب معالجة بعض المشكلات النفسية التي يعانيها بعض المتعلمين من مثل الخجل والانطواء على النفس... إلخ.
- ١٢- توظيف وقت الفراغ فيما يفيد.

* * *

سادسًا: التقييم

يعد التقييم هو الآخر ركناً أساسياً في المنهج المدرسي، إذ به يُعرف مدى تحقيق الأهداف المرسومة للمنهج من اكتساب المهارات اللغوية الأساسية محادثة واستماعاً وقراءة وكتابة، ومن تكوين للاتجاهات في الجانب الوجداني من الخبرات المكتسبة ومن إتاحة المنهج الفرصة لممارسة التعلم الذاتي، ومن غرس الشغف بالقراءة لدى المتعلمين... إلخ.

أما معايير التقييم فيتمثل بعضها في:

- ١- ارتباطه بالأهداف التعليمية التعلمية المراد قياسها.
- ٢- اتسامه بالصدق والثبات والموضوعية والشمول.
- ٣- التمييز بين المتعلمين والكشف عن الموهوبين منهم والارتقاء بمواهبهم.
- ٤- الشمول بحيث يشترك في العمل التقييمي للمنهج بمفهومه المنظومي الشمولي المتكامل كل من المعلم والطالب والمدير وأولياء الأمور والإعلاميين... إلخ.

٥- التنوع في استعمال أساليب التقويم من اختبارات تحصيلية وموضوعية وشفهية وكتابتية للمتعلمين، وبطاقات ملاحظة للأداء، وسجلات وتقارير واستبانات ومقابلات... إلخ.

٦- مدى كفاية الأنشطة المختلفة من صحافة وإذاعة مدرسية وخطابة ومناظرات ومسابقات... إلخ.

٧- مدى توفر الوسائل المعينة والتقانات الحديثة من حواسيب وغيرها في مجالات الاستعمال لتكوين المهارات اللغوية.

٨- مدى شمول جميع المهارات اللغوية الرئيسية والفرعية.

٩- مدى شمول جميع جوانب الخبرة فكرياً ونزوعاً وأداءً.

١٠- مدى الإفادة من التقويم في تشخيص صعوبات التعلم.

١١- مواءمة المبنى المدرسي لدوره الوظيفي في تنفيذ المنهج وأنشطته المختلفة.

١٢- مدى قدرة المتعلمين على المناقشة الشفاهية وممارسة ضروب التعبير الوظيفي بأنواعه كافة.

١٣- مدى قدرة المنهج على فسح في المجال لممارسة الهوايات وتذوق المتعلمين الجمال في التعبير.

١٤- مدى توفر الشروط الموضوعية في الاختبارات:

- الشمولية للمنهاج إذا كانت الاختبارات نهائية.
- الاستمرارية على مدار العام الدراسي.
- قياس المهارات العقلية كافة «حفظاً وفهماً وتركيباً وتحليلاً ونقداً وتعليلاً وتطبيقاً وتوظيفاً... إلخ».

- مراعاة الفروق الفردية.
- الوضوح في الأسئلة والخلو من كل لبس وغموض.
- التدرج في طرح الأسئلة من السهل إلى الصعب.
- التنوع وتمثيل المستويات المختلفة.
- ملاءمة الاختبارات للوقت المخصص لها.
- توفر الاختيار.
- عدم احتمال التأويل في الإجابات.

وفي تقويم الكتاب المدرسي تعتمد المعايير الآتية:

- ١- أنواع المعارف والقيم والاتجاهات والمناشط التي يحتويها الكتاب المدرسي في ضوء الأهداف.
- ٢- مناسبة محتوى الكتاب المدرسي للمتعلمين من حيث درجة السهولة والصعوبة وأساليب تقديمه للمتعلمين.
- ٣- مستوى اللغة ومدى ملاءمتها للمتعلمين.
- ٤- أسلوب الكتاب.
- ٥- احتواء الكتاب على وسائل تقانة التربية لتزويد المحتوى بالتوضيحات الشكلية لتسهيل العملية التعليمية التعلمية.
- ٦- إخراج الكتاب من حيث الوضوح والحروف والجاذبية والصور والوسائل.
- ٧- التدرج في تقديم موضوعات الكتاب بصيغة منطقية ومتسلسلة.
- ٨- تحويل محتوى الكتاب كليًا أو جزئيًا إلى صيغ أخرى غير الصيغة التقليدية المكتوبة، كأن تكون مبرمجة أو سمعية على شكل أشرطة سمعية أو إلكترونية على الحاسوب أو أفلام أو حقائب تعليمية... إلخ.

٩- الوقت المتوفر لتنفيذ الكتاب.

١٠- مدى توفر الآلات والأجهزة والتسهيلات والخدمات المساعدة من أفلام وشرائح وغيرها لتنفيذ المحتوى.

ومن مصادر تقويم الكتاب المدرسي:

١- المعلمون بطريق المقابلات وإبداء الملاحظات.

٢- المتعلمون بطريق استبانات توجه إليهم بغية تعرف آرائهم في محتوى الكتاب المدرسي وأنشطة التعلم وحماسهم، واستجابة الكتاب لحاجاتهم العامة ومحببتهم له وملاحظاتهم على أساليب التدريس.

٣- آراء الخبراء المكلفين تطبيق الكتاب المدرسي وعمليات تقويمه.

٤- أسر التلاميذ والمهتمون من المجتمع المحلي.

ومن أدوات تقويم الكتاب المدرسي:

١- المقابلات الشخصية للمعلمين والإداريين وأسر المتعلمين والمهتمين في المجتمع المحلي.

٢- استبانات توجه إلى المتعلمين إضافة إلى المقابلات.

٣- الملاحظات الميدانية لتطبيق الكتاب المدرسي.

• توفير أحكام تقويمية حول مدى تمكن المتعلمين في بعض المهارات.

• توفير معلومات عن ميول المتعلمين نحو الكتاب: حضورهم الحصص، انتظامهم ومشاركتهم واهتمامهم.

٤- الحكم الفردي للمتخصصين الأكاديميين والنفسيين.

٥- اختبارات المتعلمين، وكراسات أنشطتهم المتنوعة من تمارين ومقالات ورسوم،

- سجلات المتعلمين وتقارير المعلمين عن تحصيلهم واستجاباتهم وردود فعلهم نحو الكتاب.
- ٦- وسائل التقدير العام مثل المناقشات الرسمية وغير الرسمية للكتاب «مناقشات التلاميذ ومعلميهم، إنجاز المعلمين وحماسهم، آراء أسر المتعلمين وانطباعاتهم، ملاحظات المهتمين من المجتمع المحلي... إلخ.
- ٧- دراسات المتابعة لأثر تطبيق الكتاب المدرسي على التلاميذ بعد الانتهاء منه والانتقال إلى كتاب مدرسي آخر أو مرحلة دراسية أخرى.
- أما مواصفات الأدوات والوسائل المستعملة في جميع البيانات المطلوبة فتتمثل في:
- ١- مناسبتها للأهداف ومواضع التقويم التي تجري دراستها.
- ٢- فعاليتها في جمع المعلومات.
- ٣- قابليتها للتطبيق.
- ٤- توفر العاملين والوقت والمصادر الكافية لتنفيذ التقويم بوساطتها.
- ٥- توفر الخبرات المتخصصة بتخطيط التقويم وتنفيذه.

دليل المعلم:

ومن معايير دليل المعلم:

- ١- مساعدة المعلمين على تخطيط المواقف التعليمية التعليمية بما يتناسب وقدرات المتعلمين عبر تكييف الخطة الدراسية وفق الأجواء، وابتكار استعمال الأساليب والطرائق لتناسب المواقف المستجدة.
- ٢- تزويد المعلمين بالكفايات التي تساعدهم على استشارة الدافعية لدى المتعلمين وعلى المرونة في اختيار طرائق التدريس في ضوء المستويات والإمكانات.

٣- مساعدة المعلمين على توظيف أساليب التعلم الذاتي في إطار منظومة متكاملة للعملية التربوية، وذلك باستعمال المدخل النظامي في التخطيط والتنفيذ والتقييم.

٤- احتواء الدليل على توظيف تقنيات التعلم الذاتي بمهارة وقدرة على استعمال التقنيات الجديدة كالتلفاز والحاسوب والشابكة «الإنترنت»... إلخ.

٥- تزويد المعلمين بالكفايات التي تساعدهم على تدريب المتعلمين على إتقان المهارات المكتتبية من حيث الوصول إلى المعلومات والمعارف ومصادر التعلم ومراكزه، ومهارة الاستعمال العلمي الصحيح للمراجع والمصادر من حيث التوثيق والافتباس والتنظيم والتفكير الناقد، ومهارة استعمال التقنيات التربوية وممارسة الأنشطة المنهجية واللامنهجية.

٦- توجيه المعلمين إلى إجراء البحوث التي تنمي التفكير العلمي والبحوث الإجرائية التي تسهم في حل المشكلات.

مراجع البحث

- ١- الدكتور رشدي أحمد طعيمة - المهارات اللغوية - مستوياتها، تدريسها، صعوباتها - دار الفكر العربي ٢٠٠٦.
- ٢- سمير استيتية - معايير تحليل مناهج اللغة العربية - مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية والتربوية - المجلد ١٢ عام ١٩٩٦.
- ٣- الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح - السماع اللغوي العلمي عند العرب - منشورات المجمع الجزائري للغة العربية - الجزائر ٢٠٠٧.

- ٤- الدكتور عبد الله عبد الدايم - بحث مقارنة عن الاتجاهات السائدة في الواقع التربوي في البلاد العربية - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس ١٩٩٣.
- ٥- الدكتور عدنان زيتون - استراتيجية التعلم الذاتي - مطبعة ألف باء الأديب - دمشق ١٩٩٩.
- ٦- الدكتور محمد زياد حمدان - تقييم الكتاب المدرسي - دار التربية الحديثة ١٩٩٧.
- ٧- الدكتور محمود أحمد السيد. دراسة تقويمية لأسس بناء مناهج تعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - ندوة الجزائر ١٩٨٩.
- ٨- الدكتور محمود أحمد السيد - في قضايا التربية المعاصرة - دار الندوة للدراسات والنشر - دمشق ١٩٩٦.
- ٩- الدكتور محمود أحمد السيد - اللسانيات وتعليم اللغة - دار المعارف للطباعة والنشر - سوسة - تونس ١٩٩٨ م.
- ١٠- الدكتور محمود أحمد السيد، في طرائق تدريس اللغة العربية - جامعة دمشق - الطبعة الرابعة ٢٠٠٤.

من واقع حال الأدب والنقد الأدبي في العصر المملوكي (بالاعتماد على ثلاث مخطوطات فريدة)

د. محمد رضوان الدايدة(*)

من المفردات التي استعملت في وصف العصور الأدبية الوسيطة كلمات: الجمود،
والعُقم، والتأخر.

وأسرف من قال: الانحطاط. لكن هذه المفردات وأشباهها وردت على ألسنة
كثير من مؤرّخي الأدب، ودارسي المدّة التي تطول معظم عصر المماليك وخصوصاً
المماليك البرجيّة، ومعظم العصر العثماني. وهي مدّة طويلة تكاد تصل إلى نصف
المدّة التي وصل منها إلينا نتاج أدبيّ.

ودرسَ عدد غير قليل من الأدباء والنقاد والباحثين هذه المدّة جملةً: (في إطار تاريخ
الأدب) أو منفردة: (في التاريخ الأدبي والثقافي للمماليك والعثمانيين). ووقف بعضهم عند
شاعر أو كاتب، أو رصدَ قضية أو موضوعاً محدّداً كالموشّحات والأزجال وغير ذلك.

ومن الكلام القاصد الذي قيل في هذه المدّة ما كتبه أ.د محمود الريداوي في افتتاح
دراسته عن ابن حجة الحموي^(١)، فقد قال: (وعلى الرغم من أنّنا لا ننكر أنّ العصور
التي تلت العصر العباسي كانت عصوراً واكبّت هُرم الأدب العربي، تبقى جزءاً لا يتجزأ

(*) باحث في الأدب والنقد وأستاذ جامعي من سورية.

(١) ابن حجة الحموي شاعرًا وناقداً: ٥.

من تاريخنا الأدبي، والإنصافُ في البحث والدراسة يقتضينا أن نولي دراسة تاريخ الأدب في عصور هرمه وفتوره العناية كما أوليناها في عصور نموه وازدهاره...).

وقد وقع إليّ مؤلفات ثلاثة كان أشار إليها الباحث الرّميل في دراسته^(٢)، وهي رسائل سمّاها مصنّفوها كتبًا. وهي آثار أدبية تقدّم إضاءة جديدة، وإضافة مفيدة بالقدر الذي تستطيعه مؤلفات ذلك العصر المشابهة. ولاشكّ في أنّ تصوير العصر على حقيقة حاله واستنفاد الأغراض في الاطلاع على نتاجه على اختلاف أنواعه يكمل الصورة الشاملة، ويشخص الأحوال الأدبية والنقدية كما هي؛ ويضيفُ إلينا مسوّغات ومُسبّبات لما كان عليه حال الأدب والنقد خاصّة، وأحوال الثقافة عامّة من جمود أو تراجع.

١ - ثلاث رسائل مخطوطة

عند استعراض كتب ابن حجّة المذكورة في الدراسة المشار إليها نجد سَمي منها: (لزقة البيطار في عقر ابن العطار)^(٣)، وأشار في أثناء وصفه (استئناسًا بما نقله النوّاجي أحد خصوم ابن حجة في كتابه عن سرقات ابن حجّة)، وذكر أيضًا، كتاب ابن العطار السابق ذكره والذي سمّاه: (حوائج العطار في عقر الحمار)، وسمي ثالثًا كتاب ابن الخراط الذي عنوانه: (سوّط العذاب على شرّ الدوابّ) وظاهر أن شرّ الدواب (وهي عبارة مستفادة من آية كريمة) هو الحمار، وهذا التّبزُّ إشارةً إلى الخصم المشترك لابن العطار ومؤلف السّوط ابن الخراط: وهو ابن حجّة الحموي.

وقد حاول الدكتور الريدائي من التّبذة التي اطّلع عليها عند (النوّاجي) عن المؤلفات الثلاثة أن يستشفّ - بصفةٍ عامّة - أغراضَ هذه المؤلفات، وخطّها العامّ، ومقاصد مؤلّفيها، وارتقب أن تظهر هذه المخطوطات لتكمل الصورة التي رسمها لابن

(٢) ابن حجة الحموي: ٨٥-٨٦.

(٣) المرجع السابق: ١٦٥-١٦٦.

حجّة، وشعره، ونقده وبعض صفاته، وخصائصه، وعلاقته ببعض أدباء عصره ونتاجهم الأدبي النقدي.^(٤)

محور هذه الكتب، أو الرسائل - على الصّحيح - يدورُ حول شخصية ابن حجة الحموي وشعره خاصة وأدبه عامّة. وما تزال هذه الرسائل مخطوطة وأصلها محفوظ في مكتبة (تشسترتي) الشهيرة في أيرلندا وقد حصلت على نسخة من هذه الرسائل بالاقتناء من مكتبة جمعية الماجد (مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث)^(٥).

وهي تعطي صورة واضحة عن جوانب مختلفة:

- من تقديم نماذج شعرية من مُتَعاصِرِينَ في موضوع معيّن.
- وتقديم صورة عن العلاقة بين أدباء مرحلة معينة على امتداد أرض واسعة من الشام إلى مصر (من حماه ومُدن في الشام إلى القاهرة ومدن في مصر).
- وتحديد مستوى الأداء الأدبي (في الشعر خاصة)، وتقدير خصائص النصوص الفنية قياسًا إلى الموجود منها بين أيدي الدارسين.
- وإلقاء الضوء على لمحات نقدية وردت في مواضع من تلك الرسائل، في أداءٍ شعريّ (منظوم).
- و«خلط الأوراق» كما يقال في الكنايات المعاصرة بين الجوانب الشخصية وبين الفوائد الفنية، أو المسائل الأدبية، والتّقديّة.
- ورصد الإقذاع الشّدِيد في المهجاء، حتى إنّه يُخْرِجُ عن المِحْتَمَل، وينبو عن الدُّوق.

(٤) ابن حجة الحموي: ١٦٧.

(٥) تقع المخطوطات بين الورقات ٩٣ و ١٠٦ من المخطوطة المرقمة ٣٩١٢ في تشسترتي،

والمرقمة ب ٧٩٤ في مركز جمعية الماجد.

- ورصد بُروز بعض المحسّنات البديعية على مذهب العصر السائد في ذلك.

• وهي رسائل يصح أن يصفها بأنها قصيرة، ف «لزقة البيطار في عقر يحيى ابن العطار» في ثلاث ورقات، و «حوائج العطار في عقر الحمار» في أربع ورقات و (سوط العذاب على شرّ الدواب) في عشر ورقات. وهي من القطع الكبير، ولم تسجّل وثيقة المخطوطات مسطرهما. وهي جميعًا مكتوبة بقلم واحد.

(٢) - خصامٌ ونقد.

الشّرة التي أتاحت «تأليف» هذه الرسائل، كما يظهر من المخطوطات نفسها قصيدة ميمية نظمها ابن العطار في هجاء ابن حجة، فردّ هذا عليه بعشرين قطعة هجائية، جعلها في رسالة مستقلة سماها كما في مقدمة الرسالة «لزقة البيطار في عقر يحيى بن العطار» وردّ ابن العطار على خصمه برسالة مستقلة سماها كما في مقدمة الكتاب: (حوائج العطار في عقر الحمار) وسجّل فيها ثلاثين مقطوعة في الردّ على الرسالة السابقة.

ودخل في «حلبة السباق» هذه أحد أدباء العصر، وهو ابن الخراط، وسمى رسالته (سوط العذاب على شرّ الدواب) جمع فيها قطعًا مختلفة لعدد من شعراء العصر المُعادين لابن حجة وجميع ما في «سوط العذاب» في هجاء ابن حجة الحموي. ولم تكن مشاركة ابن الخراط في هذه «الاحتفالية الشعرية» - إن صحّت العبارة - من باب المصادفة كما سوف أبين.

وكتاب ابن الخراط هذا (أو رسالته) مهمة وضرورية لتبيّن (القضية) أعني الخلاف بين ابن حجة الحموي من جهة وبين ابن العطار من جهة أخرى. وهو يفيد أيضًا في تقديم عدد من أسماء أدباء من ذلك العصر يشاركون ابن العطار وابن الخراط هذه (الخصومة)، وفي «سوط العذاب» القصيدة الميمية التي كانت شرارة الصراع

الذي اتخذ الشعر مَرَكَبًا، وصار وسيلةً لنشر الهجاء وتلم الأعراس. وسوف أعودُ إليها.

والذي نقوله ابتداءً إن الأمر - كما أُفضِّلُ - ليس مقصورًا على اختلاف الأمزجة، أي ليست القضية تطاولات شخصية عارضة، ولكنها قضية منسوجة من عدد من الخيوط:

- فهناك الخيطُ الشَّخصي حين يختلف الرِّجال فيما بينهم ولا ينتهي الخلاف بالازورار والإعراض، وينتقل إلى الملاسنة والهجاء.

- وهناك الخلاف الأدبي، الذي يبدو للقارئ والمتابع خلافًا موضوعيًا بين مذهبٍ فنيٍّ ومذهبٍ آخر. ويدخل في ذلك نقد بعضهم لبعض (التقويم الأدبي من واحد لواحد آخر) وادعاء السرقة الأدبية (حقًا أو باطلاً)... إلخ.

- وهناك الخلاف الناشئ عن المزاحمة على الأعمال والوظائف مثل وظائف الإنشاء، وكتابة السرِّ، والأعمال الديوانية التي كان يكلف بها أحدهم فتكون وظيفته في عينٍ آخر!...

- وهناك التراحم على عتبات الحكام والكبراء وذوي الجاه والمال. فقد كان (غرض المديح) من أغراض الشعر الرائجة^(٦). وسجّلت كتب التراجم وقائع من هذا الباب.

- ولا يصحّ هنا (في هذه المدة ومع هؤلاء الأدباء الشعراء) قول أحدهم:

ذَهَبَ الكرام فلا جوادٌ يُرْتَحى مِنْهُ النَّوَالُ ولا مליحٌ يُعَشَقُ!

(٦) في تراجم ابن حجة وابن العطار وابن الخراط وفي أشعارهم الباقية أخبار عن استفادتهم من مبادئهم في مدينة حماه ودمشق والقاهرة وغيرها. وكتب تراجم العصر شاهدة بذلك كالذي نقرؤه مثلاً في إنباء الغمر لابن حجر والضوء اللامع للسخاوي. ونقرأ للدكتور رنداوي في دراسته (ص ٣٩) (إن الشكوى من كساد الأدب شكوى تقليدية قيمة...)

- لقد كان للمدح سوق حسنة ، يُتفتح بها ..

(٣) - الزّمان والمكان والحال .

مِحْوَرُ هذه الحركة العاصفة، شعراً ونقداً، وخصوصاً هو ابن حجّة الحموي. وتمتدّ حياته في القرنين الثامن والتاسع (ولد ٧٦٧ وتوفي ٨٣٧ هـ) فالزّمان هو عصر دولة المماليك من ٦٤٨ إلى ٧٨٤ هـ (المماليك البحرية) ومن ٧٨٤-٩٢٣ هـ (المماليك البرجّية). وقد بسط المماليك ظل دولتهم على مساحة واسعة من أقطار الإسلام في المشرق في مصر والشام وأجزاء واسعة من الجزيرة العربية وقطاع من الأناضول (الروم كما كانت تُسمّى). ولما كانت البلاد دولة واحدة - على رغم الفتن والثورات وحركات الأمراء والحكام - كان التنقل بين الشام ومصر والإقامة في أي بلد أمراً اعتيادياً.

والمكان الذي يُذكر مع ابن حجّة الشام ومصر عامة، ومدينة حماه ودمشق والقاهرة خصوصاً، مع مدن كثيرة مرّ بها ابن حجّة أو سافر إليها. ونسبة الشاعر حقيقية، فإنه من أهل حماه، وفيها نشأ ثم تنقل في الشام وخصوصاً دمشق، ودخل القاهرة وسكنها أكثر من مرّة.

والحال: المصادر والمراجع تُشير إلى اشتغال ابن حجّة في مجالات الكتابة والإدارة من جهة، و(تعاطي) أو معاناة نظم الشعر وممارسة النقد، والتأليف في مجالات شتى في نطاق الأدب والنقد والترسل والتصنيف من جهةٍ أخرى... دخل ابن حجّة الحياة العامة بعد حماه بقصيدة كافية^(٧)، عارضَ فيها كافيّات:

(٧) أولها:

طربْتُ عند سماعي وُصفَ معنك فكيفَ لو كان هذا عند مغناك؟

ابن نباتة والقيراطي وصفيّ الدين الحلّي، ومدح بها القاضي بُرهان الدين بن جماعة في دمشق، وخرّج بها وبتقريظاتها إلى مصر حُجَّةً لشاعريّته، ومدح القاضي فخر الدّين بن مكانس^(٨)، ونال تقريظ هذا القاضي مع أولاده. ونال الحظوة والجاه بشعره وترسُّله وأدبه في بلدان كثيرة وخصوصاً حماه ودمشق والقاهرة وتولّى مناصب مهمة مثل كتابة الإنشاء (منشئ الديوان)، وألّف وصنّف أيضاً.

وقد نوّه بـابن حجة كلُّ من تَرَجَّم له، ونَبَّهوا على بعض خصالٍ فيه. فقد كان: «معجباً بنفسه، وكان فيه زهو» كما عبّر المقرئزي^(٩).

وتناولت آثاره الفنيّة جانبي الشعر والنثر، ومع الشعر أنواعاً من المنظومات الأخرى التي اشتهر بها العصر العباسي وما بعده كالمواليا والدوبيت والزّجل والموشح. وانقسم النثر إلى الرسائل والكتب السلطانية (التي هي من إنشائه)، وإلى التأليف والتصنيف. وإضافة إلى شعره انتخب واختار من شعر غيره في مصنّفات كانت مشهورة لزمانه، وبعده أيضاً، وقد استوفى الحديث عنها الدكتور الرّيداوي في دراسته المذكورة مستقصياً^(١٠).

وطرفاً هذه العاصفة الأدبيّة النقدية الشخصية هما ابن العطار، وابن الخراط. فالأول: شرف الدين يحيى بن أحمد بن عمر التنوخي الحموي الأصل الكركي المولد، القاهري ولد ٧٧٨هـ بالكرك، وانتقل أبوه إلى حماه فنشأ فيها، ثم انتقل إلى القاهرة فأتمّ علومه، وبرّع، وتولّى أعمالاً مهمّة منها توقيع الدّست، والتوقيع عند ناظر الجيش. وصادق ابن الخراط (ثالث هذه الشخصيات). وذكر السّخاوي في الضّوء اللامع

(٨) الضّوء اللامع ١١ : ٥٢-٥٣، وإنباء الغمر ٨ : ٣١٠.

(٩) انظر الحاشية السابقة.

(١٠) انظر الفصل الثالث: (آثاره ومصنّفات) من الباب الأول: ٥٤ - ٧٨.

أن ابن حجّة أساء معاملة ابن العطار فأخرف عنه، ومعه ابن الخراط. وانقلبت الحال فيما بينهم إلى الخصومة.

وابن الخراط^(١١) هو زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن سلمان، أبو الفضل. وهو مروزي الأصل. ولد بحماه، وقدم مع والده إلى حلب فنشأ بها، وتعمق في الفقه والأدب وما يتعلق بهما. ونظم الشعر فبرع ومدح الأكابر في الشام ومصر، وتولى في مصر كتابة الإنشاء. وتقلب في المناصب وتلقى عن والده بعض الوظائف. قال ابن حجر: بلغني أنه قارب السبعين من عمره، وكانت وفاته سنة ٨٤٠ هـ.

وكانت علاقة ابن الخراط - كزملائه - حسنةً بآبن حجّة، ثم غيّرتّها الأيام بأسبابٍ أشرتُ إلى أوّلياتها في الفقرة (٣) من هذه الدّراسة، وسأشير إلى أحداثٍ أو مناسباتٍ محدّدة فيما بعد.

٤ - ثلاثة أركان في القضيّة.

كانت ذروة المكانة لابن حجّة يوم صار كاتبًا في ديوان الإنشاء بمصر في دولة الملك المؤيّد سنة ٨١٥ هـ. وكانت مدّة هذا السّلطان خيرًا عليه ومدعاة رضًا واستقرار. وهي المدّة عينها التي شهدت ظهور صاحبيه ابن العطار وابن الخراط (وغيرهما من الرجال نذكر منهم بعد قليل).

وذكر السخاوي في الضوء اللامع في ترجمة ابن حجّة انحراف بدر الدين البشتيكي عنه وهجاءه له^(١٢) وذكر له بيتين يهجو ابن حجّة فيهما بكثرة دعاويه (ادعاءاته في الأدب والثقافة) وبجمرة لحيته:

(١١) ترجم له في إنباء الغمر ٨ : ٤٣٨ والسخاوي في الضوء اللامع ٤ : ١٣٠ وذكره ابن

العماد في شذرات الذهب. ٧ : ٢٣٥.

(١٢) الضوء ١١ : ٥٤.

صَبِيْعٌ دَعَاوِيَه لَا تَنْتَهِي يُحْطِّي الصَّوَابَ وَلَا يَشْعُرُ!
تَفَكَّرْتُ فِيهِ وَفِي ذَقْنِهِ فَلَمْ أَدْرِ أَيُّهُمَا أَحْمَرُ!

وذكر المحرف التّواجي عنه أيضاً، قال: (وقد انحرف عنه التّواجي بعد مزيد اختصاصهما (الصحبة العميقة) وصنّف: «الحجّة في سرقات ابن حجّة» وزاد في التحامل عليه) ثم قال: «وهجاه كثيرون من شعراء وقته بمقاطيع مقذعة».

وخرج السخاوي من السرد إلى التعليل الذي لا يُدّ منه. فإنّه وصف ابن حجّة في الصفحة نفسها نقلاً عن شيخه: «أشهد أن أبا بكر (ابن حجّة) تقدّم على أنظاره» ثم قال معللاً: «وكأنّه - والله أعلم - لأنّه كان ضنيناً بنفسه وبشعره، يرى غالبهم كأحدٍ تلامذته!»...^(١٣) فالأسباب إذن:

- يُحُلُّه على أصحابه وأقرانه بنفسه (وما عنده؟).
 - ويُحُلُّه بشعره (لعلّه يحجبه عنهم ولا يقبل مذكراتهم ومراجعتهم).
 - واستصغاره لشأنهم، وهم يرون أنفسهم كمثلته.^(١٤)
- على أن هذا التعليل - على وجهته - غير كافٍ لنظم هذه الأشعار المقذعة التي تناولت ابن حجّة في شخصه، وعلمه، وشعره، ونقده، وتأليفه. ونضيف بعض الملاحظات:
- (١) ظهر الثلاثة من (حماه): فابن حجّة حمويّ أصلاً، وصاحبه معدودان في أهلها. وهذا الملمح يسمح بشيءٍ من المنافسة، أو ببدور تلك المنافسة.
 - (٢) تزاخم الثلاثة - والرّجبة واسعة - في دائرة واحدة (ومكان واحد في بُرْهية من

(١٣) الضوء ١١ : ٥٤.

(١٤) ولعل هذا موصول بقول المقرئ، كما نقله السخاوي (الضوء ١١ : ٥٥) إنه (كان فيه زهو وإعجاب بنفسه).

البُرّه أيام الملك المؤيد خاصة)، وهي كتابَةُ الإنشاء، وبعضُ الأعمالِ الإداريّة، وفي هذا «خصومة صنعة» قلّت أو كثُرت، ظهرت أو خفيت.

(٣) شهد معاصرو ابن حجّة من أهل الأدب ومن الرؤساء والمدوحيين له بالتقدّم، والسبب على أهل عصره. وهذا سببٌ وجيهٌ للحسد أو إضرار ما يشبهه، ثم إظهاره في شكل: «خصومة».

(٤) اتّسعت دائرة ابن حجّة في منظومه «من الشعر والموشح والزجل والفنون الأخرى» وفي منشوره «من الإنشاء والترسل» وفي مؤلفاته ومختصراته، ومصنّفاته.. ولم يكن صاحباه على مثل حاله من هذا الاتّساع والظهور. وفي زمان المنافسة يكون اتّساع مجالات الأديب الكاتب من دواعي حسده والهجوم عليه.

(٥) انضمّ عددٌ غير قليل من المعاصرين لخصوم ابن حجّة، وفيهم شمسُ الدّين النواجي (محمد بن حسن) المتوفى سنة ٨٥٩ هـ. ونقرأ في ترجمته من الضوء اللامع^(١٥).

«وممّن كان يرغب في كتابته ويُجزل له العطاء بسببها التقيّ بن حجّة الشاعر، واختص لذلك بصحبته، واستطال به على الجلال البلقيني... ثم كان من بعد أكثر المؤيدين له في أول دولة الأشرف، وعمل كتابًا سماه: الحجة في سرقات ابن حجة». ثم قال إنّ النواجي كان يأخذ من شعر ابن حجة وينسبه لغيره!!

قال: «وربّما أنشأ الشيء ممّا نظمه التقيّ وعزاه لبعض من سبقه، إلى غير ذلك مما تحامل عليه فيه» وفي تنمة الكلام عند السخاوي وهو طريف غريب قوله: «وقد جُوزي (النواجي) على ذلك بعد دهر فإنّ بعض الشعراء صنّف كتابًا سماه قبح الأهاجي في النواجي جمع فيه هجو من دبّ ودرج... إلخ»^(١٦).

(١٥) الضوء اللامع ٧: ٢٣١.

(١٦) نفسه.

(٥) - في شخصية ابن حجة.

لابدّ - مع كثرة الشواهد الدالة على تحامل هؤلاء وأمثالهم على ابن حجة - من تقدير أمرٍ لازم، وهو أنّ ابن حجة بهذه الأسباب (وبغيرها على التوقع والاحتمال) كان يستثيرُ بعضَ الناسِ على نفسه، أو يسمحُ للعواطف بأن تبعد عنه، فهو لم يُؤتَ من قلة الأعوان كما يبدو، ولكنه أُصيبَ من كثرة الحُصوم، أو المنصرفين عنه ممّن حوله، ومن هنا دخلت الأمور الشخصية .. التي تكون عادةً بعيدةً - في الدرس الأدبي والنقدي، وصارت مؤثرة في مجراهما.

ولا بأس من إطراف القارئ الكريم بخبرِ موصولٍ بحديثنا هذا عن أَّحَدِ مُعاصري ابن حجة وسُكَّان مدينته حماه، هو: أبو بكر بن عبد الله بن قُطْلُبُك الدمشقي الأديب المنجم. وكان شاعرًا وزجالًا، قَدِمَ حماه وفيها كانت وفاته سنة ٨١٢ هـ. قال السخاوي بعد ذكر وفاة ابن قُطْلُبُك في البيمارستان التوري «وأوصى ألا يباع حمّاه إلا بمئة وخمسين درهمًا، وأن لا يباع لابن حجة، لكثرة بُغضه له!!».

وقد كان ابن قُطْلُبُك أديبًا ظريفًا وله مطارحات مع أدباء عصره...^(١٧)

لكنَّ حَظَّ ابن حجة منه لم يكن بأحسن من حظّه الذي سيلقاه مع ابن العطار وابن الحرّاط ومَنْ تحزّب لهما فتنياً وشخصياً.

- ونسأل أهو الحظّ، والمصادفة أم هي طبيعة التعامل مع الناس؟...

ويظهر من النصوص التي أثنى فيها على نفسه، ومن اعتراضات أصحابه القدامى ومَنْ هُم في طور تلامذته على عُجبه بنفسه، وعلى أسلوب تعامله معهم أنّ صوتَهُ

(١٧) قال ابن حجر في ترجمته من إنباء الغمر ٦: ١٨٥ (واشتهر بخفة الروح والنوادر المطربة...)

- ومن الغريب ذكر حمّاه في الوصية. وسوف نرى ان أصحاب ابن حجة كانوا يبنونه بالحمار المحنّي!!..

الداخلي كان عاليًا، وأن المرأة كانت تصوّر له شخصيّةً ضخمة جدًا، وإن كان هو مُثَقَّفًا وبارعًا، ونقرأ في وصف هذه الجوانب منه: «وعندما يصل (ابن حجة) إلى تقرّظ شعره أو نثره يبلغ في ذلك القمة في الزهو والإعجاب، فهو متنبّي عصره، وهو عسكريّ الصناعتين، إلى غير ذلك من النُّعوت التي كان يُضيفها على نفسه، والتي جلبت له الكثير من المتاعب في آخر حياته حتى إن تلاميذه تنكروا له بعد إعجابهم به مُدَّةً طويلةً من الزمن، ودفعهم ذلك إلى تتبع مثالبه وإظهارها...»^(١٨).

وإذا كان الاقتصاد في اعتماد كلام النواجي وأمثاله في ابن حجة ضروريًا لاختلاط الحقائق بأنواع التجيّي، فإنّ من الكلام الذي وَرَدَ عنه ما يرشّح إلى قبُول الصُّورة العامة التي انطبعت عنه في كتب التواريخ والتراجم، وفي بعض الشعر (المعتدل) الذي قيل فيه.

٦ - القصيدة الميمية وتوابعها.

نظّم ابن العطار قصيدته الميمية الموجهة إلى ابن حجة الحموي واستعمل تقنيّة إعلاميّة خاصة، لأنه لم يذكر فيها - قاصدًا - اسم المهجّو بالشعر. قال ابن الخراط وهو يقدّم للقصيدة: «قال يهجوّه والتزم بعدم التصريح باسمه لدلالة الكلام عليه، وهو أوّل من هجاه من الجماعة»^(١٩).

وكان البيت الأول منذرًا بشخص المخاطب بالشعر:

حيثُ اشتهرت بما قد شاع من قَطْمٍ دَعِ الخِضَابَ لما فيه من التُّهْمِ!

ويكفي أن نورد أبياتًا من القصيدة لتدلّ على ما فيها، وتبيّن من خلال ذلك

(١٨) ابن حجة: ٥٢.

(١٩) سوط العذاب: ١٠٠/أ.

اتجاهات ناظمها، والقضايا التي يثيرها.

١- يصف ابن العطار جوانب من شخص ابن حجة ويقف وقفة خاصة عند شبيهه وخضابه بالحُمرة. ويقوي شعره ببعض التضمين من أشعار السابقين:

يا أحمر الناس حتى في شواربه نعم وأزرق أعدائي جميعهم^(٢٠)
 إن شئت صفر أو أترك أبيضاً يفتاً لأنت أسود في عيني من
 الظُّلَمِ^(٢١)

٢- ويخرج من العيب الشكلي الذي يمكن التغاضي عنه إلى العيب الحقيقي:

لا عيب إلا لمن شابت عوارضه وعزمه في الأعادي غير مُحْتَلِم
 وإنما العيب في مَنْ شعره هدفٌ يُرمى بسهم الهجا من وقصة الكلم^(٢٢)
 العيب في الشعر ليس العيب في شعرٍ والشيب في الشعر دون الشيب في الشيم

فالعيب إذن في أمور أخرى غير شيب الرأس: من سقوط الهمة، ومن ضعف النظم والقريض.. (تلك هي القضية!).

٣- ويحذر الشاعر ابن حجة من هؤلاء (الجماعة) كما قدّم ابن الخراط، أو «القوم» كما سماهم ابن العطار:

واخلص بنفسك من قوم رقوا شرفاً من الحجا وتولوا إمرة الحكم

(٢٠) في (أحمر الناس) تورية بين لون الحمرة والنسبة إلى الحمير (وهذا هو المقصود). ولأهل الصرف كلام في مثل هذه الصيغة. والعدو عند العرب قد يوصف بالزرق (المقصود زرقه العيون... إلخ).

(٢١) الشطر الثاني لأبي الطيب المتنبي.

(٢٢) وقص الشيء: نقصه وعابه.

قومٌ إذا ما أنثنى للتّظّم واحِدُهُم سَعَتْ إلى نحوهِ الألفاظُ كالحَدَمِ!

فهؤلاء الشعراء (الجماعة - القوم) يغلبون ابن الحجة بشعرهم، ثم يتابع:

وما استرقّوا معاني النظم في غرضٍ إلا غَدَت كالجواري في بيوتهم

تقلّدوا بظبا الألفاظِ واتّشّحُوا بالفضلِ وامتنطّوا غاياتِ مجدّهم^(٢٣)

أنثوا فأنثى عليهم فالثناءُ إذن منهم إليهم فيهم بهم!

لم يعبّوا بالهجا إلا لنازلةٍ حلّت بناديهم من غير محتشم..

شيخٌ يرى الصلوات الخمس نافلةً ويستحلُّ دم الحجاج في الحرم^(٢٤)

ثم قال مخاطبًا ابن حجّة (دون أن يسمّيه كما سلف):

لأليسنك من هجوي ومن ملّح ثوبًا يعُمتك من رأسٍ إلى قدم!

وفي البيت عبارة دارجة، فيها كناية عن الشمول، ثم قال متابعًا:

ثوبًا لهتكك لا للسّترِ راقمه حديثٌ تجرّحك المرويّ من قدمٍ

(٤) ويعلن ابن العطار أنه (وأصحابه) لقي الأذى فردّ بالمثل، ومعنى هذا -

بحسب هذه الرواية - أن ابن حجّة هو الذي بدأ:

عُدْرًا فما أنت في الدنيا بأول من أذى فأوذّي أو من قد (رمى) فُرْمِي

(٥) ويقول إنّ ابن حجّة قصد إلى التقليل من شأنه (عداوة الصنعة كما يبدو):

يا ظالمًا زُمتَ كتماني وتُعْطيتي كما كتّمتَ بياضَ الشيبِ بالكتم^(٢٥)

أردت تخفيّني والله يُظهِرُني - برغم أنفك - ذا (عزّ) وذا سَمِّمِ

(٢٣) كذا فيه بواوين (وامتنطّوا) والوزن يقتضي ذلك التجوّر.

(٢٤) البيت لأبي الطيب المتنبي.

(٢٥) وفي الأصل المخطوط (والكتم) وقرأتها كما ترى و (الكتم) صبغة تُصنع من ثمرة شجر

الكتم: تتخذ للخضاب (صبغ الشعر خاصة).

هيهات أن أختفي عن كل ذي بَصِرٍ و(ناظر الجيش) عين الناس كلهم

وفي (ناظر الجيش) تورية، وإشارة إلى منصب كان يتولاه وقتها.

وكأنَّ هذه القصيدة وثيقة ادّعاءٍ من ابن العطار (ومن أشار إليهم ضمناً) وورقة دفاع. اختلطت فيها أمور العمل والصنعة، وأمور الشعر والنقد، والأمور الشخصية أيضاً.

(٧) - مُسَاجَلَات .

كانت رسالة ابن حجة (لزقة البيطار...) صدّى لما جاء في القصيدة الميمية التي سبقت الإشارة إليها، وُضِعَ فيها ابن حجة عشرين مقطوعة شعرية، هي جميعاً في هجاء ابن العطار. وإذا كانت الإشارات القبيحة في الميمية محدودة فإن ابن حجة فتح الباب على المصراعين. ومن هنا جاء الردّ من ابن العطار بثلاثين مقطوعة، وكان مُقدِّعاً رديماً إلا في القليل...

١- تبدأ رسالة ابن حجة بالشعر دون مقدمة إلا ما كتبه الناسخ (أو الراوي) «قال الشيخ الإمام الأوحّد.... الشهير بابن حجة رحمه الله يهجو بعض مَنْ هجّاه وهو الأديب شرف الدين يحيى بن العطار وسمّاه لزقة البيطار في هجو ابن العطار ثم قال...»^(٢٦)، وكان الناسخ اختصر المقدمة وبدأ بالشعر.. إلى أن قال:^(٢٧)

يحيى القطيمُ مُدَّ غدا يسرقُ من شعري ولم يُفكّرْ بلبس العيبِ
عزّاهُ ربُّ العرشِ أثوابَ التّقى وبَعَدَ ذا عاقبَهُ بالشّيبِ!

فابن حجة يدّعي على ابن العطار سرقة شعره!

(٢٦) لزقة البيطار ١٠٦/أ.

(٢٧) المصدر نفسه.

وقال: (٢٨)

يقول الشعر، بعد غلّو قدري نزلتُ إلى الحضيض ومثّ غمّا؟!
 بشعرٍ (مجدب؟) من نظم يحيى به صدر الزمان يضيق همّا! (٢٩)

شعرُ ابنِ العطارِ كالمومِ الثقيلةِ يضيقُ بها (صدر الزمان) ولا يقبله الناس كما يرى!.

وردّ ابن العطار بثلاثين قطعة في رسالته حوائج العطار. وظاهر من العنوان التعريض بابن حجة، ونقض ما في شعره. وإذا كان ابن حجة استعار لزقة البيطار فإن ابن العطار استفاد من اسمه والصنعة الملائمة له، وحضّر له (الحوائج) التي يعالج بها (عقر) الحمار. وأصله من قولهم عقر السرح، أو الحياصة (حزام الدابة) ظهر الحمار أو مكاناً أصابه الأذى وهو الجرح والحز.

١- إذن عنوان من ابن حجة يقابله عنوان (معالج) من ابن العطار.

وكان العطار - وما يزال جزئياً - يعمل ما يعمل الصيدي.

٢- عرض ابن العطار في الديباجة والتحميد بما نَبَرُوا بِهِ ابْنَ حَجَّةَ فَقَالَ: «الحمد لله مفضل الإنسان على ما سواه من الحيوان، والصلاة والسلام الأتمان والأكملان على أفضل مَنْ شَدَّدَ فيما عدا به سهام اللسان، وأعدل من أيد في الردّ عليهم بإحسان، وعلى آله وأصحابه الذابّين عن أعراضهم بالسيف واللسان...». (٣٠)

(٢٨) لزقة البيطار ١٠٦/أ.

(٢٩) الكلمة غير واضحة في الأصل، وهي مستحلاة تقريباً.

(٣٠) حوائج العطار ١٠٢/أ. وكأنّ المراد: (فيما عدت به سهام اللسان). والموجود في النص

مقبول أيضاً.

وواضح أن ابن العطار يمهّد لقطعهِ المِجَازِيَّةِ بهذا التسويغ غير المباشر، كما هو ظاهر.

١- وأوّل قطعة في الرّسالة تشير إلى مضمون العنوان، وفيها:

يا حمارًا عقرتُهُ بهجائي فتشقى بلرقة البيطار
قسماً ما شفتك إلا وفيها أترّ من (حوائج العطار)!

وبعدها:

عقرُ الحمار إن سرى وزاد في التلهّب
لا يلتقى دواؤه إلا بدكان أبي^(٣١)

والإشارة واضحة إلى شهرته: (ابن العطار).

٢- وظاهر أن قضية (تقوم الشعر) و (نقده) بالإمكانات المتاحة جزء من

الحملة المتبادلة، فقد قال: (٣٢)

إن هجاني شيخ الزمان أبو الطوّ سوف أهجوهُ ما حييتُ بهجو
ق بشعرٍ أبان عن سوء دوقه ضامنٍ للأنام تقطيع طوقه!

- وقال: (٣٣)

غير بدعٍ إن قامت الحربُ دهرًا بين ذقن ابن حجّة ولساني
تلك قيسيّة الإهابِ خضابًا ولساني كما علمت يماني!

وفي الشعر تورية، فالمعنى القريب الإشارة إلى جذمين عظيمين من العرب: القيسية

(٣١) كذا: لا يلتقى: أي يوجد. والصيغة عامية.

(٣٢) حوائج العطار: ١٠٣ / ب.

(٣٣) المصدر السابق: ١٠٤ / أ.

واليمينية^(٣٤). والمعنى البعيد المراد: من القيس وهي الشدة والغلظة، وأن لسانه كالسيف اليماني (قاطع جداً). والمراد هنا لسان الشاعرية، والتعريض بالهجاء.

- وقال في أواخر مقطوعاته، وكان أشار قبلها إلى سفر ابن حجة عن مصر:

إني عتقتك ما لم تأت عن سفرٍ يا أحمر الناس في شعرٍ وفي شعرٍ
فما من الفخر أن يسطو القوي على شيخٍ مريضٍ ولاسيما على سفرٍ!

وقد تكرر معنى (أحمر الناس في شعرٍ وفي شعرٍ رأسه) كثيراً في شعر ابن العطار، وتناوله غيره أيضاً.

وختم ابن العطار بقطعة فيها إقذاعٌ شديد، وفيها إشارة إلى عقر الحمار وعلاجه عند ابن العطار!.

(٨) - سوطُ العذاب!

في ترجمة ابن العطار في الضوء اللامع إشارة إلى صحبتته لابن الخراط قال: (وصادقُ الزين بن الخراط، وانحرفاً معاً عن التقي بن حجة...) (٣٥).

وجاء كتابه (سوط العذاب على شر الدواب) أشد من كتب صاحبه يحيى بن العطار، وأوسع. وافتتحه ابن العطار بالحمد والصلاة على رسول الله ﷺ، واحتذى أسلوب ابن الخراط (وهو معروف قديماً) فأشار في التحميد والصلاة إلى مضمون الرسالة والمقصود العام منها... فقال بعد البسملة «الحمد لله الذي زين الإنسان باللسان الناطق، وجعل أنكر الأصوات صوت الحيوان الناهق، والصلاة على سيدنا محمد رادع كل منافق بالفعل الصادق والقول الصادق، وعلى آله وصحبه الذين مرقوا

(٣٤) في الشعر إشارة إلى حروب قديمة بين القيسية واليمينية.

(٣٥) الضوء اللامع ١٠: ٢١٧.

بالمهجاء والمهيجاء أعداءه في كل مازق، وبعد...»^(٣٦).

وقدم ابن الخراط بمقدمة في نحو صفحة، وقال إن ميدان سباق الشعر خلا من الفحول لأنهم ابتعدوا هم بأنفسهم فخلا الميدان للحمير «أو عُرج الحمير كما قال»، وكان الميحيى بينها، وهو مقصوص لا يطير، ونحق بأشعاره فأذى الأسماع فحرك في الرؤوس والقلوب الصّداق والأوجاع، وحمل من هديانته في الأسفار الأسفار^(٣٧)، ولا بد إذا حمل الأسفار الحمار لبس على راكبيه بشبهة الحمار الميحيى، وعرى أشعاره لكن من المعنى، واحتال المختلّ في غير سرّجه، ودرج بالعرج في إنشائه فنفق إذ عبّر في درّجه. وظنّ أنه لمعاصريه سابق، وللمتقدمين من فرسان هذا الشأن لاحق، وقابل بطنين رأسه وكرهه ما أبرزه الشعر من أنفاسه ما شدا به مُطرب... كأنّه بلبل وهزار، وما فاح في الكون من شدا ابن (الصمّة وشميم العرار) و(نافس) ابن العطار الذي ملأ بشراب الأدب كأسه...^(٣٨).

وبعد وصفه بالحمار العثور، وإثبات ادّعائه في طريق الأدب وقع الحافر على الحافر (يتهمه بالسرقه وتسويغ ذلك بتوارد الخواطر) قال إنه قد برزت عليه فحول الأدب أسرع من هبوب [الرياح]^(٣٩)، وهجمت عليه (ليوث البلاغة) كما وصفهم من كل جانب. قال: «وكساه كلٌّ من جديد هجائه ما هو به خليق، وكواه عند سفره...»^(٤٠) ليستقيم على الطريق، وجمعوا ما هجوه به في هذا الكتاب، وسّموه: سوط العذاب على شرّ

(٣٦) سوط العذاب: ٩٤: أ.

(٣٧) الأسفار الأولى جمع سفر (رحلة) والثانية جمع سفر: (كتاب).

(٣٨) في الورقة سواد وخروم من أصل المخطوطة. وما بين معقوفتين مقدّر.

- إذا صح توقع الكلام المطموس، فالمراد قول الصمة القشيري (حماسة المرزوقي: ١٢٤٠)

تمتّع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشيّة من عرار!

(٣٩) سواد في الأصل.

(٤٠) كلام تركناه.

الدواب؟ إذ هو الحمار الجامع بين قبح الصمم والبكم والجنون. ومن أولى منه بهذه التسمية إذ ﴿شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] وجرّد كلّ منهم صارم مقوله وصال وبزّ لتجريح هذا القرن...»^(٤١)

فكتاب (سوط العذاب) إذن هو متابعة (للمعركة) التي احتدمت بين ابن حجّة وبين ابن العطار أولاً، وهي متابعة جماعيّة.

ومن هنا قال ابن الخزّاط في النقل السابق: (وكساه كلّ...) و(جمعوا ما هجوه به) و(سمّوه...). فالكتاب كما هو واضح عملاً جماعي، أو: لعلّ ابن الخزّاط أراد أن يجعله كذلك إشعاراً بتكتل هؤلاء الأدباء والكتّاب والشّعراء على ابن الحجّة.

وفي المقدمة السالفة احتجاج مريز على شخصيّة ابن حجّة صاحب الادّعاءات الأدبية الواسعة، وتحجيم له في فنّه، وأدبه، وشعره وشخصيّته، ورّفُض لما يصدر منه من آراءٍ شعرية ونقدية في زملائه ومعاصريه.

٩ - جَمَهْرَةُ الْمُحَاوِرِينَ

نَجَّ مَهْرَ لَرْدٍ عَلَى ابْنِ حَجَّةٍ، وَلْمَهَاجِمَتِهِ، وَالنَّيْلِ مِنْ شِعْرِهِ وَشَاعِرِيَّتِهِ، وَالسَّخْرِيَّةِ مِنْ رَأْيِهِ وَنَقْدِهِ عَدَدٌ مِنْ رِجَالِ الْعَصْرِ آنَذَاكَ وَفِيهِمْ بَدْرُ الدِّينِ الْبِشْتِكِيِّ وَلَهُ أَرْبَعُ قِطْعٍ، وَأُخْرَى خَامِسَةٌ فِي مُحَاوَرَةٍ لَهُ مَعَ شَمْسِ الدِّينِ النَّوَاجِي، وَشَهَابِ الدِّينِ الْحِجَازِيِّ، وَلَهُ تِسْعُ قِطْعٍ، وَشَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ النَّوَاجِيِّ وَلَهُ تِسْعُ عَشْرَةَ مَقْطُوعَةً مَعَ وَاحِدَةٍ فِي مُحَاوَرَةِ الْبِشْتِكِيِّ، وَصَلَاحِ الدِّينِ بْنِ الْغُرْسِ الْمِصْرِيِّ وَلَهُ إِحْدَى عَشْرَةَ مَقْطُوعَةً، وَخَصَّ ابْنَ الْخَزَّاطِ نَفْسَهُ بِأَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَأَبِي بَكْرٍ الدَّمَشْقِيِّ الْمُنْجَمِ قِطْعَةً وَاحِدَةً . كُلُّ هَذَا إِضَافَةٌ إِلَى الْقَصِيدَةِ الْمِيمِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ الْكَلَامَ عَلَيْهَا وَقَدْ بَلَغَتْ وَاحِدًا وَأَرْبَعِينَ بَيْتًا.

(٤١) سوط العذاب: ٩٤/ب.

١- أول قطعة في (سوط العذاب) لبدر الدين البشتكي (محمد بن إبراهيم، أبو البقاء الدمشقي الأصل، المصري ٧٤٨ - ٨٣٠هـ) (٤٢) قال (٤٣):

نظم ابن حجة في البديع قصيدة^(٤٤) غنيت عن التلخيص والإيضاح
[ومع؟] الغنى في نظمها مع شرحها فهو الفقير لصاحب المفتاح

والإشارة هنا إلى بديعة ابن حجة التي سُمي شرحها: تقديم أبي بكر، واشتهرت مع عصر الطباعة باسم: خزنة الأدب.

٢- ووقف شمس الدين التواجي في بعض مقطوعاته عند سرقات ابن حجة فقال:
نسب الأنام لنجل حجة سرقةً فأجبت: كفوا عن ملامة شاعر
هذا حمائر فارة في فنه ولكم حكي في النظم (وقعة حافر)

وكانوا يعتذرون أحياناً عن بعض المعاني التي ترد في شعر شاعرين اتفاقاً ومصادفة بأن ذلك من باب: وقع الحافر على الحافر، واستفاد الشاعر من التورية، وذكر بما كانوا يبنزون ابن حجة به من كونه: الحمار المحيى!

٣- وتعرض شهاب الدين الحجازي لشعر ابن حجة وشاعريته، واستفاد من عنصر التورية الذي كان سائداً، وأكثر شعراء هذه المدة كانوا معجبين بآبنة نبتة الذي أشاع هذا الفن - وإن كان معروفاً من قبل - وأورثه من بعده من الشعراء، قال الحجازي (٤٥):

(٤٢) أديب، فقيه، كاتب، شاعر، ترجم له في الضوء اللامع ٦: ٢٧٧ وأطال، وروى من شعره، واختار بيتين في هجاء ابن حجة وردا في سوط العذاب هذا.

(٤٣) سوط العذاب: ٩٤ / ب.

(٤٤) راجع المطالعة المفصلة عن الكتاب في: ابن حجة: ١٩٣ وما بعدها.

- وفي الشعر تورية بأسماء بعض كتب البلاغة المشهورة: التلخيص للقزويني والمفتاح للسكاكي، وفي العنوان تورية بتقديم شخصه (واسمه أبو بكر) على أدباء عصره، ولا يخفى ما في ذلك من الإغظة لهم!

(٤٥) سوط العذاب: ٩٦/ب - والشاعر هو شهاب الدين أحمد بن محمر بن علي الأنصاري عُرف

أضحى ابن حجة الحمار ناظماً شعراً غداً في غاية القصور
ويدعي التقديم والسبق معاً قلت: نعم، في طابق الحمير!

٤- وفي المشتركين في مواد (سوط العذاب): صلاح الدين خليل بن العرس المصري^(٤٦) (٧٨٧ - ٨٤٣) وكان من ملازمي بدر الدين البشتكي، وواضح أنّ هناك تجمهاً مع خصوم ابن حجة مع بعض تلامذتهم وأصحابهم، ولما بلغ ابن العرس أن ابن حجة علّق على أهاجي القوم فيه وقال: «ما حركوا في الهجاء شيئاً»، وقال:

لما عقرنا الحمار هجوا قال: وبين الضلوع ناز
ما حركوا في الهجاء، قلنا لك التحريك يا حماز!!

٥- وأضاف بعض المشتركين في هجاء ابن حجة جانباً شخصياً آخر هو ادعاؤهم عليه صفة ثقل الظل، وكان بعضهم شبهه بجبل المقطم، وقال ابن العرس^(٤٧):

قالوا: القطيم تقيي قد حاز لطفاً وظرفاً
فقلت: ذاك ثقيل لا تنقصوا النعت حرفاً

فكلمة «تقي» لقب ابن حجة إذا أُضيف إليها حرف اللام صارت «تقيل» وهي محرّفة بالعامية عن الثقيل (بالثاء المثلثة النقط).

بالشهاب الحجازي (٧٩٠ - ٨٧٥) فقيه عالم أديب، له مؤلفات متعددة. الضوء اللامع ٢: ١٤٧.

(٤٦) الضوء اللامع ٣: ١٩١.

(٤٧) سوط العذاب: ٩٦/ب.

- في شعر بدر الدين البشتكي (سوط العذاب ٩٤/أ):

عدمك يا ابن حجة من ثقيل به داء دفين قد تحكم
تمرّ على السورى تيهًا وعجبًا فنحلف أنك الجبل المقطم

ولاحظ التورية والنبز في اسم الجبل المقطم، (فقد نبزه بالقطيم كثيراً!!)

(١٠) - اهتمام ومتابعة.

نُسخت المخطوطات الثلاث بقلم واحد، وأُرخ النسخ بسنة ٩٥١ هـ إحدى وخمسين وتسعمئة بعد نحو قرن ونصف من تلك المعركة التي اختلطت فيها الأسباب وكثرت الأسماء وتناثرت الأشعار، وتنوّعت ادعاءات كل طرف على الآخر.

- وكانت البلاد قد صارت في إطار الدولة العثمانية التي خلفت دولة المماليك

ابتداءً من ٩٢٣ هـ.

- ولا بد أن نستنتج أن هناك نوعاً من الاهتمام بما جرى من احتدام أدبي -

نقدي - في ظل حركة أدبية يصحّ أن نصفها بالحركة النشيطة بصرف النظر عن حقيقة استفادة فنّ الأدب، وحركة النقد الأدبي، من ذلك الاحتدام.

- وسجّلت كتب التراجم، وبعض كتب الأدب (وقت اندلاع تلك الفوّرة بين

نفرٍ من أدباء العصر) نُبداً مما دار بينهم، ولكنهم لم يشهدوا لتلك المساجلات بالفائدة، ولم يحكموا عليها بالظرف والإمتاع: لأنّ التشنّج هو الذي حرّكها لا الحماسة الأدبية، والتوتّر الشخصي هو الذي غلب على مظاهرها حتى انتقل الشعراء والأدباء من سجال الكلام إلى الشتم والهجاء.

- ولا بدّ أيضاً، من إنصاف جمهرة المتّقين حول «مسألة ابن حجة» إذا صح

التعبير، فإنّ تجاوز الحدّ في الخصومة إلى التوتّر قديم: عرفناه في النقائض، وعرفناه عند بعض شعراء العصر العباسي، وخصوصاً مع ابن الرّومي الذي جعل الإقذاع أحد أسلحته في المحجوم والدّفاع.

لكن مادّة الرّسائل الثلاث التي وقفنا عندها في معظمها من نوع النصوص

الخارجة عن الانضباط، والملامح الهادئة قليلة، والقِطْع ذات الألق الفئّي نادرة.

بالمناسبة، أذكر هنا عبارة قرأتها في ترجمة أبي بكر، النقيّ البساطي «ولو وُجدَ مَنْ يَعْنِي

به لأدرك القدماء» والعناية هنا تعني الرعاية العلميّة المعمّقة، ورفع المستوى الثقافي العام

والتخصّصي الدقيق، والتدريب الكافي، ولو كان أولئك الأدباء في ظلّ ثقافة عالية وتربية أدبية كافية لجعلوا هذه الحركة ذات الأهمية المحدودة جدًّا حركةً موصولةً بما كان، ولكنّ الركود والجمود هو نتيجةٌ من جهة وسببٌ لاستمرار تلك الحال من جهة أُخرى!

(١١) - مَعَالِمُ وَسَمَات .

١- إذا نظرنا في أكثر هؤلاء الذين شاركوا في حملة الهجاء والتراشق أو «الجماعة» كما سمّاهم ابن الخراط في (سوط العذاب) وجدنا:

- أكثرهم ممّن جمعوا الفقه إلى الجوانب الأدبية.
- ومن المشتغلين بالأعمال الرسمية الحكومية، وممّن يباشرون مصالح الكبراء كالسلطان والقاضي وناظر الجيش.
- وممّن تجاوزوا الكهولة أو كانوا في أطرافها العليا.
- وممّن كانت تجمعهم الصداقات الشخصية، ومصالح العمل المشترك، أو العمل الفتي الإداري في نطاق واحد.

- وممّن أثنى المؤرّخون على صفاتهم الشخصية الفرديّة.
- ولا شك في أن الملاحظات ذات أهميّة، وتطرح أكثر من سؤال.
- ٢- وإذا رجعنا إلى النصوص الشعرية في إطار «الحركة» المذكورة وجدنا:
- أن أكثر الشعر الذي بين أيدينا مما تداولوه فيما بينهم شعر مسيح (مسوح) قليل العائدة، ضعيف الخصائص الفنية.

- وأن أكثره قريب إلى الإسفاف، أو هو مثل للإسفاف مباشرة.
- وأنّ الهجاء كان مُقدِّعًا شديد الإقذاع، ولو وقفوا عند حدّ لما نقص من مواقفهم شيء.

- وأنّ كثيرًا من المقطوعات مبني على ألفاظ وعبارات (جنسيّة) خارجة، ولو احتكم

أحدهم (لو لم يشارك في خوض الحمأ) لاستطاع أن يحاكمهم عند قاضٍ جزائي. وهذا كله غريب، ولكنه - كما يبدو - كان جزءاً من تساهل العصر.

٣- ويلفت النظر إقحام شخصية الحمار في موضوع الخلاف، وقد وجدنا الاسم ثابتاً في القصيدة الميمية (لابن العطار)، وهي التي أطلقت شرارة تأليف الكتب أو الرسائل الثلاث، وحرّكت «قرائح» خصوم ابن حجة والحاطبين في حبلهم فكان عنوان رسالة ابن حجة: لزقة البيطار... وهو طيب البهائم وفيها الحمار، وكان عنوان رسالة ابن العطار «حوائج العطار في عقر الحمار» والكلام موجه إلى ابن حجة الذي نصبوه حمأً يرمى بسهام الشعر والزجل وغيرهما، ثم كان عنوان كتاب ابن الخراط «سوط العذاب على شرّ الدواب».

وعلى مزايا الحمار التي يعرفونها أخذوا الوجه الآخر، وهو النبز باللقب على الوجه الشائع، وإلا فإنهم يصفون من يعمل بمجد إنه حمار شغل، والعبارة ثابتة في الفصيح ثباتها في العامية الدارجة.

وتفتن الشعراء في الكلام على الحمار في مقطعاتهم وهي كثيرة، وأضافوا إليه الصبغة الحمراء لأن المهجو كان يصبغ باللون الأحمر... وتفتقت مواهب الشعراء بالكثير من الكلام، لكنّ ما قرأت من هذه الأشعار يخلو من قطعة واحدة يصح أن تثير السخرية الحقيقية (لأنها مرسومة بإتقان، أو لأن صاحبها أطلق شعراً يشبه الصورة الكاريكاتورية).

لقد ضمنت الأشعار الهجاء، ووصلت أحياناً إلى الإقذاع، ولكنها لم تكن «ممتعة» ولا حسنة (بالمعنى الفني).

إنه نوع من العقم، حتى في المقطعات التي نشأت أصلاً لتصوير اللقطات السريعة الذكية التي تختصر المواقف وتلهب الخيال.

كلام أكثره (فيما قرأته وبحسب ذوقي الشخصي) غسيل من جهة، وشاحب

اللّون من حيث الإغراب والإطراف والتقاط اللمحة المعجبة أو المضحكة أو المثيرة للسخرية الذكية. - وأين؟! ومن أين؟

١٢ - خلاصة البحث ونتائجه .

١- لو شئنا تلخيص هذه الخصوصية المتلبّسة بالقضايا الأدبية والنقدية (إضافة إلى الجوانب الاجتماعية والشخصية) لوضعنا عنواناً يقول:

«الجِدُّ كل الجِدِّ في هَزْل! والهَزْلُ كل الهزل في جِدِّ!

وكلمة (لو) لا يُجيز المؤرخون استعمالها في البحوث والدراسات الجادّة، ولكنهم تركوا للمُشتغلين بالفنِّ ومراجعة حركة الحضارة، وللَّذين يستنتجون ويعلمون الناس من الأخطاء كما يعلّمونهم من علامات النجاح، ومن هنا يقف دارس الحركة الأدبية والنقدية عند العصر المملوكي باحثًا عن جذور هذا «الجمود» الذي ثبت عقارب الساعة زمانًا طويلاً.

٢- يدور البحث حول ظاهرة ابن حجّة الحموي في خلافه مع عدد من أصدقائه التُّدامي الذي استحال إلى خصومة، ثم تحركت الخصومة فأنتجت رسائل أدبية نقدية وقصائد ومقطعات شعرية وأزجالاً تدخل في تلك الخصومة. والذي يُستوَج دراسة هذه الظواهر ارتباطها بالجانب الأدبي التّقدي (على بساطة حالهما آنذاك) إضافةً إلى الصّوّت العالي في المناقشات والرّدود، وكون ذلك كلّ في إطار الحركة الأدبيّة والثقافية والاجتماعيّة أيضًا.

وقد وصل إلينا ثلاث رسائل لثلاثيّة من أدباء العصر تُعَرِّض مادّة أدبيّة (شعريّة في أغلبها) تقدّم أجوبةً عن تساؤلات بعض الباحثين الذين دَرَسُوا شخصيّة ابن حجّة، وأثاروا قضية الاختلاف بينه وبين بعض رجال عصره، لأنّها أنتجت نُصوصًا شعريّة، وملاحظات نقدية، وصبغت الحركة الأدبية بصبغتها في سنوات غير قليلة من صور القرن الهجري التاسع.

٣- قدّم البحث تصوّرًا للمعركة الأدبية (الممزوجة بالخلافات الشخصية الحادّة)

ووضع أسباباً راجحةً لتلك المعركة، وتابع مجرياتها بحسب ما ورد في المخطوطات الثلاث، وبحسب ما يتعلّق بها في المصادر والمراجع وبمقدار ما يحتاجه البحث من ذلك، ومواصلةً لما قدّمه الباحثون من قبل.

٤- أسهم البحث في تكميل جانب من صور العصر الذي عاشوا فيه، وأعتقد أن طبيعة البحث في هذه المِدَّة، ستكون أكثر وضوحًا بالعودة إلى هذه النصوص، ومراجعة مطالعة هذه الدّراسة باعتبارها نظرة إضافية ولو من وجهة نظر شخصية، ووضع النصوص المتعارضة متجاوزةً (أو وجهًا لوجه كما يقال) يقرب الباحث من الموضوعية، ويقارب الميزان من الإنصاف.

٥- وهذا البحث بما قدّم من نُصوص جديدة، وما قدّم من مطالعة أو تفسير يُسهِم - ولو جزئيًا - في التمهيد لقراءة الخصومات التي ظهرت في العصر الحديث، وخصوصًا تلك الخصومات التي ارتفعت فيها الأصوات، واشتطت العبارات، وحميت العواطف، ويوجّه النظر إلى الاختيار القاصد للعناوين المثيرة.

٦- أثبت البحث في مجرياته حقيقة تقدّم ابن حجة على أقرانه، وفسر الجوانب التي تتعلّق بشخصه وشخصيته والتي أثارت عليه «الجماعة» كما سماهم خصمه ابن الخراط، نعم! لقد كان ابن حجة - مع كل ما قيل - الشخصية المحورية في تلك السّجالات الحادّة، والعاصفة أحيانًا، وعبارة «تقدم ابن حجة» نسبيّة، موصولة بزمانه، ورجال زمانه.

٧- سجّل البحث استمراريّة نشاط غرض المديح في العصر المملوكي (حتى العصر الثاني: المماليك البرجّية)، لقد كان المديح الباب الذي نفذ منه كثير من شعراء العصر إلى الشّهرة عامّة، وإلى المناصب الإدارية والاختصاصيين (كتابة الإنشاء) خاصّة.

٨- سجل البحث في مجرياته أنّ شعراء تلك المدة كانوا بارعين في الترسّل الفني ومشاركين مشاركة أساسيّة في كثير من العلوم الشرعية والإسلامية (الفقه خاصّة) ولا نجد الشاعر الذي احترّف صنعة الشعر، واستطاع أن يعيش منها (دون غيرها)، وهذا الملمح

استمرار لما كانت عليه أحوال الشعراء في المشرق والمغرب قبل ذلك بكثير.
٩- ظهر النقد الأدبي، من خلال المخطوطات المذكورة ضعيفاً جداً... محدوداً، تغلب عليه نزعات شخصيَّة «متشجحة».

المصادر والمراجع

- ١- الأدب في العصر المملوكي - د. محمد زغلول سلام - دار المعارف بمصر ١٩٧١م الجزء ٢.
- ٢- الأعلام - الزركلي - دار العلم للملايين (١ - ٨).
- ٣- إنباء الغمر بأبناء العمر - ابن حجر العسقلاني - دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن - المهند (١ - ٩) ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- ٤- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - الشركاني (١ - ٢) مطبعة السعادة - مصر - ١٣٤٨هـ.
- ٥- البديعيات - أ.د. علي أبو زيد - (عالم الكتب) - بيروت - ١٩٨٢م.
- ٦- تاريخ آداب اللغة العربية (ج٣) جرجي زيدان - طبعة أشرف عليها د. شوقي ضيف دار الهلال - مصر.
- ٧- تاريخ الأدب العربي - د. عمر فتروخ - (ج٣) دار العلم للملايين - بيروت - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- ٨- تاريخ الأدب العربي - العصر المملوكي - د. عمر موسى باشا - دار الفكر - دمشق ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ٩- تقديم أبي بكر (خزانة الأدب) ابن حجة الحموي - بولاق (مصر) ١٢٧٣هـ.
- ١٠- ابن حجة الحموي - أ.د. محمود الربادوي - دار قتيبة - دمشق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ١١- ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار - أ.د. عبد العزيز الأهواني - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة.
- ١٢- ديوان أبي الطيب المتنبي (النسب للعكبري) مصطفى السقا وآخرون طبع مصطفى الباي الحلبي - القاهرة.
- ١٣- ديوان ابن نباتة مصر (مصورة في دار الجيل بيروت بلا توثيق!).
- ١٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ابن العماد الحنبلي - مكتبة القدسي (تحقيق حسام الدين القدسي) ١٣٥٠هـ.
- ١٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - السخاوي - تحقيق حسام الدين القدسي - مكتبة القدسي - القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٥هـ.

ابن جني وأثره في البحث اللغوي الغربي

د. حازم سليمان الحلبي (*)

حياته و نشأته:

هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، وجي بكسر الجيم وتشديد النون^(١)، كان مملوكاً رومياً لسليمان بن فهد الأزدي^(٢)، ولم يُذكر من نسبه بعد أبيه شيئاً، أمّا أمه فكانت جارية رومية^(٣)، وكان ينتسب إلى الأزدي بالولاء^(٤)، ولهذا كان يفخر بعلمه لا بنسبه فيقول^(٥):

فإن أصبح بلا نسب فعلمي في الوري نسي

ولا يحتاج أبو الفتح بن جني إلى أكثر من أن يقال قال ابن جني وينطبق عليه

قول الشاعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يُغنيك محموده عن النسب

وُلد ابن جني في الموصل حوالي سنة ٣٢٠هـ^(٦)، وفيها نشأ في عصرٍ ظهر فيه عددٌ من التوابع في الفنون والآداب والعُلوم، وساهمت فيه الثقافة العربية الإسلامية في

(*) باحث وأستاذ جامعي من العراق.

(١) الخصائص، المقدمة: ٨/١.

(٢) نزهة الألباء: ٢٤٤، والوافي بالوفيات: ٦/٣٣٦.

(٣) الحضارة الإسلامية: ٤٣٧.

(٤) الخصائص، المقدمة: ٥/١، واللمع: ٧.

(٥) الخصائص، المقدمة: ٧/١، ووفيات الأعيان: ٣/٢٤٦، والوافي بالوفيات: ٦/٣٣٧.

(٦) الخصائص: ٩/١، وابن جني النحوي: ٤٠، والدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني: ١٢.

الحضارة الإنسانية. وقد وهب الله تعالى أبا الفتح ابن جني حظاً عظيماً من الحدق والذكاء والبراعة والاستقصاء والاستنباط والجدل والرغبة في التحصيل والعلم. ودفعه طموحه إلى أن يتصدّر للتدريس مبكراً لما أحس في نفسه الملكة والقدرة على التدريس، وجلس ابن جني الفتى في جامع الموصل يُدرّس الصّرفَ فمرّ به سنة ٣٣٧هـ^(٧)، العالم الكبير الحسن بن أحمد بن عبد العفّار أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) إمام النحو في زمانه^(٨)، فوجده يشرّح مسألةً صرفيةً، هي قلب الواو ألفاً في قام يقوم، وقال يقول، وناقشته أبو علي فيها فوجده مُقَصِّراً في الجواب. فقال له أبو علي: زبّت قبل أن تُحصِر^(٩).

لم ينجح الأستاذ الفتى في ذلك الاختبار، وأُحرج موقفه، وأحس أنه مازال في حاجة إلى اكتساب المعرفة من مثل هذا العالم، وعرف أن العلم كلما أوغل فيه أدرك أنه ما يزال على مشارفه، وكلما ازداد منه ريباً ازداد إليه ظمأ.

فكانت هذه الحادثة سبب اتصال ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) بشيخه أبي علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) فطلق الدنيا ولزم أبا علي، في جلّه وترحاله، فكان مقامه منه مقام سيوييه (ت ١٨٠ هـ) من شيخه الخليل (ت ١٧٥ هـ)، وكما كان سيوييه حاذقاً وأميناً فيما نقل عن الخليل فقد كان ابن جني صادقاً وأميناً فيما نقل عن شيخه أبي علي الفارسي.

وصاحب ابن جني شيخه أبا علي صُحْبَةً دامت أربعين سنة^(١٠)، وصنف في زمانه ووقف أبو علي على تصانيفه واستجادها^(١١)، ولم يفترقا إلا بموت أبي علي سنة

(٧) الخصائص المقدمة: ١٧ / ١ - ١٨.

(٨) نفسه: المقدمة: ١ / ١٨، ووفيات الأعيان: ٣ / ٢٤٦.

(٩) نزهة الألباء: ٢٤٥، والوفاي بالوفيات: ٦ / ٣٣٦.

(١٠) نزهة الألباء: ٢٤٥، وبغية الوعاة: ٢ / ١٣٢.

(١١) إنباه الرواة: ٢ / ٣٣٦، والخصائص: المقدمة: ١ / ١٩، وسر صناعة الإعراب: المقدمة: ١ / ١٠.

٣٧٧هـ^(١٢)، فتصدَّر بعده ابنُ جَنِّيِّ للتدريسِ متربِّعًا على كرسيِ الأستاذيةِ في بغدادَ وقد بارَكَ اللهُ في عمره، فعاشَ حوالي سبعينَ عامًا، قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ سنةَ ٣٩٢هـ^(١٣). وَلَهُ ثلاثَةُ أولادٍ، عليّ والعالِي والعلاءُ كُلُّهُمْ فُضَّلَاءُ أَدْبَاءِ^(١٤). وَمِنْ صِفَاتِهِ أَنَّهُ كَانَ أَشْفَرَ^(١٥) وَكَانَ مُتَمَعًّا بِإِحْدَى عَيْنَيْهِ^(١٦)، وَكَانَ إِذَا تَكَلَّمَ يَمِيلُ بِشِدْقِهِ وَيُشِيرُ بِيَدِهِ^(١٧).

كَانَ أَبُو الْفَتْحِ رَجُلًا جَدِّ وَامْرَأً صِدْقٍ عَفَّ اللِّسَانَ وَالْقَلَمَ^(١٨). وَكَانَ مِنْ تَلَامِذَتِهِ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ (ت ٤٠٦ هـ) الَّذِي شَرَحَ ابْنُ جَنِّيِّ بَعْضَ قِصَائِدِ دِيَوَانِهِ وَشَهِدَ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ بِعِفَّتِهِ وَصِدْقِهِ فِي قَوْلِهِ عِنْدَمَا رثَاهُ فَقَالَ^(١٩):

مضى طيبَ الأردانِ يَأرُجُ ذِكْرُهُ أَرِجَ الصَّبَا تَدَى لِعِرْنِينَ نَاشِقِ
وما احتاجَ بُردًا غَيْرَ بُرْدِ عَفَافِهِ وَلَا عَرَفَ طِيبَ غَيْرِ تِلْكَ الْخَلَّاقِ

وَكَانَ ابْنُ جَنِّيِّ صَدِيقًا لِلشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ الْكَبِيرِ أَبِي الطَّيِّبِ أَحْمَدَ الْمُتَنَبِّيِّ (ت ٣٥٤ هـ) فَقَدْ تَصَاحَبَا زَمَنًا طَوِيلًا، وَكَانَ كُلُّهُمَا مَعْجَبًا بِالْآخَرِ^(٢٠).

وَقَدْ شَرَحَ أَبُو الْفَتْحِ دِيَوَانَ الْمُتَنَبِّيِّ شَرْحًا كَبِيرًا أَسْمَاهُ (الْفَسْرُ)^(٢١)، وَشَرْحًا صَغِيرًا

(١٢) سر صناعة الإعراب: ٣٤/١ والمنصف ٣/٣٤٨.

(١٣) وفيات الأعيان: ٣/٢٤٨.

(١٤) معجم الأدباء: ١٩/٥، والوافي بالوفيات: ٣/٣٣٦.

(١٥) فهرسة ابن خبير: ٣١٨.

(١٦) معجم الأدباء: ١٨/٥.

(١٧) نفسه: ١٦/٥، والوافي بالوفيات: ٦/٣٣٦.

(١٨) الخصائص المقدمة: ١/١٤.

(١٩) ديوان الشريف الرضي: ٥٦٤/٢، والوافي بالوفيات: ٦/٣٣٧.

(٢٠) ذكرت هذه العلاقة في بحث لي بعنوان: ابن جني الناقد.

(٢١) حققه الدكتور صفاء خلوصي ونشره في بغداد عام ١٩٧٨ م.

أسماءه (الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي)^(٢٢).

ثقافته ومذهبه النحوي:

تُعرفُ ثقافتهُ ابنُ جنيّ الغزيرُ منَ الرُّجوعِ إلى مُؤلِّفاتهِ المهمّةِ التي تَرَكَها بعدَهُ، وأودَعَ فيها عُلُومًا جَمَّةً فقد تَرَكَ لنا حوالي سبعينَ كتابًا مُهمًّا، وتشهدُ لَهُ تِلْكَ المُؤلِّفاتُ على سَعَةِ بَاعِهِ وعلوِّ كعبِهِ في اللغةِ وفقهِ اللغةِ، والنَّحوِ والصَّرْفِ، والأدبِ والنَّقْدِ الأدبي، والقراءاتِ وعُلُومِ القرآنِ.

وهو يَدْكُرُ في مُؤلِّفاتهِ أسماءَ بعضِ العُلَماءِ الذينَ اتصلَ بِهِم وأخذَ عَنْهُم، فَوَعَى، وتألَّقَ نُجْمُهُ في الأدبِ واللغةِ وعُلُومِهَا وفقِهَا، وعُلُومِ القرآنِ، حتَّى صارَ إمامَ عَصْرِهِ فيها، وإليه انتهتِ الرُّئاسةُ، وَيَرْجِعُ الفضلُ في ذلكَ إلى أهماً أستاذٍ أخذَ عنهُ وأثَّرَ فيه تأثيرًا كبيرًا ذلكَ هو الإمامُ الجليلُ الكبيرُ الحَسَنُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ العَقَّارِ أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) الذي رَفَعَ مِنْ شأنِ المذهبِ النَّحويِ البصري^(٢٣)، حتَّى جَعَلَهُ بعضُ تلاميذِهِ فوقَ المبرِّدِ^(٢٤) (ت ٢٨٥هـ) وأَعْلَمَ منه^(٢٥)، بل هُنَاكَ مَنْ يَقولُ عن أبي علي الفارسي: ما كان بينَهُ وبينَ سيبويه مَنْ هو أَفضلُ منه^(٢٦).

ويبدو أثرُهُ في أبي الفتحِ جليًّا في أُسْلُوبِهِ وَمَنْهَجِ بَحْثِهِ العِلْمِيِّ، واستعمالِ المنطِقِ في الاحتجاج^(٢٧)، من غيرِ أَنْ يُبَالِغَ في ذلكَ مُبالَغَةً أستاذِهِ، كما عُنيَ ابنُ جنيّ بالقياسِ

(٢٢) حققه الدكتور محسن عيَّاض ونشره في بغداد عام ١٩٧٣م.

(٢٣) نشأة النحو: ٢٠٠.

(٢٤) هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد صاحب العلم الغزير ومؤلف الكامل والمقتضب وغيرهما. يُنظر

في: تاريخ بغداد: ٣/ ٣٨٠، ونزهة الألباء: ١٦٤، وإنباه الرواة: ٣/ ٢٤١.

(٢٥) تاريخ بغداد: ٧/ ٧٥.

(٢٦) نزهة الألباء: ٢٣٢.

(٢٧) المحتسب: ١/ ٩٥ - ٩٦.

حَتَّى قَالَ: (وَنَحْنُ نَعْتَقِدُ إِنَّ أَصْبِنَا فَسْحَةً أَنْ نَشْرَحَ كِتَابَ يَعْقُوبَ بْنِ السَّكِّيتِ^(٢٨)، (ت ٢٤٤ هـ) فِي الْقَلْبِ وَالْإِبْدَالِ، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ هَذِهِ الْحَالِ فِيهِ أَمْثَلُ مِنْ مَعْرِفَةِ عَشْرَةِ أَمْثَالٍ لَعْنَتِهِ وَذَلِكَ أَنَّ مَسْأَلَةَ وَاحِدَةٍ مِنَ الْقِيَاسِ أَنْبَلُ وَأَنْبَهُ مِنْ كِتَابٍ لُغَةٍ عِنْدَ النَّاسِ. قَالَ لِي أَبُو عَلِيٍّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِحَلْبِ سَنَةِ سِتِّ وَأَرْبَعِينَ: (أَخْطِئُ فِي خَمْسِينَ مَسْأَلَةً فِي اللُّغَةِ وَلَا أُخْطِئُ فِي وَاحِدَةٍ مِنَ الْقِيَاسِ)^(٢٩).

وَابْنُ جَنِّيٍّ فِي مُصَنَّفَاتِهِ يُكْثِرُ مِنَ الْأَخْذِ عَنِ أَبِي عَلِيٍّ وَالِاسْتِشْهَادِ بِأَقْوَالِهِ^(٣٠). وَأَخَذَ عَنْ غَيْرِ أَبِي عَلِيٍّ أَقْلًا مِمَّا أَخَذَ عَنْهُ، فَقَدْ أَخَذَ عَنْ جُمْلَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَمْثَالِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُوَصِّلِيِّ^(٣١)، الْمَعْرُوفِ بِالْأَخْفَشِ^(٣٢)، وَأَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ يَعْقُوبَ الْمَعْرُوفِ بَابِنِ مُقْسِمٍ (ت ٣٥٤ هـ)^(٣٣)، وَأَبِي الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيِّ (ت ٣٥٦ هـ)^(٣٤)، صَاحِبِ كِتَابِ الْأَغَانِي، وَأَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ هَارُونَ الرَّوْيَانِيِّ (ت ٣٥٨ هـ)^(٣٥) وَغَيْرِهِمْ^(٣٦)، كَمَا اتَّصَلَ بِالْأَعْرَابِ

(٢٨) هو العالم اللغوي الكبير أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت صاحب كتاب إصلاح المنطق، الذي أفرغ فيه علماً لغوياً جماً. قتله المتوكل العباسي عام ٢٤٤ هـ.

(٢٩) الخصائص: ٢ / ٨٨.

(٣٠) يُنْظَرُ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، لَا الْحَصْرَ: الخصائص: ١ / ٩٢ و ١٢٠ و ٢٠٨ و ٢٦٢ و ٢ / ٤٧٣ و ٣ / ٢٢٧ و ٢٥٥ ، وفي كتاب ابن جني النحوي: ٤٣ أَنَّ ذِكْرَهُ تَرَدَّدَ فِي كِتَابِ الْخِصَائِصِ وَحَدُّهُ (٢٢٤) مَرَّةً، وَيُنْظَرُ فِي: سر صناعة الإعراب: ١ / ٤٥ و ٥٥ والخمسة: ١ / ٨٨ و ٩٥ و ١٣٧ و ١٧٤ و ٢٥٨ و ٣٤٠ و ٢ / ٢٥ و ٥٤ و ١٥٢ و ١٥٥ و ١٧١ و ٢٣٩ و ٣٣٠.

(٣١) بغية الوعاة: ٣٨٩.

(٣٢) منهج الأخفش الأوسط: ٢٣.

(٣٣) الخصائص: ١ / ٦٨ و سر صناعة الإعراب: ١ / ١٥٢ و المبهج ٤٧ و تاريخ بغداد: ٢ / ٢٠٦ و ابن جني النحوي: ٢٨.

(٣٤) سر صناعة الإعراب: ١ / ٥٤ و ٨٤ و ٢١٣ و الخصائص - المقدمة -: ١ / ١٥.

(٣٥) الخصائص - المقدمة -: ١ / ١٥ و ١ / ٧٥ و المنصف ٣ / ٣٤٨.

(٣٦) المصدران السابقان وابن جني النحوي: ٢٨ - ٣٤.

وأخذَ عنهمُ ومنَ بينهمُ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ العَسَافِ العُقَيْلِيُّ التَّمِيمِي الشَّجَرِي^(٣٧).
كان ابن جني - كشيخه أبي علي - بصريَّ الهوى النحوي، فهو في بحثه يجري
على أصول مدرسة البصرة النحوية وينافح عنها ويذب ولا يألو في ذلك جهداً، وهذا
واضح من مؤلفاته، جاء في كتابه سر صناعة الإعراب قوله: (كما قال الآخر:

أَنْ تَهْبَطِينَ بِلَادَ قَوْ مِ يَرْتَعُونَ مَنْ الطَّلَاحِ

فهذا على تشبيه (أن) بـ (ما) التي بمعنى المصدر، في قول الكوفيين، فأما على
قولنا نحن فإنه أرادَ أنَّ الثَّقِيلَةَ، وَخَفَّفَهَا ضَرُورَةً، وَتَقْدِيرُهُ: أَنْكَ تَهْبَطِينَ^(٣٨).

وقال أيضاً (فإذا قلت: أنت كزيد وجعلت الكاف اسماً فلا ضمير فيه كما أنك إذا قلت:
أنت مثل زيد فلا ضمير في (مثل) كما لا ضمير في الأخ ولا الابن إذا قلت: أنت أخو زيد،
وأنت ابن زيد. هذا مثل قول أصحابنا. وإن كان قد أجاز بعضُ البغداديين لأن يكون في هذا
النحو الذي هو غيرُ مُشْتَقٍّ من الفعلِ ضميرٌ كما يكون في المشتق^(٣٩). ومن الواضح أنه إنما
يريد بقوله (أصحابنا) البصريين.

ولكن هذا لا يمنعه أن يأخذ بالحق إذا اقتنع به على أي مذهب كان فقد وافق
البصريين في الخصائص^(٤٠)، ثم رجع في المحتسب فوافق الكوفيين فقال: ومذهب
الكوفيين فيه أنه يُحْرِكُ الثَّانِي لِكَوْنِهِ حَرْفًا حَلَقِيًّا فَيُجِيزُونَ فِيهِ الْفَتْحَ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوهُ
كَالْبَحْرِ وَالْبَحْرِ، وَالصَّخْرِ وَالصَّخْرِ^(٤١). ثم يقول: وما أرى القول من بعد إلا معهم

(٣٧) الخصائص - المقدمة - : ١ / ١٥ و / ٧٦ و ٧٨ و ٢٤٠ و ٢٥٠ و المحتسب ١ / ٨٤ و ١٦٧

و ١٦٦ / ٢ و ٢٠٩.

(٣٨) سر صناعة الإعراب: ٢ / ٤٤٨.

(٣٩) نفسه: ١ / ٢٩٠.

(٤٠) الخصائص: ٢ / ٩.

(٤١) المحتسب: ١ / ٨٤.

والحق في إله إلا في أيديهم.

ونسب هذا الرأي في مكان آخر إلى البغداديين ويريد بهم الكوفيين فيقول: ولعمري إن هذا عند أصحابنا ليس أمراً راجعاً إلى حرف الحلق لكنّها لغات. وأنا أرى في هذا رأي البغداديين في أنّ حرف الحلق يُؤثّر هنا من الفتح أثراً مُعتدّاً مُعتَمداً^(٤٢)، وإنني أرى فيه رأيهم لا رأي أصحابنا^(٤٣)، حتّى يقول: ولا قرابة بيني وبين البصريين ولكنّها بيني وبين الحقّ والحمد لله^(٤٤).

وهو في كلّ هذا إنّما يسلك طريق السلف بالرجوع إلى الأعراب والسَّماع منهم فقال: حتّى لسمعت الشَّحْرِيَّ يقول: أنا محمومٌ بفتح الحاءِ وسمعتُه مرّةً أخرى يقول وقد قال له الطَّيِّبُ: مُصَّ الثَّفاحِ وارم بثفله - : والله لقد كنتُ أبغي مصّه وعليته تَعذو بفتح العين، ولا أحد يدعي أنّ في الكلام يفعل، بفتح الفاء^(٤٥).

وسمع جماعة من عُقيلٍ يقولون: اللحم يريدون اللحم.
ويقولون: ساروا نحوّه، بفتح الحاءِ^(٤٦).

وهو أمرٌ وردّ في القراءات القرآنية ومن ذلك قراءة محمد بن السَّمِيفِج^(٤٧): (قَرَح)^(٤٨) بفتح القاف^(٤٩)، وقراءة الحسن (ت ١١٠هـ): (إلى يوم

(٤٢) المحتسب: ١/١٦٧.

(٤٣) نفسه: ٢/١٦٦.

(٤٤) نفسه: ١/١٦٧.

(٤٥) نفسه: ١/٨٥ و١٦٧.

(٤٦) نفسه: ١/٨٥.

(٤٧) هو محمد بن عبد الرحمن بن السَّمِيفِج بفتح السين أبو عبد الله اليماني القارئ له اختيار في القراءة ينسب إليه، قرأ على أبي حيوة شريح بن يزيد عن إبراهيم، وقيل إنه قرأ على نافع وعلى طاووس بن ميسان عن ابن عباس. ينظر: غاية النهاية: ٢/١٦١.

(٤٨) آل عمران: ٣/١٤٠ من قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾

(٤٩) المحتسب: ١/١٦٦.

الْبَعَثُ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعَثِ^(٥٠)، يَفْتَحُ الْعَيْنَ فِيهِمَا^(٥١).
 وَيُعَقِّبُ ابْنَ جَنِّيَ عَلَى الْقِرَاءَةِ الْأَخِيرَةِ بِقَوْلِهِ: قَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ عَلَى حَدِيثِ فَتْحَةِ الْحَرْفِ
 الْحَلْفِيِّ إِذَا كَانَ سَاكِنَ الْأَصْلِ تَالِيًا لِلْفَتْحِ وَذَكَرَ الْفَرْقَ بَيْنَ قَوْلِنَا وَقَوْلِ الْبَغْدَادِيِّينَ فِيهِ.
 وَإِنِّي أَرَى فِيهِ رَأْيَهُمْ لَا رَأْيَ أَصْحَابِنَا وَذَكَرْتُ مَا سَمِعْتُهُ مِنَ الشَّجَرِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ
 قَوْلِهِمْ: أَنَا مَحْمُومٌ، وَقَوْلِهِ: يَعْذُو وَهُوَ يُرِيدُ يَعْذُو^(٥٢).
 رَحِمَ اللَّهُ أَبَا الْفَتْحِ ابْنَ جَنِّيَ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ مَنْصَفًا! فَمَا صَاحَبَ إِلَّا الْحَقَّ
 وَتَحَوَّلَ بَعْدَ سَمَاعِهِ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ رَأَى أَصْحَابِهِ الْبَصْرِيِّينَ إِلَى رَأْيِ الْكُوفِيِّينَ.

آثاره :

بارك الله في عمر أبي الفتح عثمان بن جني فعمر حوالي سبعين عامًا ترك لنا حوالي سبعين مؤلفًا كلُّها في غاية الجودة، وكانت في اللغة وفقه اللغة والنحو والصرف والأدب والتقدُّم الأدبي والعروض والقراءات وعلوم القرآن وغيرها، وبعضها مطبوعٌ وبعضها ما زال مخطوطًا، وبعضها مفقودٌ، فمن كتبه المطبوعة: الخصائص، وسر صناعة الإعراب، والمنهض شرح تصريف المازني، والمحتسب، واللُّمع، والفَسْر شرح ديوان المتنبي، والفتح الوهبي على مشكلات المتنبي، والتمام في شرح أشعار هذيل، والمبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة، وغيرها، وله كتب غير مطبوعة منها تفسير العلويات^(٥٣)، شرح شعر الشريف الرضي وغير ذلك من الكُتب.

وقد أُحصيت مؤلفاته، ووصفت وذكُر ما طُبِعَ منها وما لم يُطْبِعَ في مُقدِّمة كِتَابِ الْخِصَائِصِ^(٥٤)، وذكرها صلاح الدين الصفدي^(٥٥) (ت ٧٦٤هـ)، وذكُرَت

(٥٠) الروم: ٥٦/٣٠.

(٥١) المحتسب: ١٦٦/٢.

(٥٢) نفسه: ١٦٦/٢.

(٥٣) معجم الأدباء: ١٢ / ١١١ - ١١٢ وأبوعلي الفارسي: ٨٣، ونقد النص عند ابن جني

بحث للدكتور حازم الحلبي منشور في مجلة كلية الفقه العدد: ٣ سنة ١٩٨٩م: ٢٢٧.

(٥٤) المقدمة: ص: ٦٥ - ٦٨.

في كتاب ابن جني النحوي^(٥٦)، وكتاب الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني^(٥٧)، وفي كتاب اللمع^(٥٨)، فلا حاجة إلى تكرارها هنا. وتعد هذه المصنفات التي تركها ابن جني للأجيال بعده إبداعاً وإسهاماً في بناء الحضارة الإنسانية في جوانب متعدّدة من الثقافة العربية، وقد جعلته آثاره تلك أحد نوابغ العراق في القرن الرابع الهجري.

فقد جمع هذا العالم بين العلم والأدب من غير أن يجور أحدهما على الآخر. ويُعد كتابه المحتسب من ذخائر النحو والصرف واللغة لما اشتمل عليه من مسائل نحوية ولغوية وصرفية، وكان بودي أن أتحّدث عنه، ولكن ليس هذا موضع الحديث. واعترف ابن جني في المحتسب من جملة صالحه من المصادر وأشار في مقدمة الكتاب إلى أنه انتفع من كتاب محمد بن المستنير قطرب (ت ٢٠٦هـ) يقصد بذلك كتابه (معاني القرآن) كما صرح بأنه أخذ من معاني القرآن للفرّاء (ت ٢٠٧هـ) ومن كتاب أبي حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني (ت ٢٥٥هـ) كما انتفع بكتاب معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت ٣١١هـ) وكتاب أحمد بن موسى بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) الذي يذكر فيه القراءات الشاذة.

ونقل عن العلماء الذين سبقوه من أمثال: الخليل (ت ١٧٥هـ) وسيبويه^(٥٩)، (ت ١٨٠هـ) ويونس بن حبيب البصري (ت ١٨٣هـ) وأبي جعفر الرؤاسي (ت ١٨٧هـ) والكسائي^(٦٠)، (ت ١٨٩هـ) والأصمعي (ت ٢١٦هـ) وأبي عثمان بكر بن محمد المازني

(٥٥) الوافي بالوفيات: ٦ / ٣٣٧.

(٥٦) ص: ٨٤ - ٩٣.

(٥٧) ص: ٢٠ - ٢١.

(٥٨) ص: ٢٢ - ٢٣.

(٥٩) المحتسب: ١ / ٦٥ و ٦٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٧ و ٩٣ و ٢١٥ و ٢٢٣ و ٢ / ١٢ و ٢٢ و ٢٣

و ٣٠٢ و ٣١٢ و ٣٢٩ و ٣٦٤.

(٦٠) نفسه: ١ / ٤٧ و ٥٢ و ٥ و ٦٣ و ١٠ و ١٠٥ و ١٢١ و ١٢٨ و ١٣٤ و ١٤٧ وغيرها.

(ت ٥٢٤٧) ومحمد بن يزيد المبرّد (ت ٥٢٨٥) وأبي العباس ثعلب (ت ٥٢٩١) وأبي بكر بن السّراج (ت ٥٣١٦) ومحمد بن الحسن بن دريد (ت ٥٣٢١) وأحمد بن موسى بن مجاهد^(٦١)، (ت ٥٣٢٤) وأبي علي الفارسي^(٦٢)، (ت ٥٣٧٧) وغيرهم. وسمع ابن جني من عرب عَقِيلٍ وَنَقَلَ عَمَّنْ يُوثِقُ بِعَرَبِيَّتِهِ مِنْهُمْ، وَذَكَرَ مِنْهُمْ أبا عبد الله محمد بن العَسَافِ الشَّحْرِي^(٦٣).

ولا يفوته أن يذكر بعض المسائل البلاغية أثناء الاحتجاج للقراءات الشاذة^(٦٤)، فكان المحتسب نموذجًا فريدًا من بين المصنّفات الكثيرة التي خلّفها ابن جني (ت ٥٣٩٢) إسهامًا منه في نشر التراث العربي الإسلامي. وتنهال الشواهد من القرآن والأمثال العربية والشعر العربي على أبي الفتح انخيلًا. فإنّ لديه منها رصيدًا ضخمًا.

كانت شواهد اللغوية من شعر من يجوز الاحتجاج بشعرهم. فأودع في المحتسب ثروة قرآنية ولغوية وأدبية ولهجية كبيرة.

أثر ابن جني في البحث اللغوي العربي

لقد وهب الله أبا الفتح ابن جني فكرًا ثاقبًا وذهنًا صافيًا ومنطقًا سليمًا وحسًا لغويًا مرفهًا، مكّنه ذلك من تزيين كتابه (الخصائص) بأبحاث مهمة في أصل اللغة ألهام هي؟ أم اصطلاح^(٦٥)؟ وفي مقاييس العربية^(٦٦)، والاطراد والشذوذ^(٦٧)،

(٦١) نفسه: ١ / ٥٩ و ٦١ و ٦٢ و ٦٤ و ٦٦ و ٢ / ٢١ و ٣٩ و ٤٤ و ٤٩ و ٦١ و ٦٨ وغيرها.

(٦٢) نفسه يُنظر منه على سبيل المثال: ١ / ٤١ و ٤٢ و ٤٣ و ٤٨ و ٥١ و ٥٢ و ٥٧ و ٥٨ و ٦٣ و ٦٧ و ٦٨ و ٢ / ٧ و ١٦ و ٤٤ و ٤٦ و ٤٧ وغيرها.

(٦٣) المحتسب: ١ / ٨٤ و ٦٧ و ١٦٦ / ٢ و ٢٠٩.

(٦٤) نفسه: ١ / ٨١ و ٨٢.

(٦٥) الخصائص: ١ / ٤٠.

(٦٦) نفسه: ١ / ١٠٩.

(٦٧) نفسه: ١ / ٩٦.

والاشتقاق الأكبر^(٦٨)، وتَرْكِبِ اللِّغَاتِ وَتَدَاخُلِهَا وَمُسَاوَقَةَ الْأَلْفَاظِ لِلْمَعَانِي وَهُوَ مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ بِنِعَاقِبِ الْأَلْفَاظِ لِتَعَاقِبِ الْمَعَانِي^(٦٩).

ومع أنه كان يترسم خطأ شيخه أبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) فقد كان يذهب أبعد من ذلك حيث كان يطمح ببصره إلى مقام الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) فانتفع بما نبه عليه وأشار إليه إشارة سريعة فوسعه.
كان الخليل يهتّم بصوت الحرف ويؤكد هذا في محاضراته التي كان يلقيها على طلابه في حلقة درسه^(٧٠).

قال سيويه (ت ١٨٠هـ): (قال الخليل يوماً وسأل أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في: (لك)، والكاف التي في (مالك)، والباء التي في: (ضرب)؟ ف قيل له: نقول: كاف، باء. فقال: إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف. فقلنا: فما تقول؟ قال أقول: كه وبه. فقلنا: لم ألحقت الهاء؟ فقال: رأيتهم قالوا: عه فألحقوا هاءً حتى صيروها يستطاع الكلام بها لأنه لا يلفظ بحرف، فإن وصلت قلت: ك و ب فاعلم يا فتى. كما قالوا: ع يا فتى. فهذه طريقة كل حرف كان متحرراً. وقد يجوز أن يكون الألف هنا بمنزلة الهاء لقرابها منها وشبهها بها، فتقول: با، وكا، كما تقول: أنا)^(٧١).

هذه التجربة العلمية الأولية التي أتبعها الخليل بتذوق الحرف في وضع سكونه لا في وضع حركته لأن الحركة تُعيّر موضع الحرف، أعطت نتائج دقيقة مازالت موضع إعجاب العلماء، والصوت إنما يحصل بسبب الهوائ الخارج من الرئتين باتجاه الشفتين فإن لم يعترضه عارض فهو صوت الحركات الطويلة التي أسماها الخليل بالهوائية، فإن اعترضه عارض

(٦٨) الخصائص: ٢ / ١٣٩.

(٦٩) نفسه: ٢ / ١٥٣.

(٧٠) الخليل رائد علم الصوت: ١٩٨.

(٧١) الكتاب: ٣ / ٣٢٠، وفي طبعة بولاق: ٢ / ٦١ - ٦٢.

وَقُطِعَ، حصلَ صوتُ الحرفِ، وتختلفُ نَعَمَاتُ الحُرُوفِ بحسبِ مواقعِها التي امتدَّتْ من أقصى الحَلْقِ إِلَى الشَّفَتَيْنِ^(٧٢).

وواضحٌ أنَّ الخليلَ كان يريدُ الصَّوتَ، وإن لم يستعملِ مُصطلحَ الصَّوتِ، والعبْرَةُ بالمعاني لا بالمباني.

وهذا ما لاحظَهُ أبو الفتح عثمانُ بنُ جَيِّ (ت ٣٩٢هـ) الذي استقرَّرَ عندهُ مُصطلحُ الصَّوتِ فأوضحَ ما أرادَهُ الخليلُ قائلاً: (اعلم أنَّ الصَّوتَ عَرَضٌ يَخْرُجُ مَعَ النَّفْسِ مُسْتطِيلًا مُتَّصِلًا حَتَّى يَعْرِضَ لَهُ فِي الحَلْقِ وَالْقَمِ والشَّفَتَيْنِ مَقاطِعَ تُشْبِهُ عَنِ امْتدادِهِ واستطالَّتِهِ فَيَسْمَى المَقطَعُ أيْنا عَرِضَ لَهُ حرفًا، وتختلفُ أحْراسُ الحُرُوفِ بحسبِ اختلافِ مَقاطِعِها... ألا تَرى أَنَّكَ تَبْدِئُ الصَّوتَ مِنْ أَقصى حَلْقِكَ ثم تَبْلُغُ بِهِ أَيَّ المَقاطِعِ شِئْتَ فَتَجِدُ لَهُ جَرَسًا ما، فإن انتقلتَ عنه راجعًا منه أو مُتجاوزًا له، ثم قَطَعْتَ أَحسَسْتَ عِنْدَ ذَلِكَ صَدَى غَيْرِ الصَّدَى الأوَّلِ؟ وذلك نحو الكافِ فَإِنَّكَ إِذا قَطَعْتَ بها سَمِعْتَ هنا صَدَى ما، فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى القافِ سَمِعْتَ غَيْرَهُ، وإن جُرْتَ إِلَى الجيمِ سَمِعْتَ غَيْرَ ذِيكَ الأوَّلِينَ)^(٧٣). وهو يَعني بالصَّوتِ ذبذبةَ الوترينِ الصَّوتيينِ^(٧٤).

وظَهَرَ عِنْدَ سيبويه - تلميذ الخليل - مُصطلحُ الصَّوتِ في نُصوصٍ وَرَدَتْ عِنْدَهُ^(٧٥)، وكان يَريدُ بِهِ الجَرَسَ، ولكنَّهُ بقيَ يَسْتَعْمِلُ مُصطلحَ الحرفِ وَيُريدُ بِهِ الصَّوتَ، غيرَ أَنَّ المصطلحَ استقرَّرَ عِنْدَ ابنِ جَيِّ. على أَنَّ الخلطَ بَيْنَ الحرفِ والصَّوتِ وَقَعَ فِيهِ كثيرٌ من عُلَماءِ اللُغَةِ المِحدَثِينَ الأوربيينِ^(٧٦).

ويُلاحظُ على كلامِ ابنِ جَيِّ أَنَّهُ كلامُ العالمِ الحَبيرِ المتصَلِّعِ من العِلْمِ فهو يَعرفُ كُنْهَ

(٧٢) الخليل رائد علم الصوت: ١٩٩.

(٧٣) سر صناعة الإعراب: ٦ / ١، وأشارت إلى هذا في: الخليل رائد علم الصوت: ١٩٩.

(٧٤) المدخل إلى علم اللغة: ٨٥.

(٧٥) الكتاب: ٢ / ٤٠٥ و ٤٠٦.

(٧٦) الأصوات اللغوية: ١١٢، وفي البحث الصوتي عند العرب: ٣١.

اللغة واستوعب علم الأصوات، ويعلم أن سبب حصول الصوت هو خروج الهواء مع النفس من الرئتين باتجاه الشفتين فإينما قطع حصل صوت الحرف ولكل حرف يخرج ألم تلاحظ قوله؟: (اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق والقم والشفتين مقاطع تُشبهه عن امتدادِه واستطالته فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها)^(٧٧).

ويُعرف أعضاء جهاز النطق ويحصرها بين الحلق والشفتين ويحدد عليها مواضع الحروف، وهو يعرف أن الحروف تبدأ بخارجها من أقصى الحلق، وتنتهي بالشفيتين. ورُتب الحروف حسب مخارجها فقال: ألا ترى أنك تبدئي الصوت من أقصى حلقك ثم تبلغ به أي المقاطع شئت فتجد له جزئاً ما، فإن انتقلت عنه راجعاً منه أو متجاوزاً له، ثم قطعت أحسست عند ذلك صدئ غير الصدى الأول؟ وذلك نحو الكاف فإنك إذا قطعت بها سمعت هنا صدئ ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإن جرت إلى الجيم سمعت غير دينك الأولين)^(٧٨).

ورائد هذا العلم وأستاذة الخليل^(٧٩)، الذي اعتمد طرُقاً بدائية قوامها التدوُّق والسَّماع، فتوصل بها إلى نتائج علمية على غاية من الأهمية، وكان موفقاً غاية التوفيق في ما توصل إليه.

وابن جني أفضل من وعى هذا العلم، وهو ليس مُقلداً تقليد أعمى بل له اجتهاده. فقد حدّد الخليل مخارج الحروف في وضع سكون الحرف عندما يُقدّم عليه همزة مفتوحة، لأنه كان إذا أراد أن يدوق الحرف يفتح فاه بالألف ثم يُظهر الحرف، نحو:

(٧٧) سر صناعة الإعراب: ٦ / ١.

(٧٨) نفسه: ٦ / ١.

(٧٩) وقد نشرت بحثاً بعنوان: الخليل رائد علم الصوت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق:

٦٨ / ٢: ١٩٥ - ٢٣٦.

أب.أت.أح.أع.أغ.^(٨٠).

فَجَاءَ ابْنُ جِنِّي وَتَرَكَ الْهَمْزَةَ الْمَفْتُوحَةَ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا الْخَلِيلُ وَاسْتَعْمَلَ قَبْلَ الْحَرْفِ الْهَمْزَةَ الْمَكْسُورَةَ الَّتِي اصْطَنَعَهَا سِبْيَوِيهٌ (ت ١٨٠هـ)^(٨١)، تَلْمِيذُ الْخَلِيلِ النَّابِئِ الْأَمِينُ. قَالَ ابْنُ جِنِّي: (وَسِبِيلُكَ إِذَا أَرَدْتَ عَتَبَارَ صَدَى الْحَرْفِ أَنْ تَأْتِيَ بِهِ سَاكِنًا، لَا مَتَحَرِّكًا، لِأَنَّ الْحَرَكَةَ تُقْلِقُ الْحَرْفَ عَنْ مَوْضِعِهِ وَمُسْتَقَرِّهِ، وَتُجْتَذِبُهُ إِلَى جِهَةِ الْحَرْفِ الَّتِي هِيَ بَعْضُهُ، ثُمَّ تُدْخِلُ عَلَيْهِ هَمْزَةَ الْوَصْلِ مَكْسُورَةً مِنْ قَبْلِهِ، لِأَنَّ السَّاكِنَ لَا يُمَكِّنُ الْإِبْتِدَاءَ بِهِ، فَتَقُولُ: إك.إق.إج، وَكَذَلِكَ سَائِرَ الْحُرُوفِ)^(٨٢).

وَاتَّبَعَ ابْنُ جِنِّي مَنَهَجَ الْخَلِيلِ فِي تَدْوِقِ الْحُرُوفِ وَلَكِنَّهُ رَتَّبَهَا حَسَبَ مَخَارِجِهَا تَرْتِيبًا خَالَفَ فِيهِ التَّرْتِيبَ الَّذِي وَضَعَهُ الْخَلِيلُ لَهَا، بَلْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَى التَّرْتِيبِ الَّذِي وَضَعَهُ سِبْيَوِيهٌ^(٨٣)، وَإِنْ اِخْتَلَفَ مَعَهُ قَلِيلًا^(٨٤). وَقَدْ ذَكَرْنَا تَرْتِيبَ الْحُرُوفِ وَسَبَبَ الْإِخْتِلَافِ فِي تَرْتِيبِهَا فِي بَحْثِنَا الْمَوْسُومِ بـ (الخليل رائد علم الصوت).

وَمُعْجَمُ الْعَيْنِ لِلْخَلِيلِ قَائِمٌ عَلَى نِظَامِ التَّقَالِيبِ^(٨٥)، مِثْلُ: قَطْر، قَرط، قَرط، رَقَط^(٨٦). وَالْخَلِيلُ صَاحِبُ مَدْرَسَةِ مَعْجَمِيَّةٍ تُعْرَفُ بِمَدْرَسَةِ الْخَلِيلِ، أَوْ مَدْرَسَةِ التَّقْلِيبِ^(٨٧)، وَمِنْ مَعْجَمَاتِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي سَارَتْ عَلَى مَنَهَجِ الْعَيْنِ وَاهْتَدَى مُؤَلَّفُوها بِمَدْيِ الْخَلِيلِ (ت ١٧٥هـ): الْجَمْهُرَةُ لِأَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ دَرِيدٍ (ت ٣٢١هـ)، وَالْبَارِعُ لِأَبِي عَلِيِّ

(٨٠) العين - المقدمة -: ٤٧ / ١، والخليل رائد علم الصوت: ١٩٨.

(٨١) الخليل رائد علم الصوت: ٢١٠.

(٨٢) سر صناعة الإعراب: ٧ / ١.

(٨٣) الكتاب: ٤٠٥ / ٢.

(٨٤) أطوار المعجم العربي: ٤٥، والخليل رائد علم الصوت: ٢١٠.

(٨٥) أطوار المعجم العربي: ٤٥ - ٤٦.

(٨٦) العين: ٩٥ / ٥.

(٨٧) ينظر في أطوار المعجم العربي: ٤٢ - ٦٧.

القالبي^(٨٨) (ت ٣٥٦هـ)، وتهذيب اللغة للأزهري^(٨٩) (ت ٣٧٠هـ)، ومختصر العين للزبيدي^(٩٠) (ت ٣٧٩هـ)، والمحيط للصاحب بن عباد^(٩١) (ت ٣٨٥هـ)، ومقاييس اللغة، والمجمل وكلاهما لابن فارس^(٩٢): (ت ٣٩٥هـ)، والمحكم لابن سيده^(٩٣) (ت ٤٥٨هـ).

ولقد تأمل ابن جني هذه التّقاليب وحاول أن يجد علاقةً وصلّةً ونسبًا بينها فإن ابتعد منها شيءٌ زدّه بلطف التّأويل فهو يُحاول إيجاد علاقةٍ بين الألفاظ التي هي من عائلةٍ واحدةٍ لوحدةٍ نسبيها فيربط بين الألفاظ ذات الأصل الواحد. وقد أبداع في علم اللغة، وجاء إبداعه في مباحث مهمة، يتعلّق بعضها بمادة الكلمة لا بهيئتها، وبعضها يتعلّق بهيئتها، وبعضها بمادتها وهيئتها معًا، ووقف العلماء

(٨٨) هو إسماعيل بن القاسم كان آيةً في حفظ الشعر والأدب، ولد في منازجرد، ورحل إلى بغداد ودرس فيها، ومات في قرطبة. إنباه الرواة: ١/ ٢٠٤، ووفيات الأعيان: ١/ ٢٢٦، والأعلام: ١/ ٢٨٧.

(٨٩) هو أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي كان إمامًا في النحو واللغة. وفيات الأعيان: ٤/ ٣٣٤، وبغية الوعاة: ١/ ١٩، وشذرات الذهب: ٣/ ٧٢.

(٩٠) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الزبيدي الإشبيلي نزيل قرطبة، كان أخير أهل زمانه باللغة والأخبار والسير والنوادر وما كان في الأندلس في زمانه مثله وهو أبرز تلاميذ أبي علي القالبي. إنباه الرواة: ٣/ ١٠٩، ومعجم الأدباء: ١٨/ ١٨٠، وبغية الوعاة: ١/ ٨٤.

(٩١) هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد الطالقاني وزير غلب عليه الأدب فكان من نوادر الدهر علمًا وفضلًا. وفيات الأعيان: ١/ ٢٢٨، والأعلام، ط ٣: ١/ ٣٢٠.

(٩٢) هو أحمد بن فارس بن زكريا الرازي أحد أئمة اللغة في زمانه، وهو من تلاميذ بديع الزمان الهمداني ألف مقاييس اللغة والمجمل والصاحي وغيرها، مات في الري ودفن مقابل مرقد القاضي عبد العزيز الجرجاني. إنباه الرواة: ١/ ٩٢، ومعجم الأدباء: ١/ ٨٠، ووفيات الأعيان: ١/ ١١٨، وبغية الوعاة: ١/ ٣٥٢، والأعلام، ط ٣: ١/ ١٨٤.

(٩٣) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده إمام اللغة وآدابها في الأندلس كان ضريحًا وكذلك كان أبوه، ألف المخصّص والمحكم وغيرها. إنباه الرواة: ٢/ ٢٢٥، ووفيات الأعيان: ٣/ ٣٣٠، والأعلام، ط ٣: ٥/ ٦٩.

بخشوعِ أَمَامَ إِبْدَاعِ هَذَا الْعَبْقَرِيِّ وَأَمَامَ نَظَرِيَّاتِهِ الَّتِي مَا تَنَزَّلُ تُؤْتِي ثَمَارَهَا.
أَزْعُمُ أَنَّي نَجَحْتُ عَزِيزِي الْقَارِيَّ بِشِدَّةِ انْتِبَاهِكَ إِلَيَّ وَأَنْتَ تَنْتَظِرُ قَطْفَ الثَّمَرَةِ
لَأُرِيكَ - يَا رِعَاكَ اللَّهُ - أَثَرَ الْعَبْقَرِيِّ أَبِي الْفَتْحِ بْنِ جِنِي فِي الْبَحْثِ اللَّغَوِيِّ الْغَرِيبِيِّ،
وَكَيْفَ؟ وَمَتَى أَخَذَ عَنْهُ الْغَرِيبُونَ وَتَأَثَرُوا بِهِ؟

لَقَدْ نَبَّهَ صَنِيعُ ابْنِ جِنِّي هَذَا غَيْرَ أَبْنَاءِ الضَّادِ إِلَى الْإِشَارَةِ فِي مُعْجَمَاتِهِمِ الْمَطْوَلَةِ
الْبَاحِثَةِ عَنِ الْأَصُولِ وَالْإِشَارَةِ إِلَى أَصْلِ الْمَادَةِ بِقَوْلِهِمْ: وَهَذَا الْأَصْلُ يُفِيدُ كَذَا^(٩٤).
وَكَانَ الْغَرِيبُونَ عَلَى إِطْلَاعٍ بِصَنِيعِ أَبِي الْفَتْحِ هَذَا.

فَقَدْ قَالَ آدَمُ مِتَز: ظَهَرَتْ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ دَرَاةٌ جَدِيدَةٌ لِلِاشْتِقَاقِ اللَّغَوِيِّ وَبَقِيَتْ
عَصْرًا طَوِيلًا، وَكَانَ أَسْتَاذُ هَذِهِ الدَّرَاسَةِ ابْنُ جِنِّي الْمَوْصِلِيُّ (ت ٣٩٢ هـ) وَهُوَ الَّذِي
يُنَسَّبُ إِلَيْهِ ابْتِدَاعُ بَحْثِ جَدِيدٍ فِي عِلْمِ اللَّغَةِ وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالِاشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ^(٩٥)، هَذَا
الْبَحْثُ الَّذِي لَا يَزَالُ يُؤْتِي ثَمَارَهُ إِلَى الْيَوْمِ وَالَّذِي يَخْتَصُّ بِمَادَةِ الْكَلِمَةِ دُونَ هَيْئَتِهَا وَلَمْ
يَكُنْ لِعُلَمَاءِ اللَّغَةِ مِنَ الْعَرَبِ إِنتَاجُ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا^(٩٦).

أَرَأَيْتَ أَنَّ الْغَرِيبِينَ لَا يَجْهَلُونَ مَنْزِلَةَ ابْنِ جِنِّي؟ بَلْ فَهَمُوا كُنْهَهُ وَعَرَفُوا قَدْرَهُ وَعَلَوْ
كَعْبَهُ فِي عِلْمِ اللَّغَةِ، وَكَانَ الْمِتْنَبِيُّ الْعَظِيمُ (ت ٣٥٤ هـ) قَبْلَهُمْ يَقُولُ عَنْهُ: هَذَا رَجُلٌ لَا
يَعْرِفُ قَدْرَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ^(٩٧).

وَوَقَّفَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِ عَلَى آثَارِهِ الْعِلْمِيَّةِ، وَحَقَّقُوا بَعْضَهَا وَدَرَسُوهَا، وَأَفَادُوا مِنْهَا،
وَنَهَلُوا مِنْ عِلْمِهِ، وَأَخَذُوا نَظَرِيَّاتِهِ وَبَنَوْا عَلَيْهَا.

فَقَدْ اِهْتَمَّ الْمَجْمَعُ الْعِلْمِيُّ الْبَافَارِيُّ، فِي مِيُونُخْ، فِي أَلْمَانِيَا، بِالْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ
وَالْإِسْلَامِيَّةِ، وَعَمِدَ إِلَى الْمَصَادِرِ الْخَاصَّةِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعُلُومِهِ فَجَمَعَهَا وَضَبَطَ قِرَاءَاتِهِ

(٩٤) نشوء اللغة: ١٠٩.

(٩٥) الخصائص: ٢ / ١٣٩. وينظر في: O. Rescher Student uber Iben Gini., S.20
..1909.

(٩٦) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١ / ٤٣٧.

(٩٧) معجم الأدباء: ٥ / ٢٥.

لنشرها، وأُوكَلت هذه المهمة إلى المستشرق المحقق (براجشتراسر) (ت ١٩٣٣م)،
 مُحَقِّقِ كتابِ غايةِ النهايةِ في طبقاتِ القراءِ لمحمد بن محمد بن الجَزْرِي (ت ٥٨٣٣هـ)،
 وعاونهُ في مُهمَّتِهِ المستشرق (برتزل) فَلَمَّا تُوِّفِيَ الأوَّلُ عامَ ١٩٣٣م انتدبَ المِجْمَعُ
 المُستشرقَ (برتزل) لإكمالها فنهضَ بهذا العملِ العلمي، وقد أسفرت تلكَ الجهودُ عن
 نشرِ كتابِ التيسيرِ في القراءاتِ السَّبْعِ لأبي عمرو الدَّانِي (ت ٤٤٤ هـ)، وكتابِ المقنعِ
 للدَّانِي أيضًا، وكتابِ مُختَصَرِ في شواذِّ القرآنِ للحسين ابن أحمد بن خالويه (ت
 ٣٧٠هـ)، وعرفوا قيمةَ كتابِ المُحتَسَبِ لابنِ جَنِّي (ت ٣٩٢هـ) الذي اشتمل على
 علمِ جَمِ فَطَبِ عَوُهُ بِحُرُوفِ لَاتِينِيَّةٍ وانتفعوا به، وهو مِنْ مَنشُورَاتِ المِجْمَعِ العِلْمِيِّ
 البَافَارِي فِي ميونخ فِي ألمانيا عامَ ١٩٣٣م^(٩٨)، بينما كانت مخطوطات هذا الكتاب ما
 تزال تترقد عندنا في خزائن الكتب قبل أن ينفضَ عنها العُبَارَ ويحققها ويخرجها إلى
 النور أستاذنا وشيخنا الأستاذ العلامة علي النجدي ناصف طيِّبَ اللهُ ثراهُ ومعه
 صاحبا، ثم قام المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة بنشره في الفترة ١٣٨٦
 - ١٣٨٩هـ، وجعلت من بعدُ في عام ١٩٧٨م رسالتي للحصول على الماجستير في
 كلية دار العلوم - جامعة القاهرة: (أثر المحتسب في الدراسات النحوية) وما زالت
 الرسالة لم تطبع بعدُ.

لقد سَبَقْنَا المُستشرقونَ إلى تَحْقِيقِ آثارِ عُلَمَائِنَا، وأخذوا مِنها ما يَنْفَعُهُمْ قَبْلَ أَنْ
 يُقَدِّمُوا لَنَا مُحَقَّقَةً.

وانتفعَ الغربيونَ بِمُصَنَّفَاتِ ابنِ جَنِّي بعدَ اطِّلاعِهِمَ عَلَيْهَا وَنَحُوا مَنحَاهُ فِي البَحثِ
 اللغوي، وشيَّدوا فَوْقَ ما أَسَسَ لِلحَضَارَةِ الإنسانيَّةِ وَأَكْمَلُوا ما بَدَأَهُ هَذَا العَبْرِيُّ
 العَظيم.

لقد اهتمَّ الغربيونَ بِالعالمِ الذي جهلَهُ الكَثيرُ مِنْ أَهْلِهِ فَصَيَّعُوهُ، ولم يَلْتَفِتُوا صَوْبَهُ
 إِلَّا بعدَ أَنْ تَبَهَّهْمَ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ، وَكَمْ صَيَّعُوا قَبْلَهُ وَبَعَدَهُ !!

وَتِلْكَ مُشْكَلَةٌ قَدِيمَةٌ حَدِيثَةٌ شَكَا مِنْ وَجَعِهَا الْعُقْلَاءُ قَدِيمًا.

قَالَ عَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ الْأَسَدِيِّ^(٩٩) (ت ٢٥٠ ق. هـ):

لَأَلْفِينِكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدِبِي وَفِي حَيَاتِي مَا زَوَّدْتَنِي زَادِي

فقد كان عبقرى زمانه وفتنة دهره الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) يعيش في
خُصَّ مِنْ أَحْصَاصِ الْبَصْرَةِ، يَبْنِمَا يَعِيشُ النَّاسُ بِعَلَمِهِ، وَيَعْلَمُ طُلَابُهُ أَبْنَاءَ الْخُلَفَاءِ وَالْأَمْرَاءِ
وَيَعِيشُونَ مُرَفَّهَيْنَ فِي الْبِلَاطِ الْعَبَّاسِيِّ، وَيَجْرِي عَلَيْهِمُ الْعَطَاءُ وَلَدَيْهِمْ، بَلْغَةُ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ،
صَكُوكٌ مَصْرَفِيَّةٌ مَفْتُوحَةٌ.

قَالَ الْخَلِيلُ الْعَظِيمُ يَوْمًا لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ الَّذِينَ عَاشَ بَيْنَهُمْ يَنْشُرُ عِلْمَهُ عَلَيْهِمْ
وَعَلَى غَيْرِهِمْ وَيَتَدَفَّقُ عَطَاءً وَمِثْلًا أَجْوَاءَهُمْ مِنْ شَدَا عَزْفِهِ: لَوْ وَجَدْتُ عِنْدَكُمْ فِي كُلِّ
يَوْمٍ كَيْلِجَةً^(١٠٠) قُولٍ لَمَا تَرَكْتُ مَدِينَتَكُمْ !!

رَحِمَ اللَّهُ أَبَا الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيِّ (ت ٣٥٤ هـ) الَّذِي قَالَ:

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدِرُوا أَلَّا تُفَارِقَهُمْ فَالِرَّاحِلُونَ هُمُ

فَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ أَلْهَبَتْ ظُهُورُهُمْ سَيَاطُ الْغُرَبَاءِ، وَقَوْمُهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهُمْ سَادِرُونَ !!

غَيْرَ أَنَّ أَبَا الشَّمَقْمَقَ (ت ٢٠٠ هـ) عَرَفَ أَوْجَاعَهُمْ فَقَالَ:

لَا يَعْرِفُ الشُّوقَ إِلَّا مَنْ يُكَابِدُهُ وَلَا الصَّبَابَةَ إِلَّا مَنْ يَعَانِيهَا

لَقَدْ أَثَارَ الْعَبْقَرِيُّ ابْنَ حَنِّي فِي أَبْحَاثِهِ مَسَائِلَ لُغَوِيَّةً مُهِمَّةً.

فَمِنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الَّتِي أَثَارَهَا مَسْأَلَةُ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْأَلْفَافِ وَمَعَانِيهَا، أَوْ مَا يُعْرَفُ

فِي الدِّرَاسَاتِ اللُّغَوِيَّةِ بِمُحَاكَاةِ الْأَصْوَاتِ.

(٩٩) ديوان عبيد بن الأبرص طبعة أوربا: ٧٠ وفيه: (لأعرفنك) مكان (لألفينك)، والشعر

والشعراء، الدار العربية للكتاب: ١ / ١٨٩، وأخبار شعراء الشيعة: ٥٢.

(١٠٠) الكيلجة بكسر الكاف: كيلٌ لأهل العراق. تاج العروس - كلج -، والمعجم الوسيط -

كيل - : ٨٠٨.

فقد كان يرى، كما يرى غيره من علماء، اللغة أن كلمات اللغة الإنسانية الأولى ابتكرت بتقليد أصوات الطبيعة ومحاكاتها، فقال: (وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو الأصوات المسموعات كدويّ الرّيح وحنين الرّعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق العراب وصهيل الفرس و نزيب الطّي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح ومذهب متّقبل)^(١٠١).

ولو رجعنا إلى ما كتبه العربيون في علم اللغة لوجدنا أثر هذا واضحاً في مؤلفاتهم ولوجدنا بصمات ابن جني بارزة فيما كتبوا و صنفوا.

يقول البروفسور ستيفن أولمان Stephen Ullmann أستاذ علم اللغة - فرع الدراسات الرومانيّة - بجامعة ليدز Leads بإنكلترا المعروف بثقافته الواسعة في اللغة وقضاياها والأدب والتّقد الأدبي وعلم التّفنيس: (وفي أماكن أخرى كثيرة تُستعمل الأصوات الموحية بمعانيها أو المحاكية للأحداث المعبرة عنها ونستغلها استغلالاً يقصد به إلى إحداث التأثير الدرامي كما جاء في بيت من رواية أندروماك Andromaque لراسين Racine حيث يسمع «أورست» Oretes فحجج الأفاعي في الهواء وقد أصابته لوثة من الجنون فيصبح بعبارة يتكرّر فيها صوت الS الذي يُشبهه فحجج الأفاعي)^(١٠٢).

وهو يذكر أن هذه المسألة كانت موضع عناية عدد من الكتاب الغربيين مشيراً إلى قول بوب Pope: (إنّ المعنى يجب أن يكون صدقاً للصوت)^(١٠٣).

وأثر ابن جني هنا واضح فهذا رأيه ذكره في كتابه الحصائص حيث قال: (إنّهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بما ترتبها

(١٠١) الخصائص: ١ / ٤٦ - ٤٧.

(١٠٢) دور الكلمة: ٧٧ - ٧٨.

(١٠٣) نفسه: ٧٩.

وتقدم ما يضاهي أوّل الحدّث وتأخير ما يضاهي آخره وتوسيط ما يضاهي أوّسطه
سوقاً للحرف على سمت المعنى المقصود والعرض المطلوب.

وذلك قولهم: بحث: فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض.
والحاء لصحليها^(١٠٤)، تشبه محالب الأسد وبرائن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض.
والثاء للتفت والبث في التراب^(١٠٥).

وُلفت «ستيفن أولمان» Stephen Ullmann الانتباه إلى بيتين للشاعر كيبس
Kepts من قصيدته: «أغنية إلى بلبل» وذلك قوله:

Felour the very word is like a bell
to call me back from the to many sole self.

مشيراً إلى أن كلمة «felour» ومعناها أيها النفس الضائع تشبه أو تحاكي أصوات
الأجراس فهي تزُن في أذنيه وتردّه عن الطائر المحاطب ذات نفسه^(١٠٦).
وهو يرى أنّ شدة التأثير بالباعث الصوتي على توليد الكلمات تؤدي إلى
الاعتقاد بوجود مطابقة بين الصوت والمعنى^(١٠٧).

وهذا هو رأي ابن جني وإن كان قد اهتم بالكلمة المفردة لا بالجملة والعبارة
فحاول إيجاد علاقة بين اللفظ والمعنى.

قال أبو الفتح: فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها فهي من الأحداث فباب
عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموّم.

(١٠٤) الصحل: البحة في الصوت. لسان العرب - صحل - صحل: - ١٣ / ٤٠١.

(١٠٥) الخصائص: ٢ / ١٦٢ - ١٦٣.

(١٠٦) دور الكلمة في اللغة: ٨٠ - ٨١.

(١٠٧) نفسه: ٨١.

وذلك أَنَّهُمْ كَثِيرًا ما يجعلونَ أصواتَ الحروفِ على سَمَتِ الأحداثِ المعبَّرِ بها عنها فَيُعَدُّ لُوتَهَا بها ويحتدونها عليها وذلك أَكثَرُ مِمَّا نُقَدِّرُهُ وأضعافُ ما نَسْتَشْعِرُهُ^(١٠٨)، ويورد ابنُ جَنِّي على ذلك أمثلةً كثيرةً منها: خَضَمَ وَقَضِمَ فالحَضْمُ الأكلُ الرَّطْبُ كالْبَطِيخِ والقِتَاءِ وما كانَ نَحْوَهُما مِنَ المأكولِ الرَّطْبِ، والقَضْمُ لِلصَلْبِ اليابسِ فاحتازوا الحاءَ لِرِخاوتِها لِلرَّطْبِ والقافَ لِصَلابَتِها لِلْيَابِسِ خذوا لِمَسْمُوعِ الأصواتِ على مَحْسُوسِ الأحداثِ^(١٠٩).

ومن ذلك سَدَّ وصدَّ، فإنَّ سَدَّ دونَ صدَّ، فَجَعَلُوا الصَّادَ وهي أَقوى لِمَا هو أَقوى. ومن ذلك القَسْمُ والقَضْمُ فالقَضْمُ أَقوى فعلاً مِنَ القَسْمِ، لأنَّ القَضْمَ يَكُونُ مَعَهُ الدَّقُّ، وقد يَقَسِمُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ فلا يَنكأُ أحدهما فإِلْدَلِكُ خُصَّتْ بِالْأقوى الصَّادُ وبالأَضْعَفِ السَّيْنُ^(١١٠).

من هذه الإشاراتِ ومن تلك النُّصوصِ الصَّرِيحَةِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ مُطَمَئِنِّينَ: إنَّ عُلَمَاءَ اللُغَةِ الغَرِيبِينَ تَأَثَّرُوا بِمَنْهَجِ ابنِ جَنِّي وبآرائِهِ اللُغَوِيَّةِ وانتَفَعُوا بِهَا. يقولُ أولمان Ullmann: يقولُ أصحابُ النَّظَرِيَّةِ المَعْرُوفَةِ بنظريَّةِ bow – wow إنَّ الكَلِمَاتِ كانتِ في الأَصْلِ تَقْلِيدًا لأصواتِ الطَّبِيعَةِ كما هي حالُها الآنَ في لُغَةِ الأَطْفالِ^(١١١).

هذا هو بعينه أثرُ ابنِ جَنِّي في البَحْثِ اللُغَوِيِّ العَرَبِيِّ وإنَّ لم يَنسِبْهُ الغَرِيبُونَ إِلَيْهِ بَلْ حَاوَلُوا عَبَثًا نَسْبَتَهُ إِلَى قُدَمَاءِ الإغْرِيقِ^(١١٢)، مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ساقُوهُ مَعَهُ أَنَّهُمْ آخِذُونَ عَنِّ

(١٠٨) الخصائص: ٢ / ١٥٧.

(١٠٩) نفسه: ١٥٧ - ١٥٨.

(١١٠) الخصائص: ٢ / ١٦١.

(١١١) دور الكلمة: ٨٨.

(١١٢) دور الكلمة: ٨٧.

ابن جنيّ لأنّه لم يبيّن مطّلع على مُصنّفاته اطلّاعاً مُباشراً عن طريق قراءتها ونشرها، ومُطّلع على آرائه اطلّاعاً غير مُباشِرٍ بأخذها من اطلّعوا عليها ثم نقلوها نصّاً أو بالمعنى.

وبعد فأرجو أن أكون قد قدّمتُ في هذا الجهدِ خِدمةً لُغتنا العربية وللباحثين في هذا المجال وإن كنتُ قد دَرَسْتُ جهودَ ابنِ جنيّ النحوية في المحتسبِ وكتبتُ عنه جُوداً مُنوّهاً بنشاطه اللغوي والنقدي وعُدتُ إليه في هذا البحث لأسلط الضوء على نشاطه اللغوي وأثره في الدرس اللغوي العربي، لا أزعمُ أنّي وفيتُه حقّاً هُ، ولكنّ حسيّ أنّي بذلتُ جهدي، والله من وراء القصد.

مصادر البحث

- ١- ابن جني النحوي. للدكتور فاضل صالح السامرائي، دار النذير، بغداد، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- ٢- أبو زكريا الفراء. للدكتور أحمد مكي الأنصاري، مطبوعات المجلس الأعلى للفنون والآداب، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٣م.
- ٣- أبو علي الفاسي. للدكتور عبد الفتاح إسماعيل شليبي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٣٧٧هـ.
- ٤- إتحاف فضلاء البشر في قراءة القراء الأربعة عشر. للشيخ أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن عبد الغني الدمياطي (ت ١١١٧هـ)، المطبعة الميمونية بمصر، ١٣١٧هـ.
- ٥- أثر المحتسب في الدراسات النحوية. للدكتور حازم سليمان الحلبي، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ٦- أخبار شعراء الشيعة. لمحمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤هـ)، تلخيص السيد محسن الأمين العاملي (ت ١٣٧١هـ)، ط١، المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- ٧- الأصوات اللغوية. للدكتور إبراهيم أنيس، مطبعة الإنكلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١م.
- ٨- أصول التلاوة. للدكتور حازم سليمان الحلبي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٩- أطوار المعجم العربي. للدكتور حازم سليمان الحلبي، ط١، بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

- ١٠- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب. لابن السيد البطلوسي (ت ٥٢١ هـ)، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٣ م.
- ١١- إنباه الرواة على أنباه النحاة. لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦ هـ)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط ١، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م.
- ١٢- البحر المحيط. لأثير الدين محمد بن يوسف بن علي أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)، مطبعة السعادة، بمصر، ١٣٢٨ هـ.
- ١٣- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م.
- ١٤- البيان في تفسير القرآن. للسيد أبي القاسم الخوئي (ت ١٩٩٢ م)، المطبعة العلمية، النجف الأشرف، ١٣٧٥ هـ.
- ١٥- تأثير ابن جني في درس اللغوي الغربي، بحث منشور في مجلة شؤون إسلامية، لندن، العدد ٢، السنة الثانية، ذو القعدة الحرام، ذو الحجة الحرام، ١٤٢٠ هـ - شباط - مارس ٢٠٠٠ م.
- ١٦- تاج العروس. للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج وجماعته، ط ١، مطبعة حكومة الكويت، الكويت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م / ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- ١٧- تاريخ بغداد. للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ)، مطبعة السعادة القاهرة، ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٩ م.
- ١٨- تاريخ التراث العربي. للدكتور فؤاد سركين ترجمة الدكتور فهمي أبي الفضل مراجعة الدكتور محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١ م.
- ١٩- تحصيل عين الذهب في معدن جواهر الأدب في علم مجازات العرب. ليوسف ابن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الششمري (ت ٤٦٧ هـ)، بحاشية كتاب سيويه، مطبعة بولاق بمصر، ١٣١٦ هـ.
- ٢٠- تهذيب اللغة. لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرري (ت ٣٧٠ هـ) تحقيق عبد السلام هارون وآخرين، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٤ م - ١٩٦٧ م.
- ٢١- التيسير في القراءات السبع. لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ)، تحقيق أوتو برتزل، مطبعة الدولة، إستنبول، ١٩٣٠ م.

- ٢٢- الحجة في علل القراءات السبع. لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي (ت ٣٧٧هـ)، تحقيق علي النجدي ناصف وجماعته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٢٣- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. لآدم متز، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريذة، ط٤، بيروت، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- ٢٤- حقائق التأويل في متشابه التنزيل. للشريف الرضي محمد بن الحسين (ت ٤٠٦هـ)، تحقيق محمد رضا كاشف الغطاء، نشر منتدى النشر، مطبعة الغري، النجف الأشرف، ١٩٣٦م.
- ٢٥- خزانة الأدب ولب لباب العرب. لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م - ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- ٢٦- الخصائص. لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣١٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، طبعة دار الكتب المصرية، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
- ٢٧- الخليل رائد علم الصوت. بحث للدكتور حازم الحلبي، منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦٨، الجزء الثاني، سؤال ١٤١٣هـ - نيسان ١٩٩٣م.
- ٢٨- دراسات في فقه اللغة. للدكتور صبحي الصالح، ط٢، المكتبة الأهلية، بيروت، ١٣٢٨هـ - ١٩٦٢م.
- ٢٩- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني. للدكتور حسام سعيد النعيمي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
- ٣- دور الكلمة في اللغة. لستيفن أولمان، ترجمة الدكتور كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٥م.
- ٣١- ديوان الأخطل. تحقيق أنطوان صالحاني، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩١م.
- ٣٢- ديوان روبة بن العجاج أو مجموع أشعار العرب. تحقيق، وليم بن الورد، مصور بالأوفست في دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، عن طبعة لاينيك، ١٩١٩م.
- ٣٣- ديوان الشريف الرضي. المطبعة الأدبية، بيروت، ١٣١٠هـ.
- ٣٤- ديوان عبيد بن الأبرص. تحقيق المستشرق برايت ماوس، طبعة أوروبا. ب. ت.
- ٣٥- ديوان علقمة الفحل من مجموع خمسة دواوين. المطبعة الوهية، القاهرة، ١٢٩٣هـ.
- ٣٦- ديوان كثير عزة. تحقيق هنري بيرس، الجزائر، ١٩٢٨م.

- ٣٧- ديوان لبيد بن ربيعة. تحقيق إحسان عباس، طبعة الكويت، ١٩٦٢ م.
- ٣٨- ديوان الهذليين. طبع دار الكتب، القاهرة، ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م.
- ٣٩- سر صناعة الإعراب. لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)، تحقيق مصطفى السقا وجماعته، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، القاهرة، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م.
- ٤٠- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. لعبد الحي بن العماد الخليلي (ت ١٠٨٩ هـ)، مكتبة القدسي، ١٣٥٠ هـ.
- ٤١- شرح الشافية. للرضي الأسترابادي (ت ٦٨٦ هـ)، تحقيق محمد نور الحسن وجماعته، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٦ هـ - ١٣٥٨ هـ.
- ٤٢- شرح شواهد المغني. لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تعليق الشنقيطي، تحقيق أحمد ظافر كوجان، نشر لجنة التراث العربي، ب. ت، مصور بالأوفست عن طبعة دمشق، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م.
- ٤٣- شرح المعلقات السبع. لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني (ت ٤٨٦ هـ)، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.
- ٤٤- شرح المفصل. للشيخ موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (ت ٦٤٣ هـ)، دار الطباعة بالمنيرية، القاهرة، ١٩٢٨ - ١٩٣٠ م.
- ٤٥- الشريف الرضي وجهوده النحوية. للدكتور حازم سليمان الحلبي، نشر وزارة الإعلام دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦ م.
- ٤٦- الصحاح. لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣ هـ) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ٤٧- طبقات النحاة واللغويين. لتقي الدين بن قاضي شُهبة (ت ٨٥١ هـ)، تحقيق الدكتور محسن غياض، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٣ - ١٩٧٤ م.
- ٤٨- طبقات النحويين واللغويين. لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٧٣ م.
- ٤٩- العين. لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام دار الرشيد للنشر، بغداد، ومطابع الرسالة، الكويت، ١٩٨٠ - ١٩٨٥ م.

- ٥٠- غاية النهاية في طبقات القراء. لمحمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، تحقيق ج. براشتراسر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م.
- ٥١- الفهرست. لأبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق بن النشم (ت ٣٨٥هـ)، بيروت، ب. ت.
- ٥٢- فهرسة ما رواه عن شيوخه أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥ هـ)، ط ٢، بيروت، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م.
- ٥٣- في البحث الصوّتي عند العرب. للدكتور خليل العطية، الموسوعة الصغيرة، ١٢٤، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٣ م.
- ٥٤- الكامل في اللغة. لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم والسيد شحاته، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ب. ت.
- ٥٥- الكتاب لسبويه (ت ١٨٠ هـ)، طبعة بولاق، القاهرة، ١٣٠٧ هـ.
- ٥٦- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها، لمكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ)، تحقيق الدكتور محيي الدين رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية في دمشق، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- ٥٧- لسان العرب. لمحمد بن مكرم بن منظور الأنصاري (ت ٧١١ هـ) طبعة بولاق، القاهرة، ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٨ م.
- ٥٨- اللع في العربية. لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)، تحقيق حامد المؤمن، ط ١، مطبعة العاني، بغداد، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- ٥٩- المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة. لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)، مطبعة الشرقي، دمشق، ١٣٤٨ هـ.
- ٦٠- مجمع البيان في تفسير القرآن. للفضل بن أحمد الطبرسي (ت ٥٥٢ هـ)، دار الحياة، بيروت، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م.
- ٦١- المحتسب في تبيين وجوه القراءات الشاذة والإيضاح عنها. لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)، تحقيق علي النجدي ناصف وصاحبيه، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٦ - ١٣٨٩ هـ.
- ٦٢- المحتسب من ذخائر النحو والصرف واللغة. بحث للدكتور حازم الحلبي، منشور في مجلة كلية التربية، جامعة السابع من أبريل ١٩٩٦ م.

- ٦٣- مختصر في شواذ القرآن للحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق ج. براشتراسر، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٣٤م.
- ٦٤- المحمص. لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأندلسي (ت ٤٥٨هـ)، ط ١ بولاق - القاهرة ١٣١٦هـ - ١٣١٨هـ.
- ٦٥- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي. للدكتور رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، ط ١، القاهرة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٤م.
- ٦٦- مراتب النحويين. لعبد الواحد بن علي أبي الطيّب اللغوي (ت ٣٥١هـ). تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار تحفة مصر، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- ٦٧- المستشرقون. لنجيب العقيلي، طبع دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م.
- ٦٨- معاني القرآن. لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق أحمد يوسف بخاتي ومحمد علي النجار وغيرهما، ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.
- ٦٩- معجم الأدباء ويسمى إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. لياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق د. س. مرجليوث، ط ٢، مطبعة هندية بالموسكي، القاهرة، ١٩٢٣م.
- ٧٠- معجم شواهد العربية. لعبد السلام هارون، ط ١، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- ٧١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. لمحمد فؤاد عبد الباقي، مطابع الشعب، القاهرة، ١٣٧٨هـ.
- ٧٢- المعجم الوسيط. إخراج إبراهيم مصطفى وجماعته، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م / ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- ٧٣- المفصليات. للمفضل بن محمد بن يعلى الضَّيِّي (ت ١٦٨هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط ٣، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ٧٤- المقتضب. لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٦هـ - ١٣٨٩هـ.
- ٧٥- المنصف شرح تصريف المازني. لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) تحقيق مصطفى وعبد الله أمين، ط ٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

- ٧٦- منهج الأخفش الأوسط في الدراسات النحوية. للدكتور عبد الأمير الورد، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
- ٧٧- الموسم مجلة فصلية تصدر في بيروت.
- ٧٨- زهية الألباء في طبقات الأدباء. لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، ط٢، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٧٠ م.
- ٧٩- نشأة النحو. لمحمد الطنطاوي، دار المعارف بمصر، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
- ٨٠- النشر في القراءات العشر. لمحمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، مطبعة التوفيق، دمشق، ١٣٤٠ هـ.
- ٨١- نشوء اللغة. للأب أنستاس ماري الكرمللي، المطبعة العصرية، بغداد - ١٩٨٣ م.
- ٨٢- نقد النص عند ابن جني. بحث منشور في مجلة كلية الفقه، النجف، العدد ٣، سنة ١٩٨٩ م.
- ٨٣- الوافي بالوفيات. لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، ط٢، تحقيق هلموث ريتز، نشر دار فرانزشتاينر، شتوت غيرت، ألمانيا، ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م.
- ٨٤- وفيات الأعيان. لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت. ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.
- ٨٥- المصادر الأجنبية:

O. Rescher.

Studentler Iben Gini, 1909.

رواية الأدب الجاهلي في مؤلفات الجاحظ المنهج والأثر

د. أحمد عبد المنعم حالو^(*)

الجاحظ، تعريف وتصنيف:

الجاحظ (١٥٩-٢٥٥هـ/٧٧٧-٨٦٩م) واسمه عمرو بن بحر بن محبوب ابن فزارة الكناني الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، سُمِّيَ بذلك لنتوء حدقتيه وجحوظهما، ويرى بعضهم أن نسبه إلى كنانة نسب ولاء^(١)، ولكنَّ المطَّلَع على مؤلفات أبي عثمان وما مازجها من حبِّ للعربية والإسلام، يشك فيما يُروى عن ولائه، ويرى أنه عربي النسب خالصه، فإن صحَّ ما قيل، فأبي إخالص شاكل الرجل، وخالطه حتى صار إلى ما صار إليه؟ بل هو لعمرى من كبريات حسناته التي تضاف إلى صفاته وأخلاقه.

كان الجاحظ كبير أئمة الأدب وإمامًا من أئمة الكلام، وزعيمًا من زعماء المعتزلة، وكان عالمًا محيطًا بمعارف عصره، لا يكاد يفوته شيء منها، وكان راوية من رواة اللغة وآدابها وأخبارها، غابرها ومعاصرها، واسع الرواية دقيق المعرفة، قوي الملكة في نقد الآثار وتمييزها^(٢).

(*) أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية بجامعة البعث.

(١) الأعلام/ خير الدين الزركلي، ٧٤/٥، وثمة مصادر ترجمته.

(٢) البخلاء، حققه طه الحاجري، ص ١٨.

مولده ووفاته في البصرة^(٣)، وقد كان لنشأته وحياته في هذه المدينة أكبر الأثر فيما رواه، وخطّه من مؤلفات^(٤)، يصعب حصرها في هذه العجالة^(٥)، وكذلك الدراسات التي قامت حوله وتناولت علمه وأدبه وجزئيات حياته تكاد لا تُحصر، بيد أن قلة منها اتجه إلى مَعلم روايته الأدبية ومنهجه في هذه الرواية، وهو ما سيبين عنه هذا البحث، بدءًا من التذكير بخصوصيته وأهميته، ومرورًا برواية الأدب الجاهلي التي ندبنا أنفسنا للحديث عنها إلى أن آلت دواوين وكتبًا مسطّرة وانتهاءً برواية الجاحظ لها وتدوينه أقسامًا منها ملاحظين عددًا من النقاط البحثية من نحو توثيق الشعر الجاهلي والعناية بتدوينه ومن نحو منهج الجاحظ في روايته وخصائصه الفنية.

خصوصية البحث:

لاشك أن تخصيص البحث برواية الجاحظ للأدب الجاهلي، شعره ونثره، وما يمت إلى ذلك العصر من أخبار وأنساب وعادات وتقاليد، مردّه أننا نرى على سبيل المثال كيف أفاد الجاحظ من هذه الرواية، فأوقف دفتات خصبة من فكره وعقله، وروايته للدفاع عن العرب أمام الشعوبية التي استهدفتهم من كل جانب، وهاجمتهم من كل اتجاه، مستهدفة إرث العرب، ولاسيما الجاهلي منه، بما مثله من عادات في الكرم والضيافة، وصفات في الشجاعة والإقدام، وطرائق في المعاش من حل وترحال

(٣) الأعلام ٧٤/٥، وانظر معلومات أخرى في تاريخ بغداد ٣١٩/١٢، ومعجم الأدباء ١١٣/١٢، والعصر العباسي الثاني ٥٨٧.

(٤) وتقع في زهاء ثلاثمئة وستين مؤلفًا في ألوان شتى من المعرفة، وهذا في أقصى تقدير لها مما رآه في مشهد أبي حنيفة ببغداد سبط ابن الجوزي المتوفى (٦٥٤هـ)، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، المقدمة، ص ٥.

(٥) انظر ما عدّه الجاحظ من مؤلفاته في الحيوان ١٢-٥/١.

وطعام^(٦)، واعتيادات لهم في الخطب والكلام، كاستعانتهم أثناء الخطابة بالعصي والمخاصر، اعتمادهم على القسي، مما نجده ماثوفاً في البيان والتبيين^(٧)، أو مشاراً إليه في مؤلفاته الأخرى^(٨).

والأمر نفسه يُقال فيما أبدعه الجاحظ وخطه في كتابه الحيوان، فإنه عول به تعويلاً كبيراً على الإرث الجاهلي، ولاسيما الشعر في كثير مما استشهد به أو حققه، أو ردّ به على فلاسفة اليونان، وهو القائل: «وكل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدناه أو قريباً منه في أشعار العرب والأعراب»^(٩).

إنّ مثل هذا الاستيعاب الجاحظي للإرث كان الدافع وراء تخصيص البحث برواية الأدب الجاهلي دون غيره من الآداب، وإن كان باع الجاحظ قد اتسع لها جميعاً، يُضاف إلى هذا عمق النتائج التي قد يصل إليها الباحث إذا تتبع مرويات الجاحظ الأدبية وأحكامه الدقيقة حول هذا العصر^(١٠).

رواية الأدب الجاهلي:

مما لاشك فيه أنّ الإرث الجاهلي، ولاسيما الشعر، قد انتقل عن طريق الرواية،

(٦) انظر من ذلك حملة الشعوية على اللبن الذي كان يمثل قيمة عليا من القيم العربية - برأيهم - ديوان أمية بن أبي الصلت، الدكتور عبد الحفيظ السطلي، ص ٢٢٦.

(٧) البيان والتبيين ١/٣٧٠ و ٣٨٣، ثم أول الجزء الثاني، ثم أول الجزء الثالث، وانظر كذلك: نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، الدكتور أمجد الطرابلسي، ص ١٤٥، وما بعدها.

(٨) انظر البخلاء، ص ٢٩، فيما عرض له من رسالة سهل بن هارون في ذم الكرم، ومدح البخل مما نأى عنه العرب.

(٩) الحيوان ١/١٩ مقدمة التحقيق.

(١٠) انظر على سبيل المثال: العصر الجاهلي، الدكتور شوقي ضيف، ص ٣٨، فيما أقره عن الجاحظ من تحديده زمن العصر الجاهلي.

وكانت أحيط بقدر كبير من التحقيق والتمحيص، إنّه وإن كان هناك رواة متهمون، فقد كان لهم العلماء الأثبات بالمرصاد من أمثال المفضل الضبيّ (الكوفي) والأصمعيّ (البصري) وغيرهما، وإنّما مثل الشعر الجاهلي في روايته، ومن ثمّ تدوينه مثل الحديث النبوي الشريف، فقد دخله نحل كثير، ولكن العلماء استطاعوا تمييز صحيحه من زائفه، وكذلك شأن الشعر الجاهلي^(١١).

وتقتضي موضوعية البحث منّا ألاّ نتخذ من كثرة الاتهامات في بيئة الرواة مزلفاً إلى الطعن في الشعر الجاهلي عامة، وما قد يأتي في أعقابه من نثر خطابي، وأنساب، وأخبار. وإنّما نطعن فيما طعن الرواة الثقات به، وما أمكننا الوقوف عليه من الزائف والمنحول، وفيما وراء ذلك يبقى عامة ما رواه العلماء الأثبات صحيحاً، وإن اختلفوا في مناهجهم، وطرائقهم في الرواية، وعليه يمكن إهمال بعض ما جاءنا من أمثال حماد الراوية وخلف الأحمر مما قام الدليل بكذبه واصطناعه، وكذلك ما جاء من طريق أصحاب الأخبار المتزيدين، وما وضعه القصاص عن العرب البائدة، ويمكن أن نضيف إليه ما اختلف فيه الرواة. وأما ما اتفقوا عليه أو ما جاءنا عن أثباتهم، فينبغي أن نقبله، يقول ابن سلام: «قد اختلفت العلماء في بعض الشعر، كما اختلفت في بعض الأشياء، وأما ما اتفقوا عليه، فليس لأحد أن يخرج منه^(١٢)».

واللافت بعد هذه المقدمة التوثيقية لمرويات الأدب الجاهلي تعدد وسائل الرواية الأدبية منذ العصر الجاهلي نفسه، وإلى أن تمّ تدوين هذا الشعر في القرن الثاني والثالث الهجريين حيث عصر الجاحظ، وأنداده من العلماء فيما نقلوه، أو أثبتوه، أو تخيروه. وكان يمكننا أن نذكر بشيء من التفصيل ما كان للرواية في الجاهلية، ثم في الإسلام، وإلى أن كان عهد

(١١) انظر العصر الجاهلي / ١٥٦.

(١٢) طبقات فحول الشعراء/ ٦، وانظر العصر الجاهلي / ١٥٧.

الجاحظ نفسه، لولا أنها عُجالة وحسب، ومهما يكن، فالمتتبع لشؤون الرواية في الجاهلية يرى ما قامت به من دور إيجابي فعّال في نقل الشعر خلال العصر الجاهلي نفسه ملاحظاً إدراك الشعراء أنّ الرواية هي الوسيلة لنقل أشعارهم ضمن محيطهم، وفي آفاق الجزيرة^(١٣). ومعانين في الوقت نفسه الوسائل الأخرى لهذه الرواية الشعرية، من نحو تلمذة بعض الشعراء لبعض في رواية الشعر، وصنعتة، على نحو ما تلمذ زهير بن أبي سلمى لأوس ابن حجر، وكان زوجاً لأمه، وعلى نحو ما تلمذ كعب بن زهير والحطيئة لزهير، إلى آخر هذه السلسلة^(١٤)، فهؤلاء وأمثالهم ممن روى بعضهم عن بعض متأثرين بأواصر القرى تارة، وبالمذهب الواحد في الحياة تارة أخرى، - كرواية الصعاليك والفرسان عن بعضهم^(١٥) - كما لاحظنا - زمانياً ومكانياً في شمول واسع لرواية الشعر الجاهلي، يُضاف إلى ذلك أن القبيلة كانت تروي شعر شاعرها، وكذلك كانت تفعل أسرة الشاعر، وثمة أخبار عالية التوثيق تدل على ذلك^(١٦).

وفي الإسلام استطاعت الرواية أن تنقل طائفة من هذا الشعر إلى القرن الهجري الأول، وقد يكون من الدلائل على ذلك اهتمام النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته بأشعار الجاهليين وأخبارهم^(١٧)، وحين آلت الأمور إلى الخلفاء استمروا هم، ومن حولهم، يروون

(١٣) العصر الجاهلي / ١٤٢، وانظر المفضليات، تحقيق (شاکر، وهارون) ص ٦٢، شعر (المسيب بن علس).

(١٤) العصر الجاهلي / ١٤٢، وانظر الأغاني للأصفهاني ٩١/٨.

(١٥) العصر الجاهلي / ١٤٣.

(١٦) انظر ديوان أمية بن أبي الصلت / ٩٥-٩٦ فيما استشهد به مؤلفه من أحاديث نبوية شريفة عن شريد بن سويد الثقفي، والفارعة أخت أمية، وروايتهما أشعار أمية.

(١٧) انظر من ذلك: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا ورفيقه ٥٥٩/٤، والفاضل للمبرد ١٣+١٢. وينظر كذلك خبره عليه الصلاة والسلام مع النابغة الجعدي، رسائل الجاحظ،

تحقيق هارون / ٣٦٣.

الشعر الجاهلي، من نحو الأخبار المروية عن ابن عباس، ورسوخ قدمه في هذا المجال^(١٨)، واستمرت كذلك قبائل الشعراء وأسرههم تروي أشعارهم، وتذيعها في كل مكان.

وفي العصر الأموي استمرت الرواية على اتصالها وكفايتها في حمل الكثير من الشعر الجاهلي، وكان يؤازرها فيما آلت إليه نشاطاً وكفاءة عالية خلفاء بني أمية وولاتهم وعمالهم، ومثل هذه الأخبار عن اهتمام الأمويين بالشعر الجاهلي رواية ومدرسة نجدتها بكثرة في كتب الأدب والنقد والتاريخ، من نحو كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام، والأغاني للأصفهاني، والأماي للقيلي، وحلية المحاضرة للحاتمي^(١٩)، وغيرها.

ومثل هذا يُقال عن عدد من الأمور جاءت تدعم الرواية، وتشدّ من أزرها، من نحو الاتجاه النقدي المؤيد للرواية، وهو مما ساد في هذا العصر، وكان يطلب من الشعراء أن يعتمدوا على الرواية بدلاً من الكتابة. ومن نحو ما ورد عن الشعراء في كثير من موافقهم من الرواية، فبعضهم كالفرزدق نقل بوضوح وجلاء أنه تلمذ لكثير من الشعراء الجاهليين، والتلمذة إنما كانت برواية أشعار هؤلاء وحفظها^(٢٠)، وبعضهم ممن اتجه إلى مهنة التأديب كالطرماح والكميت كانا يؤدبان الصغار برواية الشعر الجاهلي، لأن الاتجاه النقدي السائد خلال هذا العصر كان يعلي من شأن الشعر الجاهلي لقدمه وحسب^(٢١).

وفي العصر العباسي اتخذت الرواية مظهرًا جديدًا لم يكن لها فيما سبق، لأننا نجد في هذا العصر جماعة من الرواة تتخذ من رواية الشعر الجاهلي ما يشبه الحرفة لها، ولم يكونوا يدنونون هذا الشعر فحسب، وإنما يضيفون إلى روايته ما يوضحه من شرح

(١٨) الأغاني ٧٢/١ وما بعدها، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم/٦٧-١٥٠.

(١٩) انظر على سبيل المثال الصفحات ٣٢٧/١، ٣٣٢، ٣٣٨، ٣٤٥ وغيرها.

(٢٠) من هنا انبرى الجاحظ واصفًا الفرزدق، ومعبرًا عن حسن تأتية لرواية الشعر الجاهلي بقوله:

(إنه رواية الناس، وشاعرهم، وصاحب أخبارهم) البيان والتبيين ٣٢١/١.

(٢١) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر ٦٣/١، البيان والتبيين ٣٢١/١.

لغريبه، أو إيضاح لما فيه من أحداث وأنساب وأيام، ومما نعده لهم أيضاً أن هؤلاء الرواة كانوا يروون الشعر الجاهلي واللغة وما إلى ذلك، عن القبائل والأعراب، وقد أظهروا في عملهم مهارة منقطعة النظير، إذ تحولوا يجمعون المادة الجاهلية جميعها بدافع خدمة القرآن الكريم وتفسير ألفاظه أولاً ثم أصبحوا يقصدون لجمع هذا الشعر من أجل نفسه فقط (٢٢).

والواقع أن رواة العصر العباسي كَوْنُوا مدرستين متقابلتين، مدرسة في الكوفة، وأخرى في البصرة، وعُرف الأولون بأنهم غير متشددين تشدد الأخيرين، ومن ثم تضخمت رواياتهم، ودخلها موضوع ومنتحل كثير، وقد ندد البصريون بالكوفيين، وبإداهم الكوفيون التنديد نفسه، فكان كلٌّ منهما يشكك في الآخر (٢٣). على أنه لم تخل مدرسة منهما من علماء ثقات وآخرين وضّاعين مما أشرنا إليه مطلع هذا البحث، ويمكننا هنا أن نحصّ الجاحظ بكلمة موجزة حول ما يُقال عن روايته، ولاسيما أن الرجل كان مظنة القول، ويبدو أنّ التهم التي رُمي بها كانت تغذيها - على الأكثر - أسباب شخصية، ومذهبية، وتاريخية، وجغرافية، فضلاً عن غيرها من الأسباب التي تفتح على بعضها (٢٤).

ولعل السبب الجغرافي هو الأهم بسبب احتدام الصراع بين البصرة والكوفة، وكان قد بلغ أوجه في عصر الجاحظ، وكان الجاحظ نفسه طرفاً مهماً في هذا التجاذب

(٢٢) العصر الجاهلي / ١٤٨.

(٢٣) مصادر الشعر الجاهلي، للدكتور ناصر الدين الأسد/ ٤٢٤ وما بعدها.

(٢٤) التهم الموجهة إلى الجاحظ، مقالة الدكتور محمد محمود الدروبي، مجلة عالم الفكر، العدد ٤، المجلد

والتناؤذ؁ وكان بحكم مولده ونشأته؁ وأثر البصرة في نفسه يحتج للبصرة^(٢٥)؁ وكان البصريون من بعد يعتدون بما أنتجه الجاحظ ويفخرون به؁ ولا سيما كتابه الحيوان^(٢٦). ولعله كان متوقفاً أن يظهر أثر هذا الأمر على الكوفيين؁ فقد وقف بعضهم موقفاً شديداً من الجاحظ؁ وقابله بالتهمة؁ ويكفي أن يُشار إلى تجريح ثعلب الكوفي للجاحظ البصري حين وصفه بقوله: «ليس بثقة ولا مأمون^(٢٧)».

تدوين الأدب الجاهلي:

رأينا أن العرب لم يدونوا شعرهم في الجاهلية؁ وبقي هذا شأنهم في صدر الإسلام؁ فهم يتناشون الشعر؁ ولا يقيّدونه إلا قليلاً؁ وهو ما أقره الجاحظ نفسه حين أتى على الرواية العربية دراسة وتمحيصاً موازياً بينها وبين التقييد أو التدوين؁ يقول: «وكل شيء للعرب؁ فإنما هو بديهية وارتجال؁ وكأنه إلهام... فما هو إلا أن يصرف العربي وهمه إلى جملة المذهب؁ وإلى العمود الذي يقصد فتأتيه المعاني أرسالاً...»^(٢٨)؁ غير أن هذا لا يعني التأخر في تدوين الإرث الجاهلي وماتلاه إلى ما لا حصر له؁ فثمة أخبار وإشارات إلى عدد من المدونات في القرن الأول و الثاني الهجريين^(٢٩)؁ وندلف إلى الجاحظ مشاركاً في النهضة التدوينية التي سادت في عصره إبان النصف الأول من القرن الثالث الهجري؁ لنراه قد بدأ أقرانه وفاق معاصريه فيما رواه؁ وفيما دوّنه أيضاً؁ ولا سيما ما تعلق منه بأدب الجاهلية؁ ويكفي أن نذكر من هذه المدونات كتابه «الحيوان» و«البيان والتبيين» فإن الأول منهما؁ وإن كان

(٢٥) الحيوان ٧/٧.

(٢٦) معجم الأدباء لياقوت الحموي؁ ٢/١٤٠٦.

(٢٧) كتاب الضعفاء والمتروكين؁ لابن الجوزي ٢/٢٢٣؁ ولسان العرب؁ مادة (جحظ) وانظر مصادر أخرى للخبر في مقالة الدكتور الدروبي (التهمة الموجهة للجاحظ) عالم الفكر؁ العدد ٤؁ المجلد ٣؁ ٢٠٠٧ م.

(٢٨) البيان و التبيين ٣/٢٨.

(٢٩) العصر الجاهلي ١٥٩ - ١٦٢.

اسمه يوهم أنه خصص بالحيوان، وما يمت إليه بسبب، إلا أنه لم يكن إلا معلمة واسعة وصورة ظاهرة لثقافة العصر المتشعبة الأطراف، وقد كانت غزارة الشعر المروي عن الجاهليين في هذا الكتاب مثار شك عند الدكتور طه حسين، وذلك في مؤلفه: (في الأدب الجاهلي) فدّعى أنّ الجاحظ إنما فعل ذلك ليدل على اتساع معرفة الجاهليين في هذا العلم، عصبية لهم^(٣٠)، والحق أنّ هذا لم يكن من أهداف الجاحظ، فهو نفسه ينفي عنهم العلم الدقيق بالحيوان، إذ يشير أن معارفهم فيه معارف أولية، وأنه إنّما دار في أشعارهم، لأنه كان مشوّتاً تحت أعينهم وأبصارهم في ديارهم^(٣١).

ونحوه كتابه الآخر «البيان» وفيه - كما لا يخفى - مباحث كثيرة عظيمة القيمة، دقيقة الدلالة تتصل بمفاهيم البيان والفصاحة والبلاغة، ولعل نقطة الانطلاق فيها رغبة الجاحظ في الثبات أمام دعاة الشعوبية، وتوضيح ما للعرب من مزايا في لغتهم وبيئاتهم وبديهتهم وسرعة خاطرهم، وهو مما جعل الجاحظ على احتكاك مباشر بالتراث العربي الجاهلي شعراً وخطباً، وعادات وتقاليد، ومأثورات وقيم^(٣٢).

وهكذا بدا الجاحظ قوياً في مؤلفاته ومدوناته يسمع ويروي ويسند ضارباً المثل في التدقيق والتوثيق العلمي مما نراه ماثلاً في أي صفحة من صفحات كتبه^(٣٣)، وهوما سنقف عليه تفصيلاً وتدقيقاً بدءاً من رواية الجاحظ، منهجها وخصائصها، وانتهاءً بأثرها في أعماله ومدوناته.

(٣٠) انظر الصفحة ١٧٦ من الكتاب.

(٣١) الحيوان ٢٨/١ و ٦٩/٦ وما بعدها، وانظر العصر الجاهلي ١٧٣-١٧٤.

(٣٢) نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب / ١٢٠.

(٣٣) انظر على سبيل المثال لا الحصر (البيان والتبيين) في المواضع الآتية: ٩/١، ١٦، ١٨،

٢٣، ٣٩، ٢٨٧، ١٠/٢، ١٨، ٢٤، ٥٩، ٦١، ١٦٦، ٣/٢٧، ٣٤، ٤٥، ٦٠،

٨١، ٨٥، و٤/٦٧، ٧٢، ٨٣، ٩٢، ٩٦.

رواية الجاحظ:

يلتزم هنا اسم الجاحظ في الرهط الأول من رواة اللغة والأخبار والتاريخ من أمثال الأصمعي وأبي زيد، والمدائني، وهشام بن محمد الكلبي، وسواهم ممن ضربوا بسهم كبير في وفر الإنتاج الفكري والتأليف^(٣٤)، غير أننا لو ذهبنا نقارن بين رواية الجاحظ، ورواية معاصريه، ومن سبقه من اللغويين والأخباريين لوجدنا اختلافاً بين الروايتين، فإذا كان هم هؤلاء جميعاً جمع الشعر القديم وزجّه إلى الناس، وغاية ما يعنيه غرابته، أو إثارة شعور الدهشة لدى متلقيه، وربما كان أساس اختياره الاستشهاد لخبر ما، أو توجيه عبارة مأثورة، ونحو ذلك^(٣٥)، فإنّ الجاحظ خطّ لنفسه سبيلاً آخر في الرواية، إذ مضى يقبل ويرفض، ويثبت وينفي، منوعاً في اختياراته، لا يقبل القديم لقدمه، ولا يهمل المولد لحدثه، همّ الموضوع الذي أخذ به نفسه، ونهض لمعالجته، ولعلنا فيما يلي نتبين سبيله، ونضع أيدينا على ملامح منهجه وسمات فنه فيما رواه وتخيّره.

منهجه في الرواية:

بتّ الجاحظ في أثناء كتبه ومؤلفاته منهجه في الرواية، وما أخذ به نفسه من مراجعة ومطالعة، ورفض واختيار، وسماع وإسناد، ومعاينة وتجربة، واستقصاء وإحاطة، وسنعمد فيما يلي لبيان منهجه وسماته الغالبة عليه مما رواه رواية أدبية، أو تاريخية عامة، أو تخيّره من الأدب الجاهلي باتجاهاته المختلفة، من شعر، وخطب، وتاريخ، ونسب، وملاحظات مهمة، نقلها أو قالها في بلاغته ونقده، وسوى ذلك مما تكلم به، أو نبّه عليه في أثناء كتبه، أو جاء به تطبيقاً عملياً لما التزم به من الأصول العلمية للرواية.

ففي موضوعه الذي عنون له (بشدة وقع اللسان، وبقاء أثره على الممدوح

(٣٤) الحيوان ١/٤ مقدمة التحقيق.

(٣٥) البخلاء /٢٠.

والمهجو^(٣٦)، نقرأ له من مطالعاته واختياراته من محفوظه الشعري الجاهلي قول امرئ القيس:

ولو عن ثنا غيره جأني وجرحُ اللسان كجرح اليد^(٣٧)

بحسام سيفك أو لسانك والـ كليم الأصيل كأرغبِ الكلم^(٣٨)

وقول طرفة بن العبد:

رأيت القوافي يتلجن مواجها تضايق عنها أن توجَّهها الإبر^(٣٩)

وقول الأعشى:

وأدفع عن أعراضكم وأعيركم لساناً كمقراص الخفاجي ملحبا^(٤٠)

وفي الموضوع ذاته، روى سماعاً «ثلاثة أبيات» عن محمد بن زياد المعروف بـ(ابن الأعرابي)، قال: «وأنشدني محمد بن زياد (الأبيات)»^(٤١).

وروى كذلك سماعاً بيتين آخرين عن ابن الأعرابي نفسه من نظم الأسدي^(٤٢)،

(٣٦) البيان ١٥٦/١ .

(٣٧) النثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيئ ، والبيت في ديوان الشاعر/١٨٥ .

(٣٨) الكليم: بفتح فكسر: جمع كلمة. وأرغب: أوسع. والكلم: الجرح.

(٣٩) القوافي: القصائد. ويتلجن: يدخلن وانظر البيتين في ديوانه ١٦١/٩٦ .

(٤٠) المقراص: الحديد العريضة التي يُقطع بها، اللسان (قرص) وروى البيت. والخفاجي: رجل إسكاف منسوب إلى خفاجة (من معاوية بن عقيل). والملح: القاطع ، والبيت في ديوان الأعشى الكبير/١٥٣ .

(٤١) البيان ٥٧٠/١ .

(٤٢) هو عبد قيس بن خفاف البرجمي، والبراجم من أسد بن ربيعة، انظر البيان ١٥٩/١، والمفضليات / ٣٨٦ حيث القصيدة.

في صفة اللسان وأثره، وقدم لهما بقوله: «أنشدنيها ابن الأعرابي»^(٤٣)، وهي قوله:

وأصبحت أعددت للنائباً ت عرضاً بريئاً وعضباً صقيلاً
ووقع لسانٍ كحد السنن ن ورمحاً طويل القنائة عسولاً^(٤٤)

وهكذا أضاءت لنا جزئيات النص السابق بعضاً من منهج الجاحظ في الرواية ومدى إفادته من جمعه ومطالعته، وثقافته وسماعه، وقد ندعم الرأي بمنهجه في السماع بما قاله الجاحظ نفسه في هذا المجال مع إشارته اللطيفة إلى أثر السماع في شخصية الراوي، وتقويم لسانه، وجوده بيانه، قال: «وأنا أقول: إنه ليس في الأرض كلامٌ هو أنفع ولا أنقى، ولا ألدُّ في الأسماع، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء»^(٤٥)، وفي هذا تذكير بمنهج السابقين من الرواة أمثال أبي عمرو الذي كانت عامة أخباره عن أعراب، ولا سيما الذين أدركوا الجاهلية، وذلك لقرب زمنه من زمامهم.

وفيما يلي نص آخر يبين فيه الجاحظ عن مخالطته للرواة المسجدين والمريدين، ومجالسته لكبار رواة عصره من البغداديين، مع شيء من التقويم لهؤلاء الرواة، وتقديم بعضهم على الآخر في مجال ما من مجالات الرواية، وكله مما يؤكد جانب السماع في المنهج والإسناد المباشر مما ارتضاه الجاحظ لنفسه، يقول: «وقد أدركت رواية المسجدين وجلست إلى أبي عبيدة، والأصمعي، ويحيى بن نجيم، وأبي مالك ابن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين، فما رأيت أحداً منهم قصد إلى شعر في النسب

(٤٣) البيان ٥٩/١.

(٤٤) العضب: السيف القاطع، والعسول: المضطرب للينه.

(٤٥) البيان ١٤٥/١، وانظر ٣٢١/١ فيما رواه عن أبي عمرو.

فأنشده، وكان خلف يجمع ذلك كله»^(٤٦).

ونحوه أيضاً من سماعه وإسناده «قال لي ابن الأعرابي: قال المفضل بن محمد الضبي: قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟ قال لي: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل...»^(٤٧).

وقد نقف على سماع من غير إسناد، ففيما خصّ به الجاهلية من أسماء كهانها وحكامها وخطبائها وعلمائها من قحطان، يطالعنا بقوله (قالوا) هكذا «قالوا: أكهن العرب وأسجعهم سلمة بن أبي حيّة، وهو الذي يُقال عُزَى سلمة...»^(٤٨).

ومثل هذا يُقال في الشعر الجاهلي المروي في مؤلفات الجاحظ، فبعضه جاء به سماعاً وإسناداً، وبعضه من محفوظه ومطالعاته من غير ما إشارة إلى سماع أو إسناد، من نحو الباب الذي عقده الجاحظ للردّ على الشعبية، وما تحيّره من أشعار قيلت في المخاصر والعصي ونحوهما، فتراه يتمثل ببعض قول معن بن أوس المزني في بعض هجائه، وبيان ما للعصا عند العرب من أهمية:

إذا اجتمع القبائل جئت ردفاً وراء الماسحين لك السبلا

فلا تُعطى عصا الخطباء فيهم وقد تكفى المقادة والمقالا^(٤٩)

«سته أبيات»

ويتمثل كذلك بقول لبيد بن ربيعة:

ما إن أهاب إذا السُرادقُ غمّه قرع القسيّ وأزعش الرّعديد^(٥٠)

(٤٦) البيان ٢٣/٤-٢٤.

(٤٧) السابق ٩٧/١.

(٤٨) البيان ٣٥٨/١. وانظر في مجالس مشاهجة من سماعات الجاحظ، البيان ٤١/١، ٤٤، ٨٤، ٨٧، ٩٧، ١٢٣، ١٢٨، ١٩٣، ونحو هذا في سائر مؤلفاته.

(٤٩) البيان ١/ ٣٧٠، ٣٧٢ والأبيات في ديوانه ٧٣.

(٥٠) السرداق: أي سرداق الملك، وغمه: أي كثر عليه. قرع القسي: أي يصيب بعضها بعضاً، البيان ٢٧٢/١ وديوانه/٣٧.

ويقوله الآخر في خدّ وجه الأرض بالعصي والقسي عند أبواب الملوك:

نَشِيئُ صِحَاحِ الْبِيدِ كُلِّ عَشِيَةٍ بَعُوجِ السَّرَّاءِ عِنْدَ بَابِ مُحَجَّجٍ^(٥١)

ومما يتمثل به لمطالعاته وحفظه من غير أن يعوّل على السماع والإسناد ما رواه عن النمر بن تولب في باب الحصر و العي:

أَعَذَنِي رَبٌّ مِنْ حَصْرٍ وَعِيٍّ وَنَفْسٍ أَعَالَجَهَا عَلاَجًا

وما رواه عن زبّان بن سيار في الباب نفسه:

وَقَلْنَا بِلَا عِيٍّ وَسُسْنَا بِطَاقَةٍ إِذَا النَّارُ نَارَ الْحَرْبِ طَالَ اشْتَعَالُهَا^(٥٢)

وما رواه عن أحيحة بن الجلاح في الصمت و النطق:

وَالصَّمْتُ أَجْمَلُ بِالْفَتَى مَا لَمْ يَكُنْ عِيٍّ يَشِينُهُ

وَالْقَوْلُ ذُو خَطْلٍ إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ لَبًّا يَعِينُهُ^(٥٣)

وما رواه عن زهير بن أبي سلمى في عيب الخطل:

وَذِي خَطْلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ مَصِيبٌ فَمَا يَلْمَمُ بِهِ فَهُوَ قَائِلُهُ

عَبَأَتْ لَهُ حَلْمًا وَأَكْرَمَتْ غَيْرَهُ وَأَعْرَضَتْ عَنْهُ وَهُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ^(٥٤)

وأما ما يتعلق بسائر منهجه في الرواية، فالملاحظ أن الجاحظ كان يضم الإلف إلى إلفه، والصنو إلى صنوه، فيما كان يرويّه سواء ما وافق به موضوعه أو خالفه، وللقارئ أن

(٥١) يقول: «وعند باب الملوك يتلاقى الناس فيتفاحرون ويخطون بقسيهم فيؤثرون في الأرض

فذلك شينهم صحاح البيد» البيان ٣٧١/١، وانظر ديوانه/١٩.

(٥٢) البيان ٣/١، ٥.

(٥٣) نفسه ٥/١ و ٢٧٥/٢ وانظر ديوانه / ٨٣ ورواية البيت الأول فيه «...خيرٌ للفتى».

(٥٤) البيان ١١٠/١.

يعود إلى أي موضوع من موضوعاته ليرى مثل هذا الاختيار في الموافقة أو المخالفة.

وقد يكون في معانيته وتجربته وعرضه الممتحن سماعاً أو مشاهدة على ميزان العقل ومحك المنطق والفهم ما ينيف على ما ذكرناه من طريقتيه في السماع والرواية، وما كان يصحب ذلك من دقة متناهية وأمانة علمية صارمة.

فمن معانيته على سبيل المثال ما وصف به نطق الأعجمي للعربية، وكيف يعرف السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي، مع أن لفظه قد يكون متخيراً فاحراً ومعناه شريفاً كريماً^(٥٥).

وأما عرضه المعينة على محك العقل والمنطق فصاحبنا رجل جريء العقل، عنيف الفكر، فهو لا يقبل هذه النصوص بعلاقتها، بل يطرحها على الممتحن، ولا يطاقطئ بفكره لها، وإنما يصعد بها عاليًا ليرى وجه الحق فيها، وقلما ترك واحدًا منها إلا تكلم فيه وعرضه على الحجة.

وهذا كتاب الحيوان ينطق بما دُكر لا يكاد يغادر حرفًا من ذلك، ولا يخفى على المطلع أن الكتاب قد نطق أولاً بأول بالقصد العلمي التفصيلي للحيوان جميعاً، ولكل مملكة من ممالكه، ولكل جنس من أجناسه، وهو فضل الجاحظ على جميع من سبقه أو عاصره ممن كتب في الحيوان^(٥٦).

فهذا مما يُسجل للجاحظ ومنهجه في تناول العلوم كافة، غير أنّ هذا لن ينسينا ما ندبنا أنفسنا إليه من عرض المعينة العلمية، والملاحظة والتجربة، وما كان سبق الحديث عنه من سماع ونحوه على العقل والمنطق، ويمكننا أن ندلل على ذلك باتجاه آخر من اتجاهات كتاب الحيوان، وذلك أن الجاحظ أفاد مما كتبه اليونان في هذا المجال، ولاسيما كتاب الحيوان،

(٥٥) البيان ٦٩/١.

(٥٦) الحيوان ٢١، ١٨/١ مقدمة التحقيق.

لأرسطو^(٥٧)، إلا أنّ ذلك لم يمنعه من عرض هذا الفكر على العقل، والامتحان، فما وافق العقل قبله، وما خالفه رفضه، وكان الجاحظ قال في بعض ردّه على أرسطو: «وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل، وما يليق بمثله أن يخلّد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء»^(٥٨).

وكثيراً ما لجأ الجاحظ إلى الشعر العربي، ولاسيما الجاهلي منه، وما نظمه الأعراب عامة يستمد منه العون والمؤازرة في دعم موقف علمي، أو تأييد مشاهدة أو معاينته له، ومما علل به عمله في الاستشهاد بشعر الجاهلية ومن تبعهم من الأعراب أنّهم كانوا على صلة وثيقة بالحيوان، قال «وربما، بل كثيراً ما يبتلون بالناب والمنخبل، واللدغ واللسع، والعض والأكل، فخرجت بهم الحال إلى تعرّف حال الجاني والجرح والقاتل، وحال المجني عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطلب والهرب...»^(٥٩). وليس الأمر كما ادعى الدكتور طه حسين من أن الجاحظ كان يضيف هذا الشعر إلى الجاهليين ليدلّ على اتساع معرفتهم في هذا العلم: علم الحيوان، عصبية لهم^(٦٠).

ومما يحسن الاستشهاد به في هذا الاتجاه من ثقة الجاحظ بالشعر الجاهلي أنّه كان يصدره في الردّ على أرسطو، ويحتج به عليه، قال بعد سرده كلام أرسطو في عقوق العُقَاب: «هذا قول صاحب المنطق في عقوق العقاب وجفائها لأولادها. فأما أشعار العرب، فهي تدل على خلاف ذلك، قال دريد بن الصّمّة:

(٥٧) الحيوان ٢٠/١، المقدمة.

(٥٨) نفسه ١٨٥/١، وانظر نحوه في الحيوان ٢٢٨/٧ وفيه ردّ الجاحظ على أرسطو فيما ذهب إليه من أن الغيل أجرد الجلد، ونحوه من ردود الجاحظ، الحيوان ٥١٧/٣، ١٥٦/٤، ١٢٤/٧، ١٧/٦، ٥٤١/٥.

(٥٩) الحيوان ٢٩/٦.

(٦٠) العصر الجاهلي/١٧٣، وقد سبقت الإشارة إلى مثله في الصفحة ٩ من هذا البحث.

وكلُّ لجوج في العنان كأنهما إذا اغتمست في الماء فتخاء كاسر^(٦١)

لها ناهضٌ في الوكر قد مهدت له كما مهَّدت للبعل حسناء عاقز^(٦٢)

ومما يحسن الاستشهاد به أيضاً مما يوافق حديث الجاحظ عن صلة الجاهليين والأعراب بالحيوان ومعرفتهم لأحواله أنيسه ووحشيه ما حدث به واستشهد عليه من أكل الضبِّ ولده، وهو ما أشار إليه خدّاش بن زهير من الشعراء الجاهليين:

فإن سمعتم بجيش سالكاً سرفاً أو بطن قوّ فأخفوا الجرسَ واكتموا^(٦٣)

ثم ارجعوا فأكبّوا في بيوتكم كما أكبَّ على ذي بطنه الهرم^(٦٤)

وغيره من الأعراب والرواة^(٦٥)، وكان الجاحظ قد روى خلافهم في شرح هذا الشعر، قال: «وقال آخرون: لم يعنِ بذي بطنه ولده و لكن الضبُّ يرمي ما أكل، أي يقميء، ثم يرجع فيأكله... وقال عمرو بن مسافر: ما عنى إلا أولاده فكأنّ خدّاشاً قال: ارجعوا عن الحرب التي لا تستطيعونها إلى أكل الذريرة و العيال» ونحوه مما يؤكد صلة الجاهليين بالحيوان بأنواعه مما يدبّ على الأرض أو يطير في السماء، ومما يتعلق بموروثهم الفكري القديم ذكرهم النسر، وأكثر ذلك في بُد نسر لقمان الذي كان يُضرب المثل بسلامته وطول عمره، من نحو قول النابغة:

(٦١) عنى بصدر البيت الفرس، ثم مضى يشبهه بالعقاب في عجزه، وقوله: «إذا اغتمست

بالماء... أراد ما تصبب من عرق الفرس بسبب جريها وعدوها».

(٦٢) الحيوان ٣٧/٧-٣٨ والبيتان في ديوانه ١١٧.

(٦٣) سرف وبطن قوّ: موضعان، والجرس: الصوت، أو الخفي منه.

(٦٤) الحيوان ٥٠/٦.

(٦٥) نفسه ٤٩/٦-٥٣ وفيه عرض الجاحظ لخلافهم في تفسير هذا الشعر.

أضحت خلأء وأمسى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبْدٍ^(٦٦)
وقول لبيد بن ربيعة:

ولقد جرى لُبْدٌ فأدرك جريه رَبُّ الزمان وكان غير مُثَقِّلِ
لما رأى لُبْدَ النسورَ تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعزل
من تحته لقمانٌ يرجو نفعه ولقد رأى لقمانٌ أن لم يأتل^(٦٧)
وغيرهم ما بين جاهلي وأعرابي^(٦٨).

ونحو هذا صنيع الجاحظ لما عرض لذكر الفيل روى الكثير من الأشعار سماعاً وإسناداً وحفظاً ومطالعة، ثم عرض لموروث الجاهليين الشعري في حادثة الفيل مما عمّ وساد أنحاء الجزيرة كلها، فصححه وأشاد به، ومنه للتمثل ومعرفة موضع هذا الشعر قول صيفي بن عامر، وهو جاهلي من أهل يثرب:

قوموا فصَلُّوا ربكم وتعوذوا بأركان هذا البيت بين الأحاشب
فعندكم منه بلاء مصدق غداة أبي يكسوم هادي الكتائب
فلما أجازوا بطن نعمان ردهم جنود الإله بين ساف وحاصب
فولوا سراعاً نادمين ولم يؤب إلى أهله ملحَّبشٍ غير عصائب^(٦٩)

(٦٦) الحيوان ٦/٣٢٥ و ٥١/٧.

(٦٧) نفسه ٦ / ٣٢٦ - ٣٢٧، وديوانه ٢٧٤/ و الرواية فيه «أن لا يأتلي» أي أن لقمان ألقى نفسه لم يقصر في استبقاء النسور والحرص عليها، ولكن القدر غلبه على أمره.

(٦٨) نفسه ٦ / ٣٢٥ وما بعدها.

(٦٩) نفسه ٧/١٩٧، والأحاشب، أراد بهما الأخشيين، وهما جبلا مكة. وأبو يكسوم: كنية

أبرهة، الملك الحبشي، صاحب الفيل، ينظر الحيوان ٧ / ١٠١.

ولعل ما ذُكر كان مؤهلاً - إلى حد ما - للوقوف على منحى جديد من رواية الجاحظ وما تميزت به من منهجية، ونعني بذلك الوقوف على خصائص منهجه، وسماته الفنية الغالبة مما سيأتي تباعاً.

خصائص منهجه:

من غير شك أنّ ما تحدثنا به عن منهج الجاحظ في روايته لا يعني خصائص روايته كاملة، ولا سمات منهجه من أوله إلى آخره، فثمة أمور أخرى تميز بها المنهج الجاحظي في الرواية من نحو الوثائقية، وذلك أن الجاحظ كان موثقاً أصيلاً لكل موضوع وقف عليه مما شاهده في الأسواق، أو تناهى إلى سمعه عبر الرواية للأخبار والأشعار، فهذا مما كان ملحوظاً لديه، ومعمولاً به، وهو ما أشار إليه في بعض ردّه على أرسطو، قال: «وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل، وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه في المكتب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء»^(٧٠).

وثمة توثيق لم يقصد إليه وهو ما وقع بسبب الاختيار والانتقاء، وذلك أن ظاهرة الاختيارات الشعرية، ونحوها النثرية كانت وما زالت تمدّ تراثنا بمعين لا ينضب من الوثائقية للمحفوظ، فلا تميته الليالي ولا تمحوه الأيام، فهذه الأبيات أو الأقوال التي انتقاها الجاحظ، واقتطعها من قصائد الجاهليين وخطبهم وأقوالهم استشهداً على أمر ما، أو توضيحاً للخبر من الأخبار، أو إقامة لصرح موضوع من الموضوعات بقيت تُروى إلى عصرنا الحاضر لم ينتقض منها حرف واحد.

غير أنّ هذا لن ينسينا أنّ ظاهرة الاختيارات، ولا سيما في الأدب، أضرت مثلما نفعت وأفادت، فهذه الأبيات أو المقطعات التي اقتطفت وحفظت على مرّ الدهور، يقابلها القصائد الأم التي أخذت منها، والتي يمكن ليد الدهر أن تأتي عليها فتطويها في

(٧٠) الحيوان ١/١٨٥.

حيز النسيان أو الضياع، وهذا ما وقع فعلاً، فبعض الاختيارات بقيت شاهدة على أصولها في حين أن أصولها نُسيت أو تُنوسيت فلا تُذكر ولا تُروى، وهذا الأمر لا يقتصر على الجاحظ في نفعه أو ضرره، ولا سيما أنّ ظاهرة الاختيارات ممثلة بـ(الحماسات) بدأت تشق طريقها على يد أبي تمام (٥٢٣٢ هـ) ومن جاء بعده^(٧١).

أما الأحكام التي كان الجاحظ يطلقها حول العصر الجاهلي الذي روى من أشعاره وأخباره الشيء الكثير، فيمكننا أن نشير إلى كثرة هذه الأحكام التي توصل إليها مع حيويتها ونضارتها وتميزها بالصحة والدقة، وتعبيرها عن صاحبها وعلمه، وسعة اطلاعه.

فمن هذه الأحكام مما يرتبط بتفكيره الإنساني والحضاري، والمعبر في الوقت نفسه عن الواقع الجاهلي فيما كان عليه، من حيث أن الجاهليين شأهم شأن بقية الأقاليم والأمم سعوا إلى تخليد مآثرهم وبقاء ذكراهم على وجه البسيطة، وهذا أمر متوغل في النفس الإنسانية لا يفارقها البتة، منذ سعى آدم لذلك يوم كان في جنة الخلد^(٧٢)، وإلى يوم الناس هذا، وكيف كانت الأمم تحتال لذلك من طريق العمران، وبناء الصروح والأوابد، كأهرامات مصر، ومعابد الرومان، وهياكل اليونان، وقصور فارس، في حين أنّ العربي، ولا سيما القاطن في شمالي الجزيرة، والذي كان بعيداً عن الاستقرار المكاني، لم يكن أمامه لتخليد مآثره، وبقاء ذكراه سوى الشعر الذي قام عنده مقام الأهرامات والهياكل والقصور، وبريشته أبقى العربي ذكراه حيّة نابضة إلى ما شاء الله من الأزمان والدهور. يقول الجاحظ في بيان هذا الحكم، وتوضيح هذه الحقيقة: «فكل أمة تعتمد

(٧١) تنظر الحماسة لأبي تمام، والحماسة لأبي عبادَةَ الوليد بن عبيد البحتري (٥٢٨٤ هـ).

(٧٢) انظر آيتي سورة البقرة ٣٥-٣٦، وآيات سورة الأعراف ١٩-٢٢، وآيات سورة طه

في استيفاء مآثرها، وتحقيق مناقبها على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفى... وذهبت العجم على أن تقيدها بالبنين^(٧٣)».

ومن أحكامه أيضًا ما سبق الحديث عنه، حيث مضى الجاحظ بناءً على مروياته من الشعر الجاهلي يحدد زمن هذا العصر تحديدًا دقيقًا، فيجعله في خمسين ومئة، أو في مئتين من السنين، ويربط ذلك بشعر امرئ القيس ومهلhel بن ربيعة^(٧٤)، وهذا الحكم على غاية من الدقة والوثاقية التي عُرف بها الرجل^(٧٥).

وإذا ما جئنا إلى أحكامه في مجال الخطابة والشعر، وهما - كما لا يخفى - ركنان أساسيان في الرواية الأدبية، وفيهما تعويل كبير على العصر الجاهلي ومعطياته لاحتنا أن الجاحظ قد عني بالخطابة عناية خاصة، ولا غرو، فالخطابة دعامة من دعائم الدعوة، وكثيرًا ما لجأ إليها المعتزلة في تأييد أمرهم، وهو يرسم لها أدبًا يستحسن فيه أن يقتبس الخطيب القرآن والشعر، ويبين ما ينبغي اتباعه في ضروب من الخطب كخطبة النكاح^(٧٦)، ويتكلم في استعمال المخاصر والعصي في الخطبة، وطعن الشعوبية على العرب في ذلك^(٧٧).

ونراه في مجال الشعر يبين أن له ميسمًا يبقى على الدهر في المدح والهجاء، وله أوزان لا بد منها، ولا بد من القصد إليها، فمن جاء كلامه على وزن الشعر، ولم يتعمد هو هذا

(٧٣) الحيوان ١/٣٦.

(٧٤) نفسه ١/٧٤.

(٧٥) العصر الجاهلي/٣٨، وانظر ما سبق في هذا البحث، ص ٥.

(٧٦) البيان ١/١٤، ١١٦، ١١٨.

(٧٧) نفسه ١/٢٨٣، ثم أول الجزء الثاني، ثم أول الجزء الثالث.

الوزن، فليس كلامه بشعر^(٧٨)... ويأتي الجاحظ على القصيدة الشعرية، فيذكر أنه لا ينبغي أن تكون كلها أمثالاً وحكمًا، فإنها إن كانت كذلك لم تسر، ولم تجر مجرى النوادر، وللشعراء رسوم خاصة^(٧٩)، وقد كان بعض أبيات الشعر سببًا من أسباب تسمية الشاعر، فيذكر -هنا- مرقئًا، واسمه عمرو بن سعد ابن مالك، وإنما سمي مرقئًا لقوله:

الدار قفرٌ والرسوم كما رَقَشَ في ظهر الأديم قلم^(٨٠)

ويذكر شأس بن نهار العبدي، غلب عليه الممزق لقوله:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكلٍ وإلا فأدركني ولما أمرق^(٨١)

ويذكر الشريد وهو عمرو بن رياح السلمي، أبو الخنساء غلب عليه (اللقب) لقوله:

تولى إحقوقي وبقيت فردًا وحيدًا في ديارهم شريدًا^(٨٢)

ويذكر المزرّد، والمتلمّس وغيرهم، وما قالوه من شعر غلب على أسمائهم^(٨٣).

ومن جيد أحكامه في مجال الشعر أن الشعر خير الوسائل لتخليد الإنتاج الفني «فما تكلمت به العرب من جيد المنثور، أكثر من جيد الموزون، فلم يُحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره»^(٨٤).

(٧٨) البيان ١/ ٢٨٧، ٢٨٩.

(٧٩) نفسه ١/ ٩٤، ٢٠٦.

(٨٠) نفسه ١/ ٣٧٤، والبيت في ديوانه/ ٥٧.

(٨١) نفسه ١/ ٣٧٥، والممزق، بفتح الزاي و كسرهما.

(٨٢) نفسه ١/ ٣٧٥.

(٨٣) نفسه ١/ ٣٧٤، ٣٧٥.

(٨٤) نفسه ١/ ٢٨٧، وانظر مقدمة الكتاب ص ٧.

فهذه بعض الأحكام التي تمتاز بها مؤلفات الجاحظ، وهي في صميم منهجه، ومما يخصه ويختص به أولاً بأول، وإذا كنا قد لاحظنا قلتها وضآلتها، فهذا مما عمدنا إليه، إذ لم يكن المقصود إلا الشاهد والمثال، ولكنها - والحق يُقال - توازي الأمثال وتنوء بالعصبة أولى القوة من الرجال، لكثرتها، وسيورتها، ودقتها، وصحتها، وتنوعها، ولك أن تقف على بعضها مما أُشير إليه في «البيان» لترى بيان ذلك في أي اتجاه شئت.

ويمكننا الآن بعد الذي تقدمنا به أن نستحث الحُطَّا إلى آخر الحُطَّا، ونعني بذلك الوقوف على الأثر الذي تركته رواية الأدب الجاهلي في مؤلفات الجاحظ وأعماله العلمية، ولاسيما في الحيوان، والبيان، إذ أمدتها بمادة علمية، وأغنتها بأحكام وثائقية، وزينتها بضروب من الخطب والأشعار، ومقتبسات من القيم والعادات والأنساب، مع الجَمِّ الكثير من الأخبار، وهو مما سنقف عليه في هذه الفقرة بشيء من الإيجاز والإجمال.

أثر رواية الأدب الجاهلي في كتب الجاحظ ومؤلفاته:

لا نقصد بهذه النقطة الأخيرة من البحث سوى بعض النماذج والاختيارات مما ألفه الجاحظ، وكتبه متأثراً بروايته للأدب الجاهلي، مما نراه متألئاً على صفحات كتبه، من مثل الحيوان، والبيان، والبخلاء، ورسائله المتعددة، وأعماله الأخرى. وإذا ما توجه القارئ نحو كتاب «الحيوان» ملاحظاً تنبيه الجاحظ له^(٨٥): «ينبغي أن تكون إذا مررت بذكر الآية والأعجوبة في الفراشة والجرحسة، ألا تحتقر تلك الآية، وتصغر تلك الأعجوبة... ولكن كن عند الذي يظهر لك من تلك الحكم، ومن ذلك التدبير، كما قال الله ﷻ:

﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَوْحَانِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:

١٤٥]».

(٨٥) الحيوان ٤/٢١٠، وانظر نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب/١٣٦.

ومثل هذا التنبيه ردهه الجاحظ مرارًا لعل القارئ يدرك من خلاله أنه هو الغرض الأساسي من تأليف هذا الكتاب^(٨٦)، فالجاحظ رأس من رؤوس المعتزلة الذين أكثروا من الكلام على ما في المخلوقات - ومنها الحيوان - من حجة على حكمة الخالق، غير أنّ هذا كله يجب ألا ينسينا «أن الجاحظ أديب قبل كل شيء، فسرعان ما انقلب هذا الموضوع الوقور ما بين يديه الساحرتين إلى موضوع خفيف الظل متعدد الألوان، متشعب النواحي، وغدا كتابه من أجل ذلك من أغنى كتب الأدب بالأخبار والأشعار والخطب والأقاصيص وال نوادر...»^(٨٧). وهنا بيت القصيد، فيما توجهنا إليه من نقطة بحثية حول الأثر الذي تركته رواية الجاحظ للأدب الجاهلي في مثل هذا المؤلف الضخم، وهو ما أشار إليه محققه عبد السلام هارون حين عرض لمصادر الجاحظ في تأليف الحيوان، فذكر منها القرآن الكريم، والحديث الشريف، وذكر الثاني من مصادره، قال: «وعليه كان أكثر اعتماده الشعر العربي، فالشعر العربي، وخاصة البدوي منه، قد تحدث عن الحيوان حديثًا طويلاً، وتحدث عن الأنيس منه، ولم يهمل الوحشي، بل أشرك بين هذا وذاك».

والجاحظ يرى أنّ العرب - والأعراب منهم خاصة - قد ثقفوا معرفة الحيوان، وبرعوا في ذلك البراعة، واستوعبوا حاله وعاده، وهو يقول في ذلك: «وقلّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرآناه في كتب الأطباء، والمتكلمين، إلّا ونحن قد وجدناه، أو قريبًا منه في أشعار العرب والأعراب»^(٨٨).

وهكذا تبين لنا أنّ الشعر الجاهلي والأعرابي مما كان ينظمه الشعراء الجاهليون والأعراب من بعدهم ملاحظة ومعينة، أو تقليدًا فنيًا جاريًا على سندهم في منهج القصيدة

(٨٦) نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب / ١٣٦، وانظر الحيوان ٢٨٤/٦ في قصيدي بشر بن المعتمر المعتزلي في الحيوان، وهما مما أثبتته الجاحظ تأكيدًا لهذا المعنى.

(٨٧) المصدر السابق / ١٣٧.

(٨٨) الحيوان ١/١٩، مقدمة التحقيق.

من غير أن يخلّ بالواقع المعاشي للحيوان، كل ذلك ترك أثره في المفردات العلمية والأدبية لهذا الكتاب، وكذلك في مفرداته العَقْدِيَّة والفلسفية، والجغرافية والتاريخية، والطبية والبيطرية، وغيرها مما نراه شاخصاً في كل صفحة من صفحاته تقريباً.

وبنظرة مماثلة نقف مع مؤلفه الثاني (البيان والتبيين) لنتبين هذا الأثر من رواية الجاحظ للأدب الجاهلي في فقرات الكتاب، وأجزائه المختلفة، على أن بعضه سبق لنا ذكره والوقوف عليه، ويمكننا هنا للمثال، والوقوف على المعنى المشار إليه أن ندلف إلى أول هذا المؤلف، وهو من أبواب البيان والبلاغة^(٨٩)، وفيه يبدأ الجاحظ مستعيداً بالله من فتنه القول ومن فتنة العمل... ومن السلاطة والهدر، والعي والحصر... ويأتي بالشواهد المتعددة بما يناسب استعاذته، وفي مقدمتها ما رواه عن الجاهليين والمحضرين، أمثال النمر بن تولب، والهدلي، وشثيم بن حويلد، وزبان بن سيار، وابن أحمr الباهلي، وحميد بن ثور الهلالي، وأشعارهم شاخصه في (البيان) تنبئك مع غيرها، مما قلّ، أو كثر من ضروب الشعر والنثر الجاهلي بما اختاره الجاحظ، ووشحه بأحاديثه المختلفة عن العرب والأعراب، والشعر والشعراء، والخطابة والخطباء والكتاب والنسك والزهاد، والقصاص، وما هم عليه من بلاغة الشعر، وبلاغة القلم، فهذا بعض ما يوضح الأثر الذي تركته رواية الأدب الجاهلي في مثل هذا المؤلف^(٩٠).

ولنا أن نقف في عجالتنا هذه على بعض مؤلفات الجاحظ الأخرى مما استبان فيها أثر روايته للأدب الجاهلي شعره ونثره، من نحو كتاب «البحلاء» وكان قد روى فيه لعدد من شعراء الجاهلية ومحضرميها، واستشهد بقدر من أشعارها وخطبها وأمثالها

(٨٩) البيان ٣/١ - ٦.

(٩٠) انظر كذلك ما ذكره الدكتور أمجد الطرابلسي في حركة التأليف / ١٤٥ حول توجه الجاحظ

للزرد على الشعوبية، وما أفاده من رواية الإرث الجاهلي في هذا المجال.

ونوادرها وقصصها وعادها^(٩١) وفكرها، ولاسيما لأولئك الذين ذاع صيتهم في كرم أو بخل، وبذل أو منع، ودعوة ووليمة، وطعام ونحوه، ولنا أن ندلل ببعض أسماء هؤلاء الشعراء الجاهليين من نحو خالد بن نضلة الفقعسي، والأسود بن يعفر، وقيس بن زهير، وثوب بن شحمة العنبري، ورافع بن هرم اليربوعي، وحاتم الطائي، والنمر بن توبل، وتميم بن أبي بن مقبل، وغيرهم.

ومما يتمثل به لمرويات الجاحظ في هذا المؤلف، مما نظمه الجاهليون في صفة عاداتهم وطعامهم، وما عايشوه في صحرائهم، وما أحبوه أو كرهوه، وما قد يتماحدون به أو يتهاجون بسببه^(٩٢)، ذكره الدعوة والمأدبة، وأنواع الأطعمة ما طاب منها وما خبث، ووصفه الجفان والقدور، وما أردفه من شعر مسند أو مسموع أو مقروء حول هذا الإرث، فمن ذلك قوله في المأدبة: وهي اسم لكل طعام دُعيت إليه الجماعات. قال الشاعر:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقر^(٩٣)

ومن ذلك قوله يذكر بعض أطعمة العرب من نحو «العُرس والحُرس والإعذار والوكيرة...»^(٩٤)، وقوله يروي هجاء لابن القميئة على التشبيه ببعض هذه الأطعمة:

شركم حاضر وخيركم دَ رُ خروس من الأرانب بكر^(٩٥)

وقريب منه مديح أحدهم لأطعمة أخرى، وهو قوله:

(٩١) عادها: جمع عادة.

(٩٢) انظر البخلاء / ٢١٣ وما بعدها (باب أطراف من علم العرب في الطعام).

(٩٣) الجفلى: الدعوة إلى الطعام من غير اختيار، وهي مما أحبوه وامتدحوه، ويقابلها النقرى وهي الاختيار في

الدعوة، وهو مما كرهوه وذمموه، البخلاء / ٢١٣-٢١٦ وثمة نسبة البيت لطرفة بن العبد.

(٩٤) الحُرس: طعام النفساء، والإعذار: طعام الختان، والوكيرة: طعام البناء.

(٩٥) الحُروس: صاحبة الحُرس، ابن القميئة هو عمرو بن قميئة، من أقدم الشعراء الجاهليين،

البخلاء / ٢١٤.

خَيْرُ طَعَامٍ شَهِدَ الْعَشِيرَةَ الْعُرْسَ وَالْإِعْذَارَ وَالْوَكِيرَةَ^(٩٦)

ومن هذا القبيل قول الأفوه الأودي يصف جفان الموسرين الكرام وطعامهم ولا سيما أيام الشتاء، يقول:

تَهَا لَتَعْلَبَةُ بِنِ قَيْسِ جَفْنَةَ يَأْوِي إِلَيْهَا فِي الشِّتَاءِ الْجَوْعُ

وَمَذَانِبٌ لَا تَسْتَعَارُ وَخَيْمَةٌ سُودَاءُ عَيْبِ نَسِيحِهَا لَا يُرْقَعُ^(٩٧)

ونحوه كثير في الباب المشار إليه.

وقد يُقال مثل هذا في مؤلفات الجاحظ الأخرى التي يستشعر فيها القارئ أنس المؤلف بالجاهلية جميعها، وما رواه عنها من أمثال وأشعار ولهجات وأقوال، مما نراه مبثوثاً في كل صفحة من صفحات هذه المؤلفات^(٩٨)، متواتراً ضمن منهج جاحظي لا يجيد في نمطه، ويبين في كل خطوة من خطواته عن أثر هذه الرواية وأهميتها.

وختاماً:

لعل ما تقدمنا به في أول هذا البحث من تعريف بالجاحظ، ومطالعة عن رواية الشعر الجاهلي وتوثيقه خلال العصور الأولى، ومن ثم تدوينه، وما رافق ذلك من معطيات بحثية أخرى قد مهد السبيل لما قمنا به في تنمة البحث من حديث عن رواية الجاحظ لأدب الجاهلية بدءاً من موقعه بين الرواة، وانتهاءً ببيان منهجه في السماع والإسناد والمطالعة والمعينة، وما وليه من حديث آخر عن خصائص هذا المنهج من نحو الدقة والاستقصاء والاختيار والانتقاء، والشمولية والوثائقية والأحكام، ثم ما كان

(٩٦) البخلاء/ ٢١٥ وروى البيت من غير نسبة.

(٩٧) المذانب: جمع مذنب ومذنبه وهي المغرفة، البخلاء/ ٢٢٣. والأفوه: صلاة بن عمرو، جاهلي قديم.

(٩٨) انظر على سبيل المثال فهرس النصوص المأثورة، والأقوال غير المنسوبة والأشعار، رسائل

الجاحظ/ ٣٣٣ وما بعدها.

من وقفة بينة مع أثر روايته للأدب الجاهلي، فيما أعطى وأمتع، وألّف وأفاد، ولاسيما في أمثال مؤلفاته القيمة «الحيوان» و«البيان» و«البخلاء» و«رسائله» وسوى ذلك. وإن كان من كلمة تذكر في هذا المجال، فهو الإشادة بهذا الأثر الذي منحتة رواية الأدب الجاهلي للجاحظ من حيث تمكنه، وقوة عارضته، ولسانه العربي المبين، وطرحه العلمي والأدبي والفكري والديني والتاريخي والحضاري والحياتي القديم والمعاصر مشفوعاً بهذه الرواية. وبالمقابل، فالحق يُقال إنّ الجاحظ أثرى الأدب الجاهلي، ومعطيته جميعاً بروايته له، ومهّد السبيل لجمهرة العلماء من بعده ليفيدوا أيما فائدة من هذا التراث الخالد، والمعين الذي لا ينضب أبداً.

مصادر البحث ومراجعته

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الإتيقان في علوم القرآن، للسيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات الشريف الرضي، طهران ١٤١٤هـ.
- ٣- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٨٠م.
- ٤- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، صورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م وما بعدها.
- ٥- البخلاء، لعمر بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) تحقيق د. طه الحاجري، القاهرة، ط ٦، ١٩٨١م.
- ٦- البيان والتبيين، لعمر بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.
- ٧- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، أحمد بن علي (٤٦٣هـ) مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٣٤٩هـ.
- ٨- الحيوان، لعمر بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام هارون، طبع مصر، البايي الحلبي، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.
- ٩- ديوان أحيحة بن الجلاح الأوسي الجاهلي، تحقيق د. حسن محمد باجودة، من

- مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ١٩٧٩م.
- ١٠- ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، مصورة المكتب الشرقي، بيروت عن طبعة مصر ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- ١١- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.
- ١٢- ديوان أمية بن أبي الصلت، صنعة د. عبد الحفيظ السطلي، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٤م.
- ١٣- ديوان دريد بن الصمة، تحقيق محمد خير البقاعي، دار قتيبة، دمشق ١٩٨١م.
- ١٤- ديوان طرفة بن العبد، تحقيق الخطيب والصقال، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥م.
- ١٥- ديوان المرقشيين، تحقيق كاترين صادر، دار صادر، بيروت ١٩٩٨م.
- ١٦- ديوان معن بن أوس المزني، تحقيق القيسي والضامن، بغداد ١٩٧٧م.
- ١٧- رسائل الجاحظ، عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- ١٨- السيرة النبوية، لابن هشام محمد بن عبد الملك (٢١٣ أو ٢١٨هـ) تحقيق مصطفى السقا، ورفيقه، طبع مصر ١٣٥٥هـ/١٩٣١م.
- ١٩- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه د. إحسان عباس، طبع الكويت ١٩٨٤م.
- ٢٠- شعر خدش بن زهير، صنعة د. يحيى الجبوري، طبع مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٨٦م.
- ٢١- الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٥٨م.
- ٢٢- طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي تحقيق محمود ومحمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٤م.
- ٢٣- العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٩٦٠م.
- ٢٤- كتاب الضعفاء والمتروكين، لابن الجوزي جمال الدين عبد الرحمن بن محمد (٥٩٧هـ) دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت ١٤١٦هـ/١٩٨٦م.
- ٢٥- لسان العرب، لابن منظور، محمد بن مكرم (٧١١هـ) دار صادر، بيروت

١٩٥٦/هـ١٣٧٦ م.

٢٦- مراتب النحويين، لأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي (٣٥١هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٤ م.

٢٧- مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، دار المعارف، مصر ١٩٦٢ م.

٢٨- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦هـ) بعناية مرغليوث ١٣٥٥هـ/١٩٣٦ م.

٢٩- المفضليات، للمفضل بن محمد الضبي (١٦٨هـ) تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر ١٩٦٤ م.

٣٠- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، د. أمجد الطرابلسي، نشر وتوزيع دار الفتح بدمشق ١٣٩٢هـ/١٩٧٢ م.

الدوريات:

- مجلة عالم الفكر، العدد ٤، المجلد ٣٥، عام ٢٠٠٧ م، مقالة الدكتور محمد محمود الدوري.

الفن في رجز أبي الخطاب البهذلي وقصيده

د. أحمد علي محمّد (*)

المقدمة:

لم يكن الرّجز في بادئ أمره يضاھي القصید، سواء أكان ذلك من حیث الشکل أم من حیث المضمون، لهذا جعلت منزلة الرّاجز دون منزلة المقيّد من الشعراء، فكان الرّاجز في الجاهلیة على حدّ تعبير ابن قتیبة لا یجوز فی نظمه البیتین أو الثلاثة إذا خاصم أو شاتم أو فاحر، لهذا لم یصل إلینا من أقوال أعلام الكلام فی الزّمن السابق للإسلام إلا شذرات انطوت علیها بعض مصادر الأدب، فلمّا جاء الإسلام انبری عددٌ من الرّجّاز فألحقوه بالقصید وفتحوا أبوابه على النّاس وقصدوه لیستوعب موضوعات الشّعْر، كوصف الطلل و نعت الإبل وغيرها. وقد سئل الأخطل عن الرّجز فقال: «أرجز الرّجّاز فی الإسلام وقبله العجّاج، فإنّه فتح أبواب الرّجز^(١)»، ویروی عن ابن سلام: أنّ الأغلّب العجلیّ أوّل من ارتجز، غیر أنّ ابن رشیق یرى أنّ الرّجز عُرف منذ الجاهلیة، إذ كان الرّجل یقول منه البیتین أو الثلاثة^(٢)، وكان من أمر العجّاج أن «رفعه فشبّهه بالشّعْر، وجعل له أوائل، ووصف فیه الدّیار وأهلها وذكر ما

(*) عضو الهيئة التدريسية في كلية الآداب بجامعة حمص.

(١) البيهقي (المحاسن والمساوي) ط دار صادر بيروت ١٩٧٠ ص: ١٢٣.

(٢) ابن رشيق (العمدة) تح: فرقان ط دار الكتاب اللبناني بيروت ٢٣٤/١.

فيها، وذكر الرُّسوم والقلوب ونعت الإبل والطلول، وكان يُشَبَّهُ بامرئ القيس^(٣)، ذلك لأنَّ امرأ القيس أول من بكى واستبكى واستوقف الصحب ووصف الطلول في القصيد، والعجاج أول من ألحق الرِّجْز بالقصيد فطَوَّلَه ومدَّ أطرافه وفتح بابه على النَّاس فإذا به يتَّسع لموضوعات القصيد من وصفٍ ومدحٍ وفخرٍ وهجاءٍ وغير ذلك من موضوعات الشَّعر.

ويذكر ابن قتيبة أنَّ الأغلب العجلي أول من شبه الرِّجْز بالقصيد فأطاله وكان قبله ضئيلاً^(٤). ويورد العسكري أنَّ النَّاس تنازعوا في إقرار السابق إلى إلحاق الرِّجْز بالقصيد، فزعمت تميم أنَّ أوَّهم العجاج ثم حميد الأرقط ثم رؤية بن العجاج، وقالت ربيعة أوَّهم الأغلب ثم أبو النَّجم ثم العجاج^(٥).

وعلى كلِّ حال فقد جعلوا أرجز الرِّجْز ثلاث أرجوزات، ليس في الجاهلية والإسلام أمدح من أرجوزة العجاج:

قد جبر الدينَ الإلهَ فجبر

ولا أرجوزة في وصف رامٍ وقابضٍ أرجز من أرجوزة رؤية:

وقاتم الأعماق حاوي المخترق

ولا أرجوزة في وصف الإبل ورعيها أرجز من أرجوزة أبي النَّجم:

الحمدُ لله الوهوب الميجزل^(٦)

وإذا كان الشَّعرُ على حدِّ قول عمر رضي الله عنه «علم قومٍ لم يكن لديهم علمٌ أصحَّ

(٣) العسكري (الأوائل) تح ولبيد فصاب نشر وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٧ ص: ١١١.

(٤) ابن قتيبة (الشعر والشعراء) تح: أحمد محمد شاكر ط دار المعارف بمصر ٢/٢١٢.

(٥) العسكري (الأوائل) ص: ١٠٠.

(٦) المصدر السابق ص: ١١٢.

منه^(٧)»، إليه ينزعون في المدح والفخر والمجاء والرثاء، إذ لم يكن لديهم ديوانٌ مُدوّن، أو ذخيرة يرجعون إليها في التعبير عن حاجاتهم، فجعلوا الشعر منتهى علمهم وغاية حكمتهم، فادخروا فيه كلّ ما انتهت إليه معارفهم في حياتهم، فإنّ الرّجز كان مهوى أفئدتهم يركنون إليه في التعبير عن لغتهم وحفظ ما تناسته الألسنة منها، فصار الرّجز أشبه بالمعجمات التي تحفظ الغريب من كلامهم والمهجور من أقوالهم، والشاذ من ألفاظهم، من أجل ذلك قيل: إنّ الأصمعي كان يحفظ ألف أرجوزة، والنوادي حين تفتحت قريحته نصح له خلف الأحمر أن يحفظ عددًا من الأراجيز، وكذا كان أبو تمام حافظًا للرّجز، وقد قيل: «رؤوا أبناءكم الرّجز فإنّه يهت أشداقهم^(٨)».

لقد كثر الرّجز في صدر الإسلام وعصر بني أمية كثرةً دعت الكثيرين من الأدباء إلى عدّه من نتاج هذين العصرين، إذ كان العجاج وأبو النّجم العجلي ورؤبة ابن العجاج من أعلام هذا الفنّ، أودعوه ما أودع الشعراء قصائدَهم من المديح والافتخار والأوصاف والتزهد والحكم، يضاف إلى ذلك أنّهم جعلوا الرّجز مضمارةً للغريب والمهجور والشاذ من كلام العرب، فقدموا مادة ثرية لعلماء اللّغة والنحو، فكان الخليل وأبو عمرو بن العلاء والأصمعي يأخذون عنهم ويستشهدون بكلامهم.

وفي عصر بني العباس بلغ الرّجز مبلغاً عظيماً بطريق بشار بن برد وأبي نواس وأبي تمام وأبي العتاهية وغيرهم، ليدخل بعد ذلك بطريق العلماء في مضمارة المزدوج الذي اتسع للمنظومات التعليمية والعلمية والثقافية، كالذي صنعه ابن المعتز فيما نظمه من الأيام والوقائع، وما صنعه أبان اللاحقي الذي نظم كليله ودمنة شعراً، وما صنعه ابن سينا في وصف الروح، وابن مالك في نظم القواعد وغير ذلك كثير جداً.

(٧) ابن رشيق (العمدة) ١/١٢٤.

(٨) أنيس إبراهيم (موسيقا الشعر) مطبعة الأجلو المصرية ١٩٧٨م ص: ١٢٨.

ومع كل ذلك فقد بقي التنازع قائماً بين الشعراء والرّجّاز، إذ روي عن جرير بن عطية قوله: «إني لأدع الرّجّز مخافة أن يستفرعني، وإني لأراه كآثار الخيل في اليوم الثري^(٩)»، وكذا المعري هوّن من شأن الرّجّاز في حوار متخيل مع رؤبة ابن العجاج انطوت عليه رسالة الغفران فذكر فيها: «ويمرُّ بأبيات ليس لها سموق أبيات الجنة فيسأل عنها فيقال هذه جنة الرّجّز يكون فيها أغلب بني عجل والعجاج ورؤبة وأبو النّجم وحميد الأرقط وعذافر بن أوس وأبو نخيلة وكلّ من عُفّر له من الرّجّاز، فيقول تبارك العزيز الوهاب، لقد صدق الحديث المروي أنّ الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها، وإن الرّجّز من سفساف القريض، قصرتم أيّها النّفّر فقصر بكم... ويعرض له رؤبة فيقول: يا أبا الجحّاف ما أكلفك بقواف ليست بالمعجبة، تصنع رجزاً على الغين ورجزاً على الطاء وعلى الظاء وغير ذلك من الحروف النافرة، ولم تكن صاحب مثلٍ مذكور ولا لفظ مستحسن عذب. فيغضب رؤبة ويقول: ألي تقول هذا وعني أخذ الخليل وكذلك عمرو بن العلاء؟

قال: لو سُبِكَ رجزُك ورجزُ أبيك لم تخرُج منه قصيدةٌ مستحسنة. فيقول رؤبة: أليس رئيسكم في القديم والذي ضَهَلْتُ^(١٠) إليه المقاييس كان يستشهد بقولي ويجعلني له كالإمام؟ فيقول: هو بالقول منطلق لا فخر لك أن استشهد بكلامك فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمةٍ وكعاءٍ تحمل القتل^(١١) إلى النار الموقدة^(١٢)».

(٩) المال الثري: الكثير والثريان المطر وندى الأرض ينظر إلى كتاب (الحب والمحجوب) للسري

الرفاء تح: مصباح غلاونجي ط مجمع اللغة العربية بدمشق ص: ١٢٣.

(١٠) ضهلت إليه الشيء على غير وجه المقاتلة.

(١١) القتل: المقطوع من الشجر.

(١٢) المعري (رسالة الغفران) تح: بنت الشاطئ ط دار المعارف بمصر ص: ٣٣٩.

بناء الأرجوزة:

كانت طرق الرّجز كما انتهت إلى أبي الخطاب لاجبةً، كثيرة الصّوى، مختلفة السُّبل، فقد سبقه - كما تقدم - أعلام كبار كالعجاج وأضرابه، مهدوا له الطرق وبلغوا فيه من التنوع والاكتمال مبلغًا يصعب على من تأخر عنهم إضافة ما يجدر ذكره أو الوقوف عليه، غير أنّ أبا الخطاب فيما يبدو قد وجد موطنًا قديمًا له في هذا الفنّ، ذلك لأنّ الأصمعي على نحو ما يشير ابن المعتز روى له واحتج بكلامه وأخذ من أقواله، وهذا بحدّ ذاته من الدوافع التي تجعل من الوقوف عند رجزه مع ندرته وقلة ما انتهى إلينا منه أمرًا يفيد الدرس الأدبي في هذا الباب.

لقد سكتت كثيرٌ من المصادر الأدبية عن ذكر أبي الخطاب، ونعثر من خلال المعلومات القليلة التي انطوت عليها كتب كالورقة لابن الجراح، وطبقات ابن المعتز ومجالس ثعلب، على ملامح لا تتسم بوضوح كافٍ يكشف عن شخصية هذا الرّاجز، وكلّ ما يصادفه الباحث في هذا الشأن أنّ تلك المصادر القليلة اختلفت في اسمه، فيورد ابن الجراح أنّ اسمه عمر بن عامر^(١٣)، في حين يسميه ثعلب في مجالسه عمر بن عيسى^(١٤)، أما ابن المعتز فيكتفي في طبقاته بلقبه أعني أبا الخطاب البهدي^(١٥).

وتحدد المصادر موطنه بالبصرة إذ قال ابن الجراح: «بصري فصيح راجز متقدم^(١٦)»، وأما زمانه فمرتبط بزمن الرّشيد، فأورد ابن الجراح أنّه كان في عصر هارون الرّشيد^(١٧)، وكذا

(١٣) ابن الجراح (الورقة) تح: عبد الستار فراج القاهرة ١٩٥٣م ص: ١٥٦.

(١٤) ثعلب (مجالس ثعلب) تح: عبد السلام هارون ط دار الكتب المصرية ص: ١٩٦.

(١٥) ابن المعتز (طبقات الشعراء) تح: عبد الستار أحمد فراج ط دار المعارف بمصر ص: ١٣٢.

(١٦) ابن الجراح (الورقة) ص: ١٢١.

(١٧) المصدر السابق.

أشعاره تدل على أنه اتصل بموسى الهادي ومدحه في قوله^(١٨):

قلٌ للخليفة موسى إنَّ نائله جزلٌ هنيئٌ وما في سيبه كدرٌ
متوجٌ بالهدى بالحمد ملتحفٌ مسريلٌ بالتدى بالمجدٍ متزُرٌ
موسى الذي بذل المعروف يُنهبهُ في النَّاسِ فالجود من كفيه ينهمر
أنتَ الدَّعامَةُ يا موسى إذا احتدمتْ نيرأُها وحماة الحرب تجتزر
ومدح الفضل بن يحيى البرمكي في قوله^(١٩):

تشاغل النَّاسِ بينيأهم والفضل في بنا العلا جاهد
كلٌ ذوي الرأي أهل النَّهى للفضل في تديره حامد
ومدح الوزير الحسن بن سهل في قوله^(٢٠):

قمعت كلُّ ناكث مفتون بالصلح لما صرت كالبنين

ومن صفاته كما يُذكر أنه كان من العرجان، وله في رِجله أرجوزة حازت إعجاب الناس في زمنه، فعدت من عجائبه، ويبدو أنه قد عُمر فجاز الرابعة والتسعين كما يشير في قوله^(٢١):

أُحلني كُرُّ الليالي الرُّجَع تسعين قد وصلْتُها بأربع

يذكر ابن المعتز أنَّ أشعار أبي الخطاب البهدي «كثيرة جدًا، وهو أحد العرجان، وقد ذكره الجاحظ في كتبه، وزعموا أنه بلغ من معرفته وخوف النَّاسِ بادره لسانه أنه

(١٨) ابن المعتز (طبقات الشعراء) ص: ١٣٢.

(١٩) المصدر السابق.

(٢٠) ابن الجراح (الورقة) ص: ١٢٥.

(٢١) المصدر السابق.

يبعث بعصاه إلى الأبواب في حوائجه، فلا تحجب العصا، ولا ينهنه حتى تُقضى حوائجه^(٢٢)»، غير أنّ تلك الأشعار لم تسلم كلّها من عوادي الأزمنة، فبقيت منها شذرات تناثرت بين أطواء الكتب الأدبية، منها أربع أرجوزات حفظها كتاب الورقة لابن الجراح، وكتاب طبقات ابن المعتز ومجالس ثعلب، إضافة إلى بعض القصائد والمقطعات القليلة.

أطول أراجيز أبي الخطاب البهدي أرجوزته التي يشكو فيها سوء أحواله وما ألمّ به من أسقام من جراء كبره وهرمه، إذ يقول^(٢٣):

ضجّت ولبّت في العتاب والعدّل
صخّابة ذات لسانٍ وجدلّ
لو صخّبت شهرين دأباً لم تمل
وجعلت تُكثّر من قول العلل
حُبك للباطلِ قدماً قد شغل
كسبك عن عيالنا قلتُ أجلّ
تبرُّمًا مني وعيًّا بالحيل
ويحكّ قد ضعفتُ عن ذلك العمل
ونكّس الشيخُ قفاه وسفلّ
وضعفتُ قوّته فقد دبّل
والناس قد قالوا عليك بالبصل

(٢٢) ابن المعتز (طبقات الشعراء) ص: ٢٥٥.

(٢٣) ثعلب (مجالس ثعلب) ص: ١٦٥.

وحزراً نياً و هليوناً فكل
 والبيض تحسوه وبالبيض المتل
 واقبل العصافير بزيت لا يحل
 والحبة الخضراء كلها بالعسل
 والجوز والخشخاش عنه لا تسل
 واشرب نبيذ الصرفان لا الدقل
 فقلت عزم عاجل فهل عمل
 ترضى به ذات الخضاب والخلل
 مالي وضرب القلعي ذي الخلل
 على دواء دغل من الدغل
 قد صرت أحشى أجلي قبل الأجل
 ومات أهداني الألى كنت أصل
 وصرت كالنسر الذي قيل انتقل
 فقال أفنى لبدا حتى حجل
 وأمار عنه ريشه فقد نسل
 لم يطق التسر الدهارير الأول
 أما ترين البهدي قد نحل
 وصار يمشي مشية فيها حطل
 على ثلاث أرجل فيها عصن
 واحدة في كفه من الأسل

كسرطان البحر يمشي في الوحل

لقد بنى البهدي أرجوزته هذه على مشطور الرجز، مؤثراً الليونة في تشكيلات أعاريضه، من جهة الاعتماد على الزحافات التي تؤثر في عدد الأحرف الساكنة والمتحركة في التفعيلة الواحدة، فمن هنا نراه يميل إلى الخبن وهو حذف ساكن السبب الأول كما هو الشأن في البيت الأول لتستحيل مستفعلن، المؤلف من سببين خفيفين ووتد مجموع، متفعلن. كما يميل إلى الطي وهو حذف ساكن السبب الثاني كما هو الأمر في البيت الثاني لتغدو «مستفعلن» «مفتعلن».

ومن الواضح أن البهدي في تصرفه في تشكيل تفعيلات الرجز ينحاز إلى الحركة، وهذا ما أتاحت له الزحافات حين عمد إلى الخبن والطي في مطلع أرجوزته، مما أسهم في لدونة وزن الرجز وبساطته من جراء ذلك التغيير، في حين أن إثارة السكون وتغليبها على الحركة يجعل من الرجز وعراً ثقيلاً على الأذن^(٢٤).

ومن هنا ندرك أهمية صنيع البهدي الذي طوع الرجز ليستوعب موضوعات إنسانية رقيقة، تشف عن مشاعر ذاتية مؤثرة، فكأنه في هذه الأرجوزة أطلق الرجز ليغدو مطية المشاعر بعد أن كان متناً لغوياً يكتظ بالغريب والنادر والشاذ، وهو بعدئذ وصل بين موضوعات الرجز وموضوعات القصيدة وما يخالطها من ألفاظ ميسورة وتعابير بسيطة تدنو من لغة العامة.

جعل البهدي من الأرجوزة فناً شعرياً يتسع لخطرات الوجدان وألوان التجربة الذاتية بكل أطرافها النفسية والاجتماعية، فهاهو ذا يصور حاله البائسة بعد أن ضحّت وبلّت عليه زوجته في العتاب واللوم، متهمه إياه بالتكاسل في كسب الرزق، وتوفير قوت العيال، وما كان منه إلا أن شكا ضعف بدنه وتراخي همته، بعدما نكّلت

(٢٤) القرطاجني (منهاج البلغاء) تح: الحبيب بن الخوجة ط دار الغرب ١٩٨٦ م ص: ٢٧٦.

به الآفات، فنصح له الناس ليكثر من أكل البصل والجزر واحتساء البيض وقلي العصافير بالزيت وشرب نبيذ الصرفان، والابتعاد عن تناول الجوز والحشخاش، لكي يسترد عافيته، غير أنه يعرض عن كل ذلك لمعرفته أنه شاخ وهم وصار شبيهاً ببلد آخر نسور لقمان، فبات ينتظر نهايته، إذ أوشك البلى أن يطوله.

ويختتم أرجوزته بكلام ينطوي على صورة فريدة يشخص فيها حاله بعد أن وهنت قواه وخالط الخطل مشيته فصار يمشي على ثلاث أرجل معوجة، واحدة منهن عصا يتوكأ عليها، فأضحى كسرطان البحر الذي يتحرك متثاقلاً في الوحل.

ثم نبرة ساخرة في خطاب أبي الخطاب في هذه الأرجوزة، تحيل على حال الضعف والوهن التي تلم بالإنسان وهو في أرذل العمر، فيمسي في انتظار نهايته موجع القلب باكياً، غير أنّ التراجز هنا يقدم موضوعه بألفاظ تنمُّ على سخرية واضحة ترسم ابتساماً على شفة القارئ، ولاسيما حين يذكر الأطعمة والأشربة التي زعم الزاعمون أنها تسهم في استرداد الصحة والعافية للجسم السقيم، وهو في قرارة نفسه يسخر من ذلك لأنّه أيقن أنّ الأجل مدركه، ولا دواء بعد ذلك يُرتجى.

أما أرجوزته الثانية فوصف فيها رجله العرجاء قائلاً^(٢٥):

قلتُ لرجلي وهي عرجاء الخطا
تشكو إليّ وجعاً من النساء
أو من أذى الرِّيحِ ففي الرِّيحِ الأذى
موتي وهيئاتك من أخذِ العصا
لا تطمعنَّ في الذي لا يُشتهى

(٢٥) ابن الجراح (الورقة) ص: ١٢٢، وابن المعتز (طبقات الشعراء) ص: ١٣٥.

وفي ترجيِّك الذي لا يُرتجى
 أتفضحيني بين حورٍ كالمها
 أوانسٍ مثلِ تصاوير الدُّمى
 كم بين قول الغانيات: يا فتى
 وقولهن: شاب هذا واحتنى
 وقد نظرن اليوم من قبح الجلا^(٢٦)
 جبينٍ وجهٍ وجبينًا كالقفا
 أُسرُّهُ منهنَّ كيما لا يُرى
 ولو بدا رمين رأسي بالحصا

يبني البهدي هذه الأرجوزة وفق بناء أرجوزته السابقة، فيختار المشطور من الرّجز ثم يتوسع في إشاعة الحركة معتمدًا في البيت الأول على الطي، ثم يعتمد على الخبل وهو حذف الساكن من السببين الأول والثاني من «مستفعلن» فتصبح «متعلن» في حشو البيت الثاني، ثم يعمد إلى الخبن في عروض البيت الثاني فتصبح «مستفعلن» متفعلن.

والظاهرة العروضية التي تحيل عليها هذه الأرجوزة هي ذاتها التي تحيل عليها أرجوزته السابقة، وفحواها الانحياز للحركة على حساب السكون، والغرض من ذلك كما قلنا إنما هو طلب المرونة والخفة والسهولة والرشاقة والخروج على رتبة بحر الرّجز الذي يشي في تفعيلاته السالمة بالوعورة والثقل.

ثم إنّ الموضوع هنا يوشك أن يكون الموضوع نفسه الذي تناوله في أرجوزته المذكورة الأنفة، وهو الشكوى من العلل التي أصيب بها، ولاسيما رجله العرجاء التي صاغ في كلامه عليها خطابًا ساحرًا كما صنع في أرجوزته السابقة حين سخر من

(٢٦) الجلا: هو ابتداء الصلح إذا ذهب شعر رأس المرء إلى نصفه، ينظر (الصحاح) م: جلا.

حال الضعف والوهن التي آل إليها بعد انصرام عهد الشباب.

وتجدر الإشارة أن إيثار البهدي ضرباً من الزحافات كالطي والخبن أسهم في اكتساب رجزه حيويةً وبساطةً وتنوعاً، في حين نجد أن اعتماده على الخبل في الشاهد الثاني قد جانب فيه الحسن والجودة، فال فيه إلى شيء من العسرة والعسف، إذ الخبن من الزحافات حسن كما يشير ابن عبد ربه، والطي صالح، في حين كان الخبل في الرجز قبيحاً^(٢٧).

وللبهدي أرجوزة ثالثة شكها فيها ضعفه ونحوه وتقدمه في السن يقول فيها^(٢٨):

قلّ لليالي ما أردت فاصني	إنّ الذي أبليته لم يرجع
من الشباب فأجدّي أو دعي	وأنت قد أودعت شرّ مودع
تقرّح في بدني وأضلعي	وضعف صُلبي واشتكاء أخذعي
بوجع نظيره لم أيجع	ما فيّ يا عاذل من مستمتع
أنحلي كُرّ الليالي الرّجع	تسعين قد وصلتها بأربع
ويحك كُفّي عن ملامي واربعي	وحقّ ما ألقى إليك فاسمعي
إني لو عمّرتُ عمر الأصمعي	وعمر لقمان وعمر تُبع
ونسر لقمان المهجف الأقرع	ما كان بدّ من تبوّي مضجعي
في عرض شبرين وخمس أذرع	في مضجع ساكنه لم يهجع

تتمتاز هذه الأرجوزة كسابقاتها بميلها إلى الخبن في بعض التفعيلات طلباً للخفة والرشاقة والتلقائية، كما تتمتاز بتطويعها الوزن ليتسع لخطرات الوجدان، إذ البهدي فيها لم يجز موضوع الشكوى مما صنعه الأيام في بدنه وأضلعه، والجديد فيها يتمثل بإشارته في

(٢٧) ابن عبد ربه (العقد الفريد) ط. بولاق ١٢٩٢ هـ/٤/١٦٥.

(٢٨) ابن الجراح (الورقة) ص: ١٣٤.

البيت الخامس إلى أنه جاز الرابعة والتسعين، وقد ورث من توالي أيام عمره الكبر والوهن والضعف، وهو مدرك في آخر الأمر أن الموت سيدركه ولو بلغ عمر الأصمعي أو عمر لقمان أو تبع، ويشير في البيت السابع إلى لبد آخر أنسر لقمان الحكيم متمثلاً بما يروى عن حكاية لقمان مع نسوره السبعة، وتفصيل ذلك ما عرضه اليوسي في قوله: «... وسأل لقمان أن يُعمَّر فخيَّر بين عمر سبع بقرات سمر، ومن ظباء عُفر، في جبل وعر، لا يمسه القطر، وبين سبعة أنسر، كلما هلك نسر خلف بعده نسر، فاختر التَّسور، فكان يأخذ فرخ النَّسر من البيضة فيغذيه حتى إذا هلك أخذ آخر، حتى بلغ السابع وهو لبد فكان يغذيه حتى هرم ولم يستطع النهوض فأيقن حينئذ لقمان بالموت^(٢٩)». لقد تمثل البهدي بلبد أيضاً في أرجوزته السابقة التي ذكر فيها:

وصرت كالنسر الذي قيل انتقل

فقال أفنى لبدًا حتى حجل

وفي ذلك دلالة على أنه قد عمَّر طويلاً، فكان مثله مثل آخر أنسر لقمان لبد الذي أدركه الأجل بعد طول بقاء.

وللبهدي أرجوزة رابعة وصف فيها خروفاً أهدي إليه فقال^(٣٠):

أهدى إلينا معمرٌ خروفاً كان زماناً عنده مكتوفاً

حتى إذا صار مستجيفاً أهدى فأهدى قصباً ملفوفاً

جلجل جلدًا فوقه وصوفاً وكان من فعاله موصوفاً

وبجانب هذه الأراجيز الأربع رويت للبهدي أبيات مفردة في الرجز كقوله في

(٢٩) اليوسي (زهر الأكم) تح: محمد حجي ومحمد الأخضر الدار البيضاء ١٩٨١م ص: ٣٢٤.

(٣٠) ابن الجراح (الورقة) ص: ١٢١.

الحسن بن سهل^(٣١):

قمعت كل ناكث مفتون بالصالح لما صرت كالبنين

فنّ الأرجوزة:

بالنظر إلى قولة ابن المعتز المتقدمة التي ذكر فيها أنّ البهدي من المكثرين، نتنبه على أنّ أشعار الرجل التي نعتها ابن المعتز بالكثرة قد فنيت ولم يبق منها سوى ما أشرنا إليه وعدّها أربع أرجوزات انطوت عليها بعض المصادر، وأكبر الظنّ أنّ هنالك أحياناً من أرجوزته ماثورة في مصادر لم نستطع الاهتمام إليها، ذلك لأنّ غايتنا ليست استقصاء أرجوز الرجل بقدر ما أردنا بيان أهمية ما وقعنا عليه منها، لأنّ تلك الآثار القليلة بحق تنطوي على مؤشرات فنية بالغة الأهمية، يمكن أن تضاف إلى جهود الرّجاز الذين طوروا هذا الفنّ حتّى أو شك أن يضاهاه القصيد في العصر العباسي خاصة، ويمكن إيجاز تلك السمات التي تحلت بها أرجوز البهدي بما يأتي:

أ- أراد البهدي تطويع وزن الرّجز بما أتيح له من التصرف في نغمات هذا البحر الذي كان يعدّ سهل الرّكوب، صافياً، رتيباً، ثقيلاً وفيه عسرة لا تستريح له الأسماع إذا استعمل سالماً من الرّحاف، ومن هنا وجد البهدي متنفساً في الرّحافات المقبولة كالخبز والطي كما أشرنا سابقاً، وهذا لم يعصمه بطبيعة الحال من الوقوع فيما هو مستكره في باب الرّحاف، ولا سيما حين استعمل الخبل في بعض أعاريض الرّجز، وكان يرمي من ذلك إلى السهولة والتنوع والانزياح عن الوضع الطبيعي لوزن الرّجز فوفق أحياناً وأخفق أحياناً، وهو في الحالتين أراد أن يعبر عن خلاصة تجربة فنية وجدت في الرّجز مجالاً رحباً للتعبير عن تفردّها، ولولا ذلك لما اعتور هذا الوزن مرات عدة، حفظت لنا الكتب شذرات من أرجوزته تلك.

(٣١) السابق ص: ١٢٥.

ب - قدّم البهدي جديدًا في أراجيزه على نطاق اللُّغة، إذ وجدناه يستعمل لغة ميسورة طليقة بريئة من العنت، رحبة لا ضيق فيها، ولا تشوبها ما كانت تشوب الأراجيز من الألفاظ الغريبة والكلمات المهجورة، فخلّص بذلك الرّجز من الصعوبة والحشونة، وقربه من ذوق العامة، فبرزت فيه رقة الحضارة، ونعومة لغة أهل المدينة من دون ابتذال أو لحن.

ج- كان رجز أبي الخطاب يتسع للموضوعات الذاتية ولاسيما الشكوى التي شغلت أراجيزه عامة، حتّى لكأنّ هذا الغرض استنفد كلّ طاقاته الشّعريّة، فوجد في الرّجز مضمناً ليكثر الكلام على أحواله، فاستنكر انقضاء عهد شبابه وفتوته، وسخر من شيخوخته وعجزه وضعفه.

د - يمتاز خطاب البهدي في أراجيزه عامة بالسخرية المريرة، فهو يجسد الضعف الإنساني بأسلوب فيه شيء من الاستخفاف، مما يدعو إلى الإضحاك في بعض الأحيان، فهو يهزأ برجله العرجاء تارة، ويشير الاستخفاف بجسده المثقل بالأسقام، فصور نفسه وهو يتوكأ على أرجل ثلاث واحدة منها عصا على هيئة سرطان بحري يغوص في أرض موحلة. وهذه المرارة تحيل على إحساس مؤثر لم تعتد الأراجيز حمله، ذلك لأنّها كانت في أغلب نماذجها أشبه بمتون لغوية يضيق بها القارئ، وينتفي معها الشعور الإنساني المشرق.

هـ - ثمة ألوان ثقافية تتألأ في بعض أراجيز أبي الخطاب عمادها التمثيل، ولاسيما حين عرّض بمرمه وهزال بدنه، فمثّل لحاله تارة بلبد وتارة بالأصمعي ومرة ثالثة بتبع، وهو في الحالات جميعاً يستفيد من المخزون الثقافي للأمثال العربية التي تحيل على ضرب من المشابهة بين خصوصية المثل وما يمكن أن ينطبق على حاله وحال كلّ حي قطع حياته من دون أن يجد في طول البقاء ما يُشعّر بالملل، ومع ذلك لم يجد بُدًا إزاء

الشُّعور القاهر بدنو الأجل من أن يتكلم على ذكره في الوجود، محاولاً تسجيل ما يجول به خاطر من أمر الخلود الذي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال الفن، فكانت أراجيزه سجلاً حافلاً بالشعور الآدمي في ندب المصير.

و- من أجل ذلك كلّه يمكن أن نقول إنّ البهولي قد فتح أبواب الرّجز على الحياة الإنسانية، ليتسع لدقائق الشعور الآدمي القَلْبِ إزاء المصير، فهو من هذه الناحية جعل الأرحوزة فنّاً شعريّاً شعوريّاً بحقّ، وقد تعاضم أثر صنيعه في الشعراء الذين جاؤوا من بعده، فأضحى صاحب مذهب في الرّجز عماده الحياة الإنسانية بكلّ ظلالها وتفصيلاتها.

قصيدة أبي الخطاب في مدح الهادي:

كانت سيرة شعر أبي الخطاب كسيرة أراجيزه التي فنيت في معظمها ولم يبق منها إلا القليل، وربما كانت أراجيزه أوفر حظاً في البقاء من أشعاره التي هوت في جوف الزّمان فلم يبق منها إلا قصيدة واحدة طويلة، وهي قصيدته الرائية العظيمة، وبعض الأبيات المفردة التي ترويهها المصادر، ومن الغريب أنّ البهولي الذي آثر السهولة والبساطة والتلقائية في أراجيزه، ركب في فنّ القصيد مركباً بدويّاً وعراً، فكانت رائيته التي نتكلم عليها لا تختلف عن قصائد الجاهليين لا في لغتها ولا في مضمونها، ولولا أنّها في مديح موسى الهادي لخال المرء أنّها من أشعار الجاهليين، لا يخامر أدنى شك في ذلك، ومع ذلك فقد حازت القصيدة الرائية الفريدة جمالاً باهرًا وروعة متناهية، سواء أكان ذلك في اكتمال موضوعها أم في بهاء تصاويرها وفي جزالة لغتها وقوة تراكيبها، وقد روى ابن المعتز حكايتها التي تشبه حكايات روائع الشُّعر العربي في تاريخه المختلف.

يقول ابن المعتز: «حدثني أبو موسى سعيد بن مسلم عن أبيه قال: كان موسى الهادي لا يأذن لأحدٍ من الشعراء مدة أيام خلافته، ولا يرغب في الشُّعر، ولا يلتفت

إليه، وقد اتهمك في الشراب والقصف، وكان مشغوقاً بالسَّماع فلما قال أبو الخطاب رائيته سألتني فأوصلتها إليه فلما سمعها أُعجب بها إعجاباً شديداً، وقال للحاجب اخرج إلى الباب فمُر من ينادي أين نصابة الأسد؟ فلما سمع أبو الخطاب ذلك علم أنّ شعره قد وصل وعمل عمله، والشُّعراء مجتمعون، فقال: هأنذا، وأخذ الحاجب بيده وأدخله البيت، فقال: هات أنشدنا، فأنشده قصيدته الرائية فاستحسنها موسى وأمر في ذلك اليوم ألا يحجب عنه شاعر، وأن يعلموا أنّ أبا الخطاب كان السبب في ذلك^(٣٢)».

ومهما يكن من أمر هذه الحكاية التي تصور عظم أثر القصيدة في نفس الخليفة الهادي، إذ عطفته إلى سماع الشُّعر بعد أن عكف على القصف واللهو، فإنَّها في واقع الأمر من عيون الشُّعر العربي ولا مرأى في ذلك، وقد انطوت على أبلغ قيم الفن الشُّعري العربي التي وسمت بها أرقى نماذجه منذ سالف الأزمنة، يقول البهدي في مديح الهادي^(٣٣) من البسيط:

- | | |
|-------------------------------|--|
| ١- ماذا يهيجك من دارٍ بمحنيةٍ | كالبرد غير منها الجدة العُصُرُ |
| ٢- عفت معارفها ريح تنسّفها | حتى كأن بقايا رسمها سطرُ |
| ٣- أزرى بجدتها بعدي وغيرها | هوج الرياح التي تغدو وتبتكر |
| ٤- دار لواضح الخدين ناعمة | غرثى الوشاح لها في دلها خفّر ^(٣٤) |
| ٥- كأها ذرة أغلى التجار بما | مكونة ربحوا فيها وما خسروا |
| ٦- قل للخليفة موسى إن نائله | جزل هني وما في سيبه كدر |
| ٧- متوج بالهدى بالحمد ملتحف | مُسرِباً بالندى بالجد متزر |

(٣٢) ابن المعتز (طبقات الشعراء) ص: ١٣٣.

(٣٣) المصدر السابق.

(٣٤) غرثى: يقال هو غرثان أي جوعان، ومن المجاز: امرأة غرثى الوشاح كناية عن نحوها.

- ٨- موسى الذي بَدَلَ المعروفِ يُنْهِيهِ
 ٩- أَشْمُ تَمِيهِ آبَاءُ جِحَاحَةٍ
 ١٠- لَنْ يُؤْمِنَ النَّاسُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا أَبَدًا
 ١١- لَا يَكْسُرُ النَّاسُ مَا شَدَّوْا
 ١٢- أَنْتَ الدَّعَامَةُ يَا مُوسَى إِذَا احْتَدَمْتُ
 ١٣- وَإِنْ غَضِبْتَ فَمَا فِي النَّاسِ مِنْ بَشَرٍ
 ١٤- مَا مُخْدِرٌ خَدِرٌ مُسْتَأْسِدٌ أَسَدٌ
 ١٥- غَضَنْفَرٌ غَضَفٌ قِرْضَابَةٌ ثَقِفٌ
 ١٦- ذُو بُرْتُنٍ شَرَتْ صَحْمٌ مُزَوْرَةٌ
 ١٧- جَابُ الشَّرَاسِفِ رَحْبُ الْجَوْفِ مُفْتَرِسٌ
 ١٨- عَفْرَسٌ أَهْرَتْ الشَّدَقِينَ ذُو حَنْقٍ
 ١٩- جَهْمٌ الْمِحْيَا هُمُوسٌ لَا يُنْهِيهِ
 ٢٠- فِي خَطْمِهِ خَسَسٌ فِي أَنْفِهِ فَطَسٌ
- فِي النَّاسِ فَالْجُودُ مِنْ كَفِيهِ يَنْهَمِرُ
 شَمُّ الْأَنْوْفِ عَلَى مَا نَاجِمٌ صَبَرُوا^(٣٥)
 وَاللَّهُ يُؤْمِنُ مَنْ آوَا وَمَنْ نَصَرُوا
 وَلَيْسَ يُجَبِّرُ طَوَّلَ الدَّهْرِ مَنْ كَسَرُوا
 نِيرَانُهَا وَحِمَاةُ الْحَرْبِ تَجْتَنِزُ
 إِلَّا عَلَى خَطَرٍ مَا مِثْلُهُ خَطَرُ
 ضَبَارِمٍ خَادِرٌ ذُو صَوْلَةٍ زَيْرٌ^(٣٦)
 مُسْتَرَعِبٌ لِقُلُوبِ النَّاسِ مُصْطَبِرٌ^(٣٧)
 خُبَعَثُنُ الْخَلْقِ فِي أَحْلَاقِهِ زَعَرٌ^(٣٨)
 عِنْدَ التَّجَاوُلِ لِلْأَقْرَانِ مُهْتَصِرٌ^(٣٩)
 لِلْقَرْنِ عِنْدَ لِقَا الْأَقْرَانِ مُفْتَسِرٌ^(٤٠)
 صَوْتُ الرَّجَالِ وَلَا لِلزَّجْرَيْنِ زَجْرٌ^(٤١)
 كَأَنَّهَا وَجْهَةٌ مِنْ هَضْبَةِ حَجْرٍ^(٤٢)

(٣٥) جِحَاحَةٌ: جمع مفرد لها جِحَاح وهو السيد الذي يسارع إلى المكرمات.

(٣٦) يقال: خدر الأسد في عرين هو أخدر. ضبارم: أسد ضبارم وضبارمة وزئر الأسد فهو زئر.

(٣٧) الغضنفر: الأسد غضف: الأغضف الأسد قرضابة: من صفات الأسد.

(٣٨) ذو برتن: البرتن من السباع بمنزلة الأصابع من الإنسان. الشرث: الغلظ في الكف والرجل

وانشقاقهما.

(٣٩) جَابُ الشَّرَاسِفِ: الجأب الصلب والشراسف مقاطع الأضلاع مهتصر: يقال هصر الأسد

الفريسة فهو هصور.

(٤٠) أهرت الشدقين: الهريت واسع الشدقين، وأسد أهرت بين الهرت.

- ٢١- ذو آلة قيسري حين يبرزه
عَشْمَشَمِيّ فلا يُبقي ولا يَدْرُ^(٤٣)
- ٢٢- ببالغٍ عَشْرٍ عَشْرٍ من شجاعته
إذا تنازلت الأبطال واشتجروا
- ٢٣- بل أنت أجرأ منه في تقدّمه
وأنت أقدم منه حين يجتئُر
- ٢٤- بل لو يلاقيك أضحي الليل من فَرَقٍ
وخيفة منك لاقى يومه القدر
- ٢٥- يا خير من عقدت كفاه حُجْرَتُهُ
وخير من قلدته أمرها مضر
- ٢٦- إلا النبي رسول الله أن له
فضلاً وأنت بذاك الفضل تفتخر

يتمثل البهدي في رائعته هذه أهم قضايا الفنّ الجاهلي على مستويات عدة ومن النواحي كافة، فمن جهة الشكل ترسّم خطأ الجاهليين في بناء المدحة، فإذا به يبدوها كما بدأ الجاهليون قصائدهم واقفاً على الطلل كما وقفوا، لا يحجبه عنه زمن باعد بين الصفة والموصوف، لا بل إنه يدنو من أساليب الجاهليين في مخاطبة الرّسوم، فيبدأ بالسؤال كما بدأ السابقون، متعجباً من فؤاد يهوي إلى تلك الرّبوع ليعيد إلى الذاكرة قصة حب انصرمت، والواقع أنّه لا يسترجع في أثناء ذلك الوقوف إلا سيرة فنّ انبثق من صميم الرّسوم، فحينه إلى الطلل حنين إلى الشاعرية الغدّة التي ولدت في مخاض الطلل الذي انطلقت منه القصيدة العربية على لسان امرئ القيس وزهير والنابغة وغيرهم ممن خط أصول الشعر العربي.

إنّ الحنين الذي استولى على وجدان رجل كالبهدي حنين كامن في قلب القصيدة، غير أنّ محفزات استدعائه في عصر كالعصر العباسي لا تعدو كونها ذريعة ليستعيد الفنّ العربي سيرته الأولى على ألسنة شعراء ما كان لديهم من وسيلة سوى

(٤١) الهموس: الأسد.

(٤٢) الفطسة: الشفة من الإنسان ومن ذوات الخف: المشفر ومن السباع: الحطم.

(٤٣) القيسري: الضخم المنيع والقسورة: الأسد الغشمشمي: الجريء.

الاعتماد على زاد الأوائل الذين خطّوا نهج شعرهم منطلقين من الطلل.

وكما تسخط الجاهليون الزّمان في فواتحهم الطللية، ذلك لأنّ الزّمان هو الذي أبلى الديار، تسخط البهدي الزّمن في فاتحة قصيدته، فإذا بالعُصْرُ تغيرها وتحيلها رسمًا رثًا كثنوبٍ عتيقٍ بالٍ، وكذا الرّياح نسيّتها معلقةً بين الوجود والعدم، تطمسها تارةً وتكشفها تارةً أخرى فلا يبين منها سوى رسم أشبه السطور.

هذه أطلال البهدي، فما من سبب كان يشده إليها لولا أنّها كانت مسكنًا لامرأة جميلة ناعمة نحيلة مدللة أشبهت درة مكنونة ثمينة، وهنا ينغلق الكلام على الطلل من دون أن يمهد البهدي لموضوع المدح، تمامًا كما كان يفعل الجاهليون الذين لم يحفلوا بطرق الانتقال من موضوع لآخر في القصيدة، وهذا مؤثر قوي على إمعان البهدي في ترسمه خطوات الجاهليين، متجنبًا صنيع المحدثين الذين عملوا في مدائحهم على وصل أجزاء القصيدة.

وفي موضوع المدح يركب البهدي مركبًا خشنًا في إخراج ألفاظه ومعانيه، فإذا بمدحيه يضارع مديح الجاهليين، من حيث وعورة اللّغة وغرابة المعاني وقوة النسيج وبلاغة التعبير، وتكاد أبيات قصيدته من ب ١٤ - ب ٢١ تضاهي في لغتها ومعانيها أعظم ما جاء به شعراء العربية من قوة العبارة وتماسك النسيج وفراة الأوصاف في باب المديح، إذ التقط البهدي في تلك الأبيات من الألفاظ العسيرة والعبارات القوية ما يجعل قصيدته هذه تحوز كامل نعوت التفرد في باب المديح.

أمعن البهدي في أسماء الأسد وصفاته في هذه القصيدة، حتّى أوشك أن يُخرج ممدوحه على مثال الأسد وأسمائه وصفاته ومواضعه وطباعه كافة، لا يخالفه في شيء سوى أنّه خليفة جمع في شخصه سيماء الرّجولة وخصال النبل وطباع الأشداء، والمرء يعجب أشد العجب من تركيز البهدي على نعوت الأسد في هذه القصيدة، لتكون

تلك الصفات التي خلعتها بكمال لا يجد ما يضاهيه في القصيد على الإطلاق مزية لأبي الخطاب يعرف بها إلا قول الهادي: أين نسابة الأسد، فمن شدة احتفاله بالنسبة إلى الأسد نسب هو الآخر للأسد فصار معروفًا بذلك، وعلى وجه من الدقة المتناهية يتيسر القول: ما من شاعر أمعن في خلع صفات الأسد وأسمائه على ممدوح كما صنع البهدي، والقصيدة تستحيل لهذا السبب متناً لغوياً أو رسالة لغوية انطوت على أغلب أسماء الأسد وصفاته، كالذي نقرأه في الأبيات المشار إليها آنفاً في قوله: ضبارم، غضنفر، غضف، قرضابة، عفرنس، هموس، قسور، يضاف إلى ذلك إمعانه في ذكر صفات الأسد كقوله: شرث، ذو برثن، أهرت الشدقين، جأب الشراسيف، مهتصر ...

والسؤال المهم أين موسى الهادي من تلك الأسماء والصفات التي أطلقها البهدي عليه؟

هل كان جريئاً في فعله، ومخيفاً في صورته، وذا هيبة وهيئة تجسدان صورة الأسد حقاً؟

يُذكر أنّ موسى بن محمد الهادي قد ولد بالري سنة سبع وأربعين ومئة للهجرة، وتوفي مسموماً سنة سبعين ومئة للهجرة وله خمس وعشرون سنة، ولم تدم له الخلافة سوى سنة وشهر واحد وعشرين يوماً، ويقال إنّ أمه الخيزران قد سمته لأتته طالب أخاه الرّشيد بخلع نفسه عن ولاية العهد وتقديم ولده^(٤٤)، ويذكر أنّ موسى كان أبيض جسيماً طويلاً شجاعاً بطلاً جواداً صعب المرام ولا يقيم أهبة للخلافة تعلقه هيبة وله سطوة^(٤٥).

(٤٤) ابن شاعر الكتبي (الوفاي بالوفيات) تح: د. إحسان عباس ط بيروت ١٩٧٣م ص: ٤-١٦٧.

(٤٥) المصدر السابق.

ويقال إنّ موسى كان أسمح بني العباس بالمال، إذ أعطى سلماً الخاسر مئة ألف درهم، ولم يفقه خليفة في كثرة البذل، كما كان شجاعاً لا يهاب الموت، ويحكى أنّه كان «في بستان له يتفرج وهو راكب على حماره ولا سلاح معه، وبحضرته جماعة من خواصه وأهل بيته، فدخل عليه حاجبه وأخبره أنّ بالباب بعض الخوارج له بأس ومكايد، وقد ظفر به بعض القواد، فأمر الهادي بإدخاله فدخل عليه بين رجلين قبضا على يديه، فلما أبصر الخارجي الهادي جذب يديه من الرجلين، واختطف سيف أحدهما، وقصد الهادي، ففر كلّ من حوله، وبقي وحده، وهو ثابت على حماره، حتّى إذا ما دنا الخارجي وهم أن يعلوه بالسيف، أوماً إلى الخارجي وأوهمه أنّ غلاماً وراءه، والتفت الخارجي فنزل الهادي مسرعاً عن حماره فقبض على عنق الخارجي وذبحه بالسيف الذي كان معه ... وأتباع الهادي ينظرون إليه وقد ثلثوا ربعاً فما عاتبهم ولا خاطبهم في ذلك بكلمة، ولم يفارق السلاح بعد ذلك اليوم، ولم يركب إلا جواداً»^(٤٦).

ومن الواضح أنّ ثمة مطابقتاً واضحة بين الصفات والموصوف، إذ تؤيد سيرة الهادي وطباعة ما جرت عليه أغلب الصفات التي أسندها إليه البهدي، فهو نادر الكرم ونادر الشجاعة، وهو من ثم أشبه بالأسد خلُقاً وشجاعةً، والخبر الذي ساقه الإتيدي يدل على أنّه كان جسوراً وفيه غلظة، وقد وردت إشارة إلى هذه الصفة في ب١٩ في قوله: (جهم الحيا)، وفي ب٢٠ قوله: (كأتما وجهه حجر)، ومثل هذه الصفة يندر وقوعها في المدح، إذ لم نقع فيما اطلعنا عليه في أوصاف الملوك أنّ شاعراً في تاريخ العربية يشبه وجه ممدوحه بالحجر، ولو لم يكن الممدوح بهذه الصلابة وتلك القسوة لما ذكر البهدي هذه الصفة في موضع المديح، من أجل ذلك كانت كثرة

(٤٦) الإتيدي (إعلام الناس بما وقع للبرامكة) طبع بمصر ١٢٧٩هـ ص: ٧٩.

الصفات التي استعارها الشاعر من الأسد ثم أسندها لممدوحه تشبي بالمطابقة، ومن ثم تحيل على تركيزه على القوة التي كان يتحلى بها ممدوحه، وقد أراد من كل ذلك أن يُبرز فيه صفة البطولة التي رآها في هذه القصيدة جارية على صفة الأسد بمختلف هيئاته وأسمائه وطبائعه، وقد قيل إن الهادي كان بطلاً من أبطال بني العباس، وقد دلنا على ذلك قول المتقدمين، أنه كان بطلاً حازماً له سطوة، كما كان أهوج في كرمه، فهو أول من أعطى للشعراء مئة ألف درهم، وكان حظي بهذه الأعطية سلم الخاسر^(٤٧)، عزوفه عن الشعر والشعراء، والمفارقة أن قصيدة أبي الخطاب التي صرفته عن سننه الماضية وأعادته إلى سماع الشعر لم تظفر إلا بعشرة آلاف درهم^(٤٨)، ومع ذلك فقد تفوقت على كثير من المدائح التي خصصها الشعراء للهادي، ومن عجب أن تغفل المصادر عن ذكرها والاحتفال بها، والواقع أنها فريدة في باب المدح مع تشعب هذا الباب الذي أوشك أن يذهب بأغلب شعر العرب.

من الصعوبة بمكان أن يظفر شاعر ما بمزية في المدح، لكثرة ما قيل في هذا الباب، ونرجح أن يكون البهدي من محترفي هذا الفن في القرن الثالث، بسبب قصيدته الرائية التي بسطنا القول فيها آنفاً، ولم يعرف الشعر العباسي من بين روائعه المختلفة قصيدة رائعة كهذه القصيدة، سوى قصيدة مسلم بن الوليد في مديح يزيد بن يزيد الشيباني التي أولها:

أجررت جبل خليع في الصبا غزِل
وشمرت همم العدال في العذل

ومنها:

(٤٧) ابن شاعر الكتبي (الوافي بالوفيات) ١٦٧/٤ .

(٤٨) ابن المعتز (طبقات الشعراء) ص: ٣١٤ .

حذارٍ من أسدٍ ضرغامٍ بطلٍ لا يُولغ السيفَ إلا مهجة البطل
موفٍ على مُهَجٍ في يومٍ ذي رهجٍ كأنه أجلٌ يسعى إلى أملٍ

وهذه القصيدة كما يقول العسكري أجود ما قيل في وصف الفتى الشجاع في شعر المحدثين^(٤٩). وجهة الشبه بين القصيدتين قوة النسخ ومتانة الصياغة وجزالة الألفاظ ووعورتها، حتى لكأن القصيدتين قدتا من صخر، إذ ركب الشاعران مع أهما من المحدثين مركبًا وعرًا في مديحهما، غير أن قصيدة البهدي في الجزء الخاص بالمدح تذهب مذهبًا أكثر مشقة في الأسلوب من قصيدة مسلم بن الوليد، ولا سيما تركيزها الشديد على صفة الآساد، واحتفالها الكبير بالألفاظ البدوية التي تدل وكأن صاحبها قد خرج لتوه من جوف البادية.

وفحوى القول: كان لا بُد لهذا الفصل أن يسجل رأيًا في أراجيز البهدي وقصائده على قلة ما انتهى إلينا من هذين الضربين الشعريين، وهو رأي نوجزه بأن الرجل أجاد في رجزه وقصيده على حدّ سواء، وكان قد تفرد في البابين على قلة من تفرد فيهما في العصر الذي عاش فيه، وقد أُلحنا إلى أهمّ مزية حصلها النّظر النقدي في آثاره، ونعيدها هنا للتأكيد ليس غير، وهي أنّه سلك أسلوبًا مغايرًا في أراجيزه لأسلوب أعلام الرّجز، إذ كان الرّجاز يتنكبون الوعورة اللّغوية، فأكثرُوا من الغريب والمهجور من الألفاظ حتى استحالت أراجيزهم ولاسيما عند رؤبة وأبيه العجاج متونًا من متون اللّغة، في حين تجنب البهدي الوعورة ليمهد أمام أراجيزه سبيل السهولة والبساطة والتلقائية محاولاً الاعتماد على الزحافات المقبولة ليجوز كلّ حاجز بين أراجيزه والمستمعين، فإذا بتلك الأراجيز تترى حلوة عذبة خفيفة مترعة بالأحاسيس

(٤٩) العسكري (ديوان المعاني) طبع بمصر ١٣٢٤ هـ ١٢٣/٢.

والمشاعر الإنسانية الخالدة، أما قصائده فقد أراد أن يخرجها أعرابية خشنة لما لهذا الأسلوب من قوة وريانة تناسب صفة ممدوحيه، ولاسيما الهادي الذي تنازعت صفات القوة والشجاعة والرغبة والبطولة والكرم.

البنية الجمالية للتشبيه في معلقة امرئ القيس

د. خلدون سعيد صبح (*)

١ - مقدمة:

تأتي أهمية هذا البحث من كونه يريد البرهنة على مقولة مفادها أنّ أهم ما يميّز تجربة الشاعر امرئ القيس، هي الوعي الفني في تشكيل التشبيه في القصيدة تشكيلاً تأسيسياً جديداً، جعله رائد هذا الفن في القصيدة العربية. ومن هنا امتازت بنية التشبيه بجمالية خاصة ميزته عن غيره من الشعراء، ولا سيما المهلهل الذي شاركه في التجربة الحياتية. فكلا الشاعرين عانى الفقد الذي حرّك شعرية التجربة وزاد أوراها وحرارتها مما يجعل من المقابلة بينهما مدخلاً كاشفاً لأهمية التشبيه عند امرئ القيس وإظهاراً لمميزاته، وهذه الفكرة هي ما يرجو البحث أن يحققها.

٢ - المكانة الفنية لامرئ القيس:

ربما في استعراض ما قيل في امرئ القيس ما يعزز هدفنا، وهو البرهنة على ريادته الفنية في إعطاء التشبيه ألقه الخاص المميز، القائم على الوعي الفني الذي يعني، فيما يعنيه، كشف ما تنطوي عليه الأشياء من شعرية وإظهارها بطريقة فنية واعية، «فالأشياء ليست شعرية إلا بالقوة ولا تصبح شعرية بالفعل إلا بفضل اللغة، فبمجرد

(*) عضو الهيئة التدريسية في كلية الآداب بجامعة حمص.

ما يتحوّل الواقع إلى كلام يضع مصيره الجمالي بين يدي اللغة»^(١). ومن هنا يمكن القول: إن قوانين الواقع ستخضع لقوانين اللغة التي تمثل قوانين الوعي، ولا سيما إذا انطلقنا من فهم أن الشعر العربي في غالبه وصف، أي استقراء فني للواقع، وهذا ما يؤكده ابن رشيق في العمدة عندما يقول: إنّ «الشعر إلّا أقله راجع إلى باب الوصف، وهو مناسب للتشبيه مشتمل عليه»^(٢). فالوصف هو إدراك جمالي للواقع ويكوّن الأساس لفنون الشعر العربي، إذ إنّ ماهيتها المعرفية وينابيعها الأساسية تتغذى منه.

إنّ التشبيه يكوّن الأساس المعرفي للجاهلي في إدراك ماهيات العالم المحيط به. ومن هنا كلما ازداد وعي الجاهلي للأشياء المحيطة به ولما هيأتها، أبدع تشبيهات معقدة فنيًا بعيدة عن السطحية، وهذا ما ميّز البنية التشبيهية عند امرئ القيس. ومن هنا كان تركيز النقاد القدامى على أهمية الوصف في تشكيل الوعي الفني، يقول ابن رشيق: «وأحسن الوصف ما نُعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانًا للسامع»^(٣).

فالوصف أساس في تشكيل الوعي الفني، وإدراك آلياته وتقنياته هي البؤرة في تشكل الوعي المتقن الذي يختلف عن الوعي الفطري للأشياء وهذا ما كان يميّز الوعي عند امرئ القيس عنه عند المهلهل - كما سنرى - والتشبيه في أساسه اللغوي هو التمثيل^(٤)، لذا فهو يستند إلى أساس وصفي للواقع قائم على التسوية بين طرفي تشبيه

(١) بنية اللغة الشعرية: جان كوهين: ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، الدار البيضاء، ١٩٨٦، ص ٣٧.

(٢) العمدة في محاسن الشعر: ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد دار الجيل للنشر، بيروت، ط ٤، ١٩٧٢، ج ٢/١٩٧.

(٣) المرجع نفسه: ٢ / ٢٩٤.

(٤) انظر مادة (شبه) في لسان العرب.

مختلفين أو متفقين، أو مقارنة المشبه بالمشبه به، ومن هنا فالتشبيه - كما يرى هلال الجهاد - هو «منهج لتنمية المعرفة بالأشياء يقوم على الربط بين الجزئيات ومنحها طابعاً كلياً، لأن التعليق المستمر يؤدي إلى الوصول إلى كل ما هو كلي من المعرفة متظاهراً في الجزئي»^(٥).

وبناءً على ذلك فالتشبيه قياس، على حد تعبير الجرجاني^(٦) - والقياس هو طريق أساسي لتشكيل الوعي الفني. ومن هنا لا غرابة أن نؤكد أن الوعي البلاغي العربي هو وعي تشبيهي وهذا ما يؤكده المبرد بقوله: إن التشبيه أكثر كلام العرب^(٧).

والسبب في ذلك كما يؤكد أحد الباحثين عائد إلى أنه أسلوبهم الأساسي الذي يقوم معرفتهم الجمالية وينميها ويحققها في واقعهم، وهو طابع وعيهم بذاتهم وبمعالمهم، وهو منطقتهم في الاستدلال على الفرع المجهول البعيد الغائب، بالأصل والمعروف والقريب والشاهد، قياساً وتمثيلاً وتشكيلاً جمالياً، وكلما كان هذا الاستدلال محكماً وكانت المعرفة التي يقدمها أكثر ضبطاً ودقة وغرابة، كانت أكثر شعرية ومن هنا قيل إن التشبيه «أشرف كلام العرب»^(٨).

وقد حدد أبو هلال العسكري القيمة الجمالية للتشبيه بأربعة أوجه هي:

«إخراج ما لا تقع عليه الحاسة على ما تقع عليه، وإخراج ما لم تجر به العادة إلى

(٥) جماليات الشعر العربي: هلال الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٢٠٠.

(٦) أسرار البلاغة في علم البيان: عبد القاهر الجرجاني، صححه وعلق عليه محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية، بيروت، ص ١٥.

(٧) الكامل في اللغة والأدب: أبو العباس المبرد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وسيد شحاته، دار نضضة مصر، القاهرة: ٩٣/٣.

(٨) جماليات التشبيه: هلال الحماد، ص ٢٠١.

ما جرت عليه، وإخراج ما لا يعرف بالبدیهة العقلية إلى ما يعرف بها عن طريق التمثيل، وإخراج ما لا قوة له في الصفة على ما له قوة فيها»^(٩).

جمال التشبيه يأتي من خلق الائتلاف بين الأطراف المختلفة. ومن هنا جعل الجرجاني صنعة التشبيه مرتبطة بجودة القريحة وبوعي الشاعر الجمالي عندما قال عن صنعة التشبيه أهما: «تستدعي جودة القريحة والحذق الذي يلفظ ويدق في أن يجمع أعناق المتنافرات المتباينات في رقة، ويعقد بين الأجنيات معاقد نسب وشبكة...»^(١٠).

وبالعودة إلى امرئ القيس نلاحظ أن براعته في القياس وإيجاد العلاقات بين أطراف التشبيه هما ما أعطى التشبيه لديه عمقاً معرفياً ميزه عن غيره، وهذا ما يؤكد النقاد الذين درسوا شعره، فقد وصل التشبيه إلى مرحلة النضح الفني على يدي هذا الشاعر، وهذا ما جعل ابن رشيق يرى أن هذا الشاعر قد «خسف للشعراء عين الشعر»^(١١)، وهو ما جعل صاحب الطبقات يقول فيه إنه: «سبق الناس إلى أشياء ابتدعها استحسناها العرب واتبعه فيها الشعراء»^(١٢)، بل إن أبا القاسم الأمدي ذهب إلى أنه مؤسس الأساس، إذ كانت الأشعار قبله ساذجة وعفوية، وكانوا يقولون أسيلة الخد حتى قال أسيلة مجرى الدمع، وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال

(٩) كتاب الصناعتين: أبو الهلال العسكري، تح: محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل،

دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٢، ص: ٢٤٠-٢٤٢.

(١٠) أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ص: ١٢٧.

(١١) العمدة: ابن رشيق، ١/ ٩٤.

(١٢) طبقات فحول الشعراء: ابن سلام الجمحي، تح: محمود محمد شاكر - مطبعة

المدني، جدة، ١/ ٢٧.

والظلم حتى قال قيد الأوابد وامتلته الناس..^(١٣).

ولعلنا نلاحظ أن معيار الأفضلية يكمن في الناحية الفنية، أي تخلي الشاعر عن المؤلف والبسيط من التشبيهات، والانتقال إلى التشبيه المعقد العميق الذي ينم على إدراك عالٍ لماهيات الأشياء، وهو ما فات كثيراً من الشعراء من معاصريه الذين انحازوا غالباً إلى الفطرة والعفوية.

لذلك يعد امرؤ القيس من أوائل الشعراء الذين أبدعوا في التشبيه في شعرهم، والتشبيه غرضه الدائب هو عرض الصورة بأفضل ما يمكن أن يتصوره المستمع، وقديماً قالوا: «ما راءٍ كَمَن سَمِع». لأنَّ الرؤية تحقِّق الصورة المحسوسة والمنظورة، بينما السماع فلا يحقِّق تلك الرؤية؛ لأنَّه ينقل المجرّد إلى المحسوس، والذهني إلى الحسي.

وغرضنا في هذا البحث ليس التعويل على ما بحثه القدماء، في تشبيهات امرئ القيس - على روعتها - فقط، وإنما البحث في تشكيلات التشبيه، وجماليّات الألفاظ التي قام بتركيبها أثناء بناء تشبيهه في حديثه عن الديار، أو الأطلال، أو الفرس، أو الليل في معلقته.

وقد ذكر ابن سلام بعضاً من مميّزات شعر امرئ القيس، وهو بصدّد حديثه عن أشعر الناس، وقرّر أنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنها العرب، واتّبعه فيها الشعراء، وهي: «استيقاف صحبه، والبكاء في الديار، ورقّة النسيب، وقرب المأخذ، وشبهه النساء بالظباء والبيّض، وشبهه الخيل بالعقبان والعصي، وقيد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وفصل بين النسيب وبين المعنى»^(١٤).

(١٣) الموازنة في شعر أبي تمام والبحثري، تح: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة ١٩٦١، ص ٣٩.

(١٤) طبقات فحول الشعراء، الجمحي، ص ٥٥.

ويُعدّ امرؤ القيس أحسن الشعراء في الجاهلية تشبيهاً، وقد تميّز عن شعراء عصره بكثرة ما في شعره من تشبيهات متنوعة، انتقل فيها بين المحسوس والمعقول، والمفرد والمتعدّد، مستعملاً الأداة، تاركاً لها، ومنتقلاً في أوجه الشبه بين الصورة والهيئة واللون والحركة.

والغرض من التشبيه عند علماء البيان هو الإيضاح والتقريب بين البعيدين، حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك^(١٥).

وقد عرض ابن سلام بعض الأبيات التي استشهد بها على حُسن التشبيه عند امرئ القيس، قال: ^(١٦)

كأنّ قلوب الطيرِ رطبًا ويابسًا لدى وكرها العنّاب والحشف البالي
وتقدير البيت كما جاء في شرح الديوان: كأنّ قلوب الطيرِ رطبًا العنّاب، وكأنّها يابسة الحشف البالي.^(١٧)

فالضمير في (وكرها) للعقاب، العنّاب: تمر أحمر غرض ذو ماء، والحشف: هو التمر إذا لم يظهر له نوى، البالي: القديم الفاسد.

ومن تناولوا هذا البيت بالحديث ابن رشيق، حيث جعل امرؤ القيس فأنحاً للشعراء، في تشبيهه شيئين بشيئين، قال: وأصل التشبيه مع دخول الكاف وأمثالها، أو كأن وما شاكلها شيء بشيء في بيت واحد، إلى أن صنع امرؤ القيس في صفة عقاب:

كأنّ قلوب الطيرِ رطبًا ويابسًا لدى وكرها العنّاب والحشف البالي
فشبه شيئين بشيئين في بيت واحد، واتبعه الشعراء في ذلك.^(١٨)

(١٥) العمدة: ابن رشيق، ٢ / ٢٨٩.

(١٦) ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ٣٨.

(١٧) المرجع نفسه، ص ٣٨.

(١٨) العمدة: ابن رشيق، ١ / ٢٩٠.

أما ابن سنان فقد مثل بهذا البيت للتشبيه المختار، وبين غرضه، وغرام الشعراء به، فقال: «وهذا من التشبيه المقصود به إيضاح الشيء، لأن مشاهدة العناب والحشف البالي أكثر من مشاهدة قلوب الطير رطبةً وباسةً». (١٩)

وَرُوي عن بشار بن برد أنه قال: «ما زلت مذ سمعت بيت امرئ القيس هذا أطلب أن يقع لي تشبيهان في بيت واحد، حتى قلت:

كأنُّ مُثارِ النقعِ فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُه

فشبهت النقع بالليل، والسيوف بالكواكب، وهذا تشبيه للمبالغة والتفخيم». (٢٠)

والحقيقة أن المتأمل لبيت امرئ القيس سيجد أنه اعتمد على الطباق بين الرطوبة واليباس في قلوب الطير، ثم طابق بين العناب وهو التمر الطري والحشف البالي أي التمر الجاف، ونلاحظ أن الألفاظ التي ركب امرؤ القيس منها البيت تنتمي إلى حقلٍ دلالي واحد هو الماء والجفاف، فأبرز المعنى من خلال التناسب المائي، فجاء البيت منسجماً بألفاظه، كأنه الماء العذب، فلا نجد لفظاً ينبو عن موضعه، أو لا ينسجم في تكوين التشبيه، أضف إلى ذلك رؤية العناب والتمر الجاف أكثر ترددًا عند الناس من رؤية القلوب الجافة أو الطرية في أعشاش العقاب، وبذلك استطاع امرؤ القيس أن ينقلنا من المجهول إلى المعلوم من خلال تشبيهه بديع، استمدد ألفاظه من البيئة المألوفة والمتداولة بين العرب لتوضيح وجلاء صورة العقاب.

ومن حيث استعماله للتشبيه التخيلي أو الوهمي في قوله: (٢١)

أيقتلني والمشرقيّ مضاجعي ومسنونة زرقُ كأنياب أغوالِ

(١٩) امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين: محمد ديب، القاهرة، مصر، دار الطباعة المحمدية، ١٩٨٩، ص ٦٩.

(٢٠) سر الفصاحة: ابن سنان الخفاجي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٨٢، ص ٢٤٨.

(٢١) ديوان امرئ القيس، ص ٣٣.

والمشاهد فيه: التشبيه الوهمي، وهو غير المدرك بإحدى الحواس، ولكنه بحيث لو أدرك لكان مدركاً بها، فإن أنياب الغول مما لا يدركه الحس لعدم تحققها، مع أنها لو أدركت لم تدرك إلا بحسّ البصر. (٢٢)

وإذا أردنا أن نبحث في بنية التشبيه البلاغي عند امرئ القيس، وتحليل المفردات ضمن الحقول الدلالية للصورة نجد:

الحقول الدلالية في تشبيه الأطلال:

يستمد امرؤ القيس ألفاظ التشبيه عندما يريد أن يتحدث عن الأطلال من الأشياء المحسوسة بصرياً، أو لمساً، فعندما أراد أن يصف لنا ديار المحبوبة، بعد أن تحولت إلى أطلال قال:

ترى بعزّ الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حبّ فلفل^(٢٣)

ولتأكيد حقل البصر اللغوي نجد أن الشاعر افتتح البيت بالفعل (ترى)، وهو فعل يلتصق بالنظر، ثم نجد الألفاظ الدالة على حاسة البصر: (الآرام - عرصات - قيعان - حب - فلفل)، وربط بين هذه المدلولات بتشكيل لغوي بلاغي هو التشبيه التمثيلي، وقد أجاد بفضل التناسب بين هذه الأشياء، فالصورة الأولى بصرية، وهي المشبه (ترى بعز الآرام...)، والصورة الثانية بصرية، وهي (حب فلفل)، وربط بينهما بـ (كأن)، فالدار أقفرت من أهلها، وصارت مألماً للوحوش، فبعزها فيها.

وتعدو علاقة البصر التشبيهيّة أكثر تواشجاً عندما يربطها بمشاعره، فصورة الرحيل تبكيه، وكأنه أمام الحنظل، والحنظل له حرارة تُدمع العين، فشبه ما جرى من دمعه لفقد أهل الدار بما يسيل من عين ناقف حنظل:

(٢٢) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: العباسي، ص ٧-٩.

(٢٣) ديوان امرئ القيس، ص ٢٤.

كأبي غداة البين يومَ تحمّلوا لدى سمّرات الحيّ ناقف حنظل^(٢٤)

ولنلاحظ معاً المفردات البصريّة في تكوين التشبيه، وعدوبته وانسجامه بلاغيّاً (البين - تحمّلوا - الحيّ - ناقف - حنظل)، فنحن نجد شبكةً من العلاقات الحسيّة بين الألفاظ البصريّة التي تقوم بخدمة توضيح التشبيه أو الصورة المراد نقلها.

وتتضح جماليّات التشبيه في التشكيل اللغوي في أكثر من موضع ضمن معلقة امرئ القيس، فحينما أراد أن يتغزّل أو يصف جمال محبوبته قال: ^(٢٥)

مهفهفةً بيضاءً غيرُ مفاضةٍ ترائبها مصقولة كالسجنجل

وفي دائرة الغزل نجد تشكيل التشبيه يقوم على إثبات ونفي للمفاضة، وهي الضخمة البطن، أي خميسة البطن ضامرته، وترائبها مصقولة، أي جاذبة للنظر، لجمالها واكتمالها، وهي ألفاظ بصريّة، ثم يأتي بالمشبه به باستعمال كلمة روميّة الأصل، وهي (السجنجل) أي المرأة، فتماسك جسدها كتماسك المرأة وبياضها وبريقها.

والمدقق المتمعن في هذه الصورة سيكتشف أنّ مكمّن جمالها في أنّ الشاعر استعمل المرأة لأنّ المرأة تشكّل للإنسان أقصى ما يمكن أن يرى ويشتهي من الجمال، أضف إلى ذلك أنّ المشبه والمشبه به يشتركان في التماسك والبريق والبياض والتألؤ. والجدير ذكره في أغلب التشبيهات عند امرئ القيس أنّه يفصل في المشبه، ثمّ يوجز في المشبه به، فيحكم الصورة ويوضّحها، ففي الأبيات السابقة جاء المشبه به موجزاً، مثل: (ناقف حنظل)، (السجنجل)، وهذا دليل على قدرة امرئ القيس على الإتيان بما يوازي ما يريد تصويره بسرعة فائقة، وبإتقان.

(٢٤) ديوان امرئ القيس ص ٩.

(٢٥) المرجع نفسه ص ١٥.

٣- البنية الجمالية للتشبيه في معلقة امرئ القيس:

أ- جماليات صورة الليل في المعلقة:

وعندما ينتقل امرؤ القيس ليصف طول الليل، وما يعانيه من انتظار الصباح للبحث عن ثأره، ومملكته الضائعة، يزواج في تشكيله للتشبيه بين الصورة السمعية والصورة البصرية في قوله: (٢٦)

وليلٍ كموج البحرِ أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم لبيتلي
فقلْتُ له لما تمطّى بصلبه وأردفَ أعجازًا وناءً بكلكلِ
ألا أيّها الليلُ الطويلُ ألا الجِلِ بصبحٍ، وما الإصباحُ منكُ بأمثلِ

ففي إطار الحالة النفسية نقلنا الشاعر عبر استعاراته، وتشبيهاته إلى صور سمعية توضح لنا ضيقه بالحياة، وتبرمه منها بما شكّله من لفظ يعبر عن المشافهة والسماع (فقلت)، والحركة بالأفعال (تمطّى، أردف، وناء).

وإن كان شبّه الليل بموج البحر في تراكمه، وشدة ظلمته، وتتابعه فقد استعار ليليل الستارة والسدول إمعاناً منه في التعبير عن الظلام الشديد الذي لا ينتهي، فالليل يطول كالبعير إذا نهض نهضاً بصدره، ثمّ يتحوّل ثقله إلى مؤخرته، فلا يستطيع النهوض إلا بصعوبة وبطء. (٢٧)

ولا شك أن طول الليل في حالة الهم والعشق والملاحقة هو ليل طويل، يقبع الشاعر فيه تحت وطأة المعاناة التي تُذهب النوم وتجلب السُّهد، وربما لسنا في حاجة إلى البرهنة على طول الليل على العاشق لأنه معروف، لكن إذا ما توقفنا عند طول الليل على القلق

(٢٦) ديوان امرئ القيس ص ١٨.

(٢٧) الصورة السمعية في الشعر العربي الجاهلي، تح: د. صاحب خليل إبراهيم

منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص ٢٣٧.

والملاحق فس نجد صوراً كثيرة لعل في مقدمتها وصف الصورة التابعة للسهد الذي يعانیه فيصبح طول الليل تعبيراً عن طول المعاناة وصعوبتها: يقول النابغة الذبياني: (٢٨)

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلة من الرقش، في أنياها السم ناقع
يُسَّهد، من ليل التمام، سليمها حلِّي النساء في يديه قعاقع

فالقلق عند النابغة يعادل مساورة الأفعى، وكلاهما يجمعهما الطول المصحوب بألم، فطول ليل النابغة وأرقه مصحوب بألم نتيجة الخوف من وعيد النعمان، ويستعمل المهلهل لفظة الليل استعمالاً آخر يبعدها عن سياق الطول والقصر، وتركز هنا على المهلهل لنقارب تجربته الإنسانية في طلب ثأر أخيه كليب، تجربة امرئ القيس في طلب ملك ضائع وفي الثأر لمقتل أبيه، لنؤكد أن المهلهل يستعين في بنيته التشبيهية بالأشياء والظواهر المحيطة به دون الولوج إلى عمقها، بل تبقى في إطار الوعي الفطري العفوي يقول:

ولست بخالع درعي وسيفي إلى أن يخلع الليل النهار (٢٩)

تكمن شعرية البيت من ربط تلك العلاقة الأبدية بين الليل والنهار، بارتباط الشاعر المقاتل بسلاحه في حربه التي يطلب بها الثأر، فالشاعر لن يتخلى عن الحرب إلا في حالة واحدة هي إذا تخلى الليل عن النهار، فالشاعر يجسد المستحيل (وهو ترك القتال طلباً للثأر) بصورة ملتقطة من محيطه دون أن يتعد في فلسفة ذلك المستحيل. بل بقي التشبيه في الإطار الفطري العفوي، في حين أننا عند امرئ القيس سنجد عمقاً في تناول الصورة، أي في تركيب التشبيه، يؤكد ريادة في تحويل شعرية التشبيه إلى اتجاه جديد مفاده الذهاب بالتشبيه من الصورة العفوية الملتقطة من المحيط إلى فلسفة الأشياء وتعميقها.

(٢٨) ديوان النابغة: ت: كرم البستاني، ص ٨٠.

(٢٩) ديوان المهلهل: إعداد طلال حرب، دار صادر، بيروت - ط ١، ١٩٩٦، ص ٣٤.

فالشاعر امرؤ القيس هنا يعبر عن حالته الداخلية المقهورة، وعن قلقه في ملاحظة الثأر فعبارة «كموج البحر» - كما يذهب الناقد يوسف اليوسف - التي شبه بها الليل في هذه اللوحة النفسية، تنبش شعور امرئ القيس بالاجتياح الذي تمارسه الحياة عليه. وذلك من حيث أن الليل لم يصبه بالهموم فحسب، وإنما هو الصورة الخارجية لحس الهم القابع في داخله. ولقد قام الخيال التصويري بإنشاء صورة الليل على هيئة داخل الشاعر تمامًا، أو وفقًا لمعاناته تمامًا، وفي عبارة «أرعى سدوله» ذات اللون القاتم يقيم الشاعر صورة لمنغلق خارجي يحيق به، ولكنه هو الآخر مسحوب من المنغلق الداخلي الذي يحاصره في الصميم، ثم يتحول ذلك إلى اكتساح داخلي في البيت التالي (فقلت له...) حيث يقوم الشاعر بتصوير ثقل الليل بألفاظ تجسيمية لها كيفية مادية وقدرة على تحول الحس الداخلي إلى مجسّدات، ذات طاقة على ممارسة السحق (تمطى بصلبه، أردف أعجازًا، ناء بكلكل) إذ استطاع الشاعر أن ينقل إلينا ما يقاسيه تحت وطأة الليل، الذي يتحول إلى رمز للهموم ولظلمة الواقع وحالة الحصار الداخلي التي يعيشها الشاعر.^(٣٠)

ب- جماليات صورة الفرس:

أما إذا انتقلنا إلى وصف الفرس عند امرئ القيس، فإننا نجد جماليات التشبيه تبدو أكثر سطوعًا وعمقًا، لذا آثرنا أن ندرسه دراسة بلاغية مفصلة، وأن نطبق عليها منهجًا تحليليًا، نظهر من خلاله بلاغة التشبيه في أبعث حللها، فقد قال امرؤ القيس يصف فرسه:^(٣١)

(٣٠) بحوث في المعلقات: يوسف اليوسف، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٨،

ص ١٥٥ وما بعدها.

(٣١) ديوان امرئ القيس، ص ١٩-٢١.

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا مُمْنَجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ
 مَكْرًا مَقَرًّا مُقْبِلِ مُدْبِرٍ مَعًا كَجُلْمُودِ صَخْرِ حَطَّةِ السَّيْلِ مِنْ عَلِ
 كُفِّتِ يَزْلُ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمَمْتَنِّزْلِ
 مَسَحَّ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَتَى أَنْزَنَ غُبَارًا بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ
 عَلَى الْعَقَبِ جَيَّاشَ كَأَنَّ اهْتِرَامَهُ إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيهُ عَلِيٍّ مِرْجَلِ
 يُطِيرُ الْعُلَامَ الْخِيفَ عَنْ صَهْوَاتِهِ وَيُلْسِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثَقَّلِ
 دَرِيرِكُ خُذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ تَقْلُبُ كَفَيْهِ بِخَيْطِ مُوَصَّلِ
 لَهُ أَيُّطَلَا ظَلِيٍّ وَسَاقًا نَعَامَةً وَإِرْخَاءِ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبِ تَنْفُلِ

لا بد لنا قبل الدخول في التحليل البلاغي للأبيات من شرحها وتوضيح بعض المعاني:

ب ١- يقول: وربما باكرت الصيد قبل نهوض الطير من أوكارها على فرسٍ ماضٍ في السير قليل الشعر، يقيد الوحوش بسرعة لحاقه إياها، وهو عظيم الجرم.

ب ٢- هذا الفرس مكر إذا أريد منه الكر، ومفر إذا أريد منه الفر، ومقبل إذا أريد منه إقباله، ومدبر إذا أريد منه إدباره، وقوله معًا: يعني أن الكر والفر والإقبال والإدبار مجتمعة في قوته لا في فعله، لأن فيها تضادًا ثم شبهه في سرعة مره وصلابة خلقه بحجرٍ عظيم ألقاه السيل من مكانٍ عالٍ إلى حضيض.

ب ٣- إنه لاكتناز لحمه وانملاص صلبه يزلُّ لبدته عن متنه كما أنَّ الحجر الصلب يزلُّ عنه المطر أو الإنسان.

ب ٤- إنه يجيء يجري بعد جري إذا كَلَّت الخيل السوابح وأثارت الغبار في الأرض الصلبة.

ب ٥- تغلي فيه حرارة نشاطه على ذبول خلقه وضمير بطنه وكأنَّ تكسَّر صهيله في صدره غليان قدر.

ب٦- إنَّ هذا الفرس يزلّ ويزلق الغلام الخفيف عن مقعده من ظهره، ويرمي بتياب الرجل العنيف الثقيل، يريد أنه ينزلق عن ظهره من لم يكن جيد الفروسية عالماً بها، ويرمي بأثواب الفارس الحاذق في الفروسية لشدة عدوه وفرط مرجه في جريه.

ب٧- إنَّه قد سم السير والعدو متابع لهما ثمَّ شبَّهه في سرعة مرّه وشدة عدوه بالخندروف في دورانه إذا بولغ في قتل خيطه، وكان الخيط موصولاً.

ب٨- شبَّه خاصرتي هذا الفرس بخاصرتي الظبي في الضمر، وشبَّه ساقيه بساقي النعامة في الانتصاب والطول، وعدوه بإرخاء الذئب، وتقريبه بتقريب ولد الثعلب، فجمع أربعة تشبيهات في هذا البيت.

لعلك تلاحظ أنَّ امرأ القيس في وصفه لفرسه ينزع نزوعاً أسطورياً، فصورة الفرس هي صورة الفرس المثالي الذي يشكّل النمط المشتبه من قبل الفارس، وبناءً على هذه الرؤية انطلق امرؤ القيس في وصف هذا الفرس وانطلاقه عليه، وقد اعتمد في تقديم هذه الصورة المثالية للفرس على التشبيه التمثيلي وعلى التشبيه البليغ، ولعلك تلاحظ بلاغة التشبيه التمثيلي في تجسيد الحالة الكلية للفرس بمقابلتها بصورة متعدّدة لا تتحصّل في الواقع، وإنّما في المخيِّلة، في حين أفاد التشبيه البليغ الذي ورد في البيت الأخير تحديداً في استعارة صفات مُميّزة لحيوانات أخرى لإلصاقها بالفرس في سبيل الوصول إلى وصف مثاليٍّ لأنموذج الفرس المشتبه. فالصورة الكلية لهذا النصّ تقوم على وصف اغتداء الشاعر في وقت مبكر على صهوة فرس يتمتّع بصفات كثيرة، فهو ماضٍ في السير، سريع، يلحق بالوحوش ولا تستطيع الفكّ منه، وهو هنا في البيت الأوّل يقدّم لنا ملخصاً وصفياً للفرس ثمَّ ينتقل إلى تفصيل الجزئيات معتمداً على التشبيه التمثيلي تارة والبليغ تارة أخرى.

وعلى ذلك سنلاحظ التشبيه التمثيليّ الأوّل في البيت الثاني الذي يقدّم لنا شطره الأوّل مبالغة لطيفة في اجتماع صفات الكرّ والفرّ والإقبال والإدبار في قوّة ذلك الفرس لا في فعله، على ما يوحي به الظاهر لأنّه لا يُعقل أن تُنفذ كلّ هذه الحركات معاً، لأنّ فيها تضاداً يُذهب الروعة في الصورة إذا حُكِمَ باجتماعها معاً في اللحظة ذاتها، فالمراد أنّها مجتمعة في قوّته وهي الصورة الأولى من التشبيه وستأتي مجتمعة في الصورة الثانية، ليعزّز تلك الدلالة (الشطر الثاني) فقد شبّه صورته تلك بحجر عظيم ألقاه السيل من مكانٍ عالٍ إلى حضيض، فالجامع هنا هو القوّة والسرعة، ثم ينتقل الشاعر إلى صفة أخرى يتمتّع بها هذا الفرس وهي صفة اكتناز اللحم وانملاس الصلب، فقد أورد هذه الصفات في الشطر الأوّل من البيت الثالث، ثم أورد صورة مماثلة لتأكيد تلك الصفة هي صورة الحجر الصلب الأملس الذي يزلّ المطر عنه، وبعد أن يعزّز صفة افتراق هذا الفرس عن بقيّة جياذ الخيل في التحمّل والقدرة على السير في الأرض الصلبة ينتقل في البيت الخامس إلى تشبيه آخر يصف حرارة نشاط ذاك الفرس، فهو على ذبول خلقه وضمور بطنه تغلي فيه حرارة النشاط، وكأنّ في صدره صوتاً يشبه غليان القدر فوق النار.

ومن هنا لا غرابة أن نجد في البيت السادس أنّ التعامل مع هذا الفرس بحاجة إلى فارس من نوع خاصّ، ومؤكد أنّه سيكون الشاعر امرأ القيس، فوصف الفرس بهذه الصفات يدلّ على فارس خبير مميّز عن أقرانه، وبذلك يمكن أن نلمح افتتاحاً ضمناً للشاعر بفروسيّته وتفردّه عن غيره، لذلك جعل فرسه في منأى عن الغلام الخفّ، وحتّى عن الفارس العنيف ذي الخبرة، وهذا سيبرز صفةً أخرى لهذا الفرس ترد في البيت على صورة تشبيه تمثيليّ لتسوية فروسيّة صاحب الفرس، فالصورة هنا هي تشبيه سرعة هذا الفرس بسرعة دوران الحصاة المثقوبة وفي داخلها خيط يلقه الصبي ليلعب به، فالفرس هنا في حركته وديمومته يسرع كإسراع خذروف الصبي، ثم

يختم الشاعر أبياته في البيت الثامن الذي وردت فيه أربعة تشبيهات بليغة لتعزيز سمة الفرس المشتهى التي يريد لها، لذلك يستعير أهم وأجمل السمات التي تميّز الحيوانات الأخرى وتناسب الفرس ليلصقها بالفرس، فقد شبه خصرتي هذا الفرس بخصرتي الطي في الضمور، وشبه ساقيه بساقي النعامة في الانتصاب والطول وعدوه بإرخاء الذئب وتقريبه بتقريب ولد الثعلب فاستعار له الضمور من الطي وهي سمة تميّزه، والساقين من النعامة من ناحية الطول والانتصاب وهي أهم ما يميّزها وعدوه من الذئب وهذا أهم ما يميّزه، وتقريبه من ولد الثعلب، وهذه سمة مميّزة له.

وهكذا يمكن أن نلاحظ أثر التشبيه في تشكيل الصورة الكلية للفرس وإظهار جماليّتها، وإسهامه في تقريب المعاني الجماليّة المرادة وإبرازها، وكيف دخل التشبيه في إبراز الصورة الكلية التي أراد الشاعر امرؤ القيس التعبير عنها وهي صورة الفرس المشتهاة.

وقد احتفى الشعر القديم بالفرس احتفاءً كبيراً، ونجد أن هذا الاحتفاء طبعي نظراً للعلاقة التي كانت تربط الفارس بفرسه إلى درجة تحوّل معها الافتخار بالفرس وقوته إلى افتخار مبطنّ بالفارس الذي يركبه، وإذا نظرنا إلى صورة الفرس عند المهلهل الشاعر الذي ارتضينا مقارنته بشاعرنا امرؤ القيس فسنجد مثلاً قوله:

وعاري النواحق صلتِ الجبينِ عمودُ قوائمه كالكتب^(٣٢)
ترجّلتُ عنه وخليّتهُ يجر العوالي كالمحتطب

فهذا التشكيل الوصفي للفرس - على ما يرى هلال الجهاد - يتضمّن إحضاراً

(٣٢) نقلاً عن رافع الراجحي (المهلهل بن ربيعة التغلبي حياته وشعره) رسالة ماجستير

لبعض صفاته التي تدل على عتقه وأصالته، وإشارة إلى قوته وصلابته، تتمثل في تصوير الشاعر لقوائمه كأنها مشدودة بفارسه، وهذا الفرس قد اقتحم بفارسه المعركة حتى امتلأ جسده بالرماح فبدا: أنه محتطب يحمل أغصاناً قد اقتطعها... وما يريد أن يؤديه من المعنى بذلك هو إقدام الفارس وشجاعته في مواجهة الأعداء، وبطولته من بطولة فرسه^(٣٣). وتأتي جمالية التشبيه هنا «من العلاقة التي ربطت بين قوائم الفرس والكتب وبين منظره وهو يجز الرماح المنغزة في جسده^(٣٤)، وهذا ما يذكرنا أيضاً بصورة فرس عنزة الذي عبر عن شجاعته بصورة ما يلاقي فرسه يقول: (٣٥)

يدعون عنترَ والرماحُ كأنها	أشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرةٍ نحره	ولبانه حتى تسرّبل بالدم
فازورّ من وقع القنا بلبانه	وشكا إليّ بعبرةٍ وتحمم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى	ولكان لو علم الكلام مُكّلم

لكن عنزة هنا يصحّ بمعاناة فرسه لإبراز قوته في المعركة ولإظهار صعوبة المواجهة مع فرسان الأعداء، لذلك صوّر الرماح بصورة حبال البئر المتصلة، ومعاناة الفرس هنا انخياز لقوة الفارس، وهذا ما لن نجد عند امرئ القيس مصرّحاً به تصريحاً مباشراً، إذ لا يمكن الوصول إلى قوة الفارس إلا بالتأويل، فلا إشارة مباشرة لغوية أو غير لغوية إلى ذلك، وهذا ما يعزّز الوعي الفني العميق للشاعر عبر التلميح بقوته، وذلك بإضفاء صفات وسمات عجيبة على فرسه. ثم إننا سنجد أن جماليات التشبيه تبدو أكثر سطوعاً عند امرئ القيس، الذي استطاع أن ينقل لنا حالات

(٣٣) جماليات الشعر العربي: هلال الجهاد، ص ٢١٠.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٢١١.

(٣٥) ديوان عنزة، دار صادر، ص ٢٩-٣٠.

نفسية استطاع أن يشكّلها لنا واقعاً من خلال لغته وقدرته الفائقة على التقاط الصورة وتوضيحها، كما رأينا عند وصفه لليل والفرس، فإذا كان قد ضيّع ملكه أو ضاع منه فلقد امتلك إمارة اللغة وتحكم بمقاصد التشبيه لمن جاء بعده فكان ملك اللغة.

نتائج البحث:

من كلّ ما سبق أبيّن أهمّ النتائج التي خلصت إليها:

- ١- إنّ شعر امرئ القيس كان مثار إعجاب البلاغيين والنحويين واللغويين، على حدّ سواء، وكلّ وجد فيه حاجته التي يصبو إليها، فهو يمثّل الفصاحة في أبعث حللها، ويعطي صورة صادقة عن واقع اللغة في عصره.
- ٢- إنّ شاعريّة امرئ القيس وبلاغته دفعت الشعراء إلى تقليده في التشبيه، وعلى الأخصّ في تشبيه شيئين بشيئين، وفي التشبيه التخيلي.
- ٣- استطاع امرؤ القيس أن يشكّل تشبيهاته لغويّاً، معتمداً على فنّ بديعيّ أتخذ هو فنّ الانسجام والتناسب.
- ٤- أتقن امرؤ القيس اختيار ألفاظه من حقول دلاليّة تناسب الصورة، فتارةً يعتمد على البصر، وأحياناً على السمع، وطوراً على أكثر من حاسة، وحينما يريد أن يشبه كان يختار الألفاظ التي تناسب كلّ حاسة.
- ٥- كان في بعض الأحيان يفصل في صورة المشبه، ويوجز في صورة المشبه به، وذلك دليل على قدرته في التشبيه، وعلى الأخصّ في التشبيه التمثيلي.
- ٦- تضافر البنية المعجميّة والمضمونيّة والجماليّة لإبداع التشبيه أو الصورة.
- ٧- عمق التشبيه عند امرئ القيس يرتبط بعمق الوعي الشعري.
- ٨- الإشارات النفسية والحالة الإنسانية برزت في التشبيه لدى امرئ القيس.

«أو» ودلالاتها في اللغة العربية

د. عبد الجليل مصطفىاوي^(*)

تعدّ (أو) من حروف العطف التي يكثر دورانها في النصوص العربية على اختلافها، ولاسيما القرآن الكريم. وقد وحدث، من خلال قراءاتي لمصادر النحو العربي أنّها تكتسب معاني كثيرة، وأنّ النحاة قد اختلفوا في معانيها وظلالها التي تُستفاد من النصوص التي ترد فيها.

فقد ذكروا أن الغالب فيها أن تكون لأحد الشيئين أو الأشياء، في الخبر والإنشاء^(١). وهي، كما يتردد في كتب النحو، لا تخلو من أن تصل مفرداً بمفرد أو جملة بجملة^(٢). أمّا عن معانيها فقد تشعبت في هذا الشأن آراء النحاة، وتباينت تحليلاتهم. فمن قائل إنّها ثلاثة عشر معنى^(٣)، ومن قائل إنّها اثنا عشر معنى^(٤)، ومن قائل إنّها ثمانية معان^(٥). واكتفى آخرون بالقول إنّها تنفيذ ثلاثة معان فقط هي الشكّ والتخيير والإباحة^(٦).

ونظراً لذلك رأيت أن أتبع في كتبهم كلّ تلك المعاني التي ذكروها، مع جلب الشواهد التي حفلت بها مؤلفاتهم، في محاولة للوقوف على دلالاتها ومواضع ورودها.

(*) مدرّس في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة تلمسان، الجزائر.

(١) يُنظر الكتاب: ١٦٩/٣.

(٢) يُنظر الإيضاح العضدي: ٢٨٩/١ ووصف المباني: ١٣١.

(٣) يُنظر الأزهية: ١١٥.

(٤) يُنظر مغني اللبيب: ٦٤/١.

(٥) يُنظر الجني الداني: ٢٢٨.

(٦) يُنظر أسرار العربية للأنباري: ٣٠٤ وشرح المفصّل: ٩٩/٨.

وأودّ أن أشيد ههنا بصنيع النحاة العرب في هذا الشأن؛ إذ إنّ ذلك يُماشى أحدث ما تذهب إليه المدارس اللسانية التي تدعو إلى التعامل مع اللغة على أنّها وسيلة تواصل، وعلى أنّ الخطاب ينبغي أن يحلل انطلاقاً من لغته التي لُفِظَ بها باعتبارها بناءً متعدد الأشكال، متباين الأغراض. وهو ما لمسناه عند وقوفنا على تحليلات النحاة ومحاوراتهم للنصوص.

١- الشكّ:

ويكون ذلك في الخبر، في نحو: جاءني زيدٌ أو عمرو، ورأيت رجلاً أو امرأة^(٧). ويرى النحاة ههنا أنّه يجوز أن يكون المتكلم شاكّاً فيتبعه السامع في شكّه، ويجوز أن يكون المتكلم غير شاكٍّ وإنّما يقصد إلى تشكيك سامعه بأمرٍ قَصَدَه؛ فيُهم عليه كأن يقول: كَلَّمْتُ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ، واختَرْتُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ^(٨)، يقول ذلك وهو يعرف أيّ الرجالِ كَلَّمَهُ، وأيّ الأمرين اختار^(٩). ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَّةِ آلِفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(١٠)، وقوله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾^(١١)، وقول لبيد^(١٢):

تَمَّيَّ ابْتَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ رِبْعَةٍ أَوْ مُضَرٍ

فقد ذهب ابن يعيش إلى أنّ هذه الشواهد من قبيل تشكيك السامع، فقد علم لبيد «أنّه من مضر، وليس من ربيعة، وإنما أراد من إحداهما بين القبيلتين، كأنه أجم عليهما؛ يعزّي ابنتيه في نفسه بأنّه من إحدى هاتين القبيلتين، وقد فنّوا ولا بدّ أن يصير إلى

(٧) يُنظر شرح المفصّل: ٩٩/٨ ووصف المباني: ١٣١-١٣٢.

(٨) يُنظر الأمالي الشجرية: ٣١٤/٢ والأزهية: ١١٥.

(٩) يُنظر شرح المفصّل: ٩٩/٨.

(١٠) سورة الصافات: ١٤٧.

(١١) سورة النحل: ٧٧.

(١٢) شرح ديوان لبيد: ٢١٣، وفيه: وهل أنا...

مصيرهم؛ وإنما حصّ القبيلتين لعظمتها، ولو زاد في الإبهام لكان أعظم في التعزية»^(١٣).
 وذكر بعض النحاة أنّ الشكّ يكون من جهة المتكلم، والإبهام من جهة السامع^(١٤). فمن الشكّ قوله تعالى ﴿قَالُوا لَيْسَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾^(١٥)، ومن الإبهام قوله عز وجل ﴿إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١٦). وذهب الرمّاني إلى أنّ (أو) في الآية تفيد الشكّ مبالغة في العدل ومظاهرة في الحجاج^(١٧). وذهب بعض اللغويين إلى أنّها في الآية بمعنى الواو^(١٨). وأنكر الفراء ذلك ورأى أنّ المعنى: إِنَّا لَضَالُّونَ أَوْ مُهْتَدُونَ، وإنكم أيضًا لَضَالُّونَ أَوْ مُهْتَدُونَ؛ فالله جلّ شأنه يعلم أنّ «رسوله المهتدي وأنّ غيره الضالون. فأنت تقول في الكلام للرجل إنّ أحدنا لكاذب؛ فكذبته تكذيبًا غير مكشوف»^(١٩). نفهم من كلام الفراء أنّها للإبهام، وهو ما ذهب إليه ابن الشجري وابن هشام أيضًا^(٢٠).

وذكر ابن هشام من الإبهام قول الشاعر^(٢١):

نَحْنُ أَوْ أَنْتُمْ الْأَلَىٰ الْقَوَا الْحَقُّ فَبَعْدًا لِلْمُبْطَلِينَ وَسُخْحًا

٢-التخيير:

وتأتي (أو) للتخيير بين شيئين وقصد أحدهما دون الآخر^(٢٢)، ولا تقع ههنا إلاّ

(١٣) شرح المفصّل: ٩٩/٨.

(١٤) يُنظر رصف المباني: ١٣١-١٣٢ والجنى الداني: ٢٢٨.

(١٥) سورة الكهف: ١٩ وسورة المؤمنون: ١١٣.

(١٦) سورة سبأ: ٢٤.

(١٧) يُنظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٩٧.

(١٨) يُنظر معاني القرآن للفراء: ٢/٢٦٢ والأماشي الشجرية: ٢/٣١٥.

(١٩) يُنظر معاني القرآن للفراء: ٢/٣٦٢.

(٢٠) يُنظر الأماشي الشجرية: ٢/٢١٦-٢١٧ ومغني اللبيب: ١/٦٤.

(٢١) يُنظر مغني اللبيب: ١/٦٤.

بعد الطلب^(٢٣)، نحو قولنا: كُلِّ السَّمَكِ أو اشرب اللبن، وتزوجَ هِنْدًا أو أختها؛ أي لا تجمعهما واختر أيهما شئت^(٢٤). ومن ذلك قوله تعالى ﴿فَكَمَّارَتُهُ إِطْعَامٌ عَشْرَةَ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ مِنْ أَهْلِيكُمْ، أو كَسَوْتُهُمْ أو تَحْرِيْرُ رَقَبَةٍ﴾^(٢٥)، وقوله تعالى ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أو صَدَقَةٍ أو نُسُكٍ﴾^(٢٦)؛ فأنت في جميع هذا مخير، أيها فعلت أجزأ عنك؛ فكل واحد من هذه الأعمال يكفي أن يكون كفارة أو فدية، والباقي قربةً مستقلة خارجة عن ذلك^(٢٧).

ونسب ابن الشجري إلى سيبويه أن (أو) في قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أو يَزِيدُونَ﴾^(٢٨) للتخيير، والمعنى أنه إذا رآهم الرائي يُخَيِّرُ في أن يقول هم ألف أو يزيدون^(٢٩). وإن صحَّ ما نُسِبَ إلى سيبويه فهو لا يشترط الطلب في التخيير.

٣- الإباحة:

وتأتي (أو) لإباحة شيئين فأكثر؛ تقول: جالسَ عَمْرًا أو خالداً أو بشرًا، كأنك قلت «جالس أحد هؤلاء، ولم تُردِ إنسانًا بعينه، ففي هذا دليل أن كلهم أهلٌ أن يُجالس، كأنك قلت جالس هذا الضرب من الناس»^(٣٠). ولا تكون إلا بعد الطلب نحو قولنا: جالس الحسن أو ابن سيرين، فأنت ههنا قد أُبيح لك أن تجالسهما جميعًا. يجوز لك ذلك مع أن الأصل في (أو) أن تكون لأحد الأشياء؛ وإنما جاز

(٢٢) يُنظر الكتاب: ١٨٤/٣ والمقتضب: ١٠/١ والإيضاح العضدي: ٢٨٧/١

(٢٣) يُنظر رصف المباني: ١٣١ ومغني اللبيب: ٦٤/١.

(٢٤) يُنظر الأزهية: ١١٥ وشرح المفصل: ١٠٠/٨.

(٢٥) سورة المائدة: ٨٩.

(٢٦) سورة البقرة: ١٩٦.

(٢٧) يُنظر تأويل مشكل القرآن: ٤١٤ ومغني اللبيب: ٦٥/١.

(٢٨) سورة الصافات: ١٤٧.

(٢٩) يُنظر الأمالي الشجرية: ٣١٨-٣١٩.

(٣٠) الكتاب: ١٨٤/٣، ويُنظر الأصول في النحو: ٥٦/٢ والإيضاح العضدي: ٢٨٨/١.

ذلك في هذا الموضوع لا لشيء رجع إلى نفس (أو) بل لقرينة انضمت من جهة المعنى إلى (أو)؛ وذلك لأنه قد عرف أنه إنما رُعب في مجالسة الحسن لما لمجالسِه في ذلك من الحظ، وهذه الحال موجودة في مجالسة ابن سيرين^(٣١)، وعلى ذلك قولنا: جالس العلماء أو الزُهَّاد، وتعلَّم الفقه أو النحو.

ونظيره في النهي قولك: لا تأكل خبزًا أو لحمًا أو تمرًا؛ كأنك قلت: لا تأكل شيئًا من هذه الأشياء، وكذلك قولك: لا تأت زيدا أو عمرا أو خالدًا؛ أي لا تأت هذا الضرب من الناس^(٣٢). ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾^(٣٣)؛ أي لا تطع أحدًا من هؤلاء. ف(أو) هذه هي التي «تقع في الإباحة؛ لأنَّ النهي قد وقع على الجمع والتفريق. ولا يجوز طاعة الآثم على الانفراد، ولا طاعة الكفور على الانفراد، ولا جمعهما في الطاعة؛ فهو ههنا في النهي بمنزلة الإيجاب نحو: جالس الحسن أو ابن سيرين»^(٣٤).

وذهب ابن مالك إلى أنَّ أكثر ورود (أو) للإباحة يكون في التشبيه نحو قوله تعالى ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾^(٣٥)، والتقدير نحو قوله تعالى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٣٦)، ولم يخصَّها بالمسبوقة بالطلب^(٣٧). والفرق بين الإباحة والتخيير أنَّ المخاطب في الإباحة يجوز له أن يجمع بين الشيئين، وليس له ذلك في التخيير^(٣٨).

(٣١) الخصائص: ١/٣٤٨، ويُنظر شرح المفصل: ٨/١٠٠.

(٣٢) يُنظر الكتاب: ٣/١٨٤ و المقتضب: ٣/٣٠١ والخصائص: ١/٣٨٤.

(٣٣) سورة الإنسان: ٢٤.

(٣٤) شرح المفصل: ٨/١٠٠، ويُنظر مغني اللبيب: ١/٦٥.

(٣٥) سورة البقرة: ٧٤.

(٣٦) سورة النجم: ٨-٩.

(٣٧) يُنظر مغني اللبيب: ١/٦٥.

(٣٨) يُنظر الأزهية: ١١٦-١١٧ ووصف المباني: ١٣١ والجنى الداني: ٢٢٨.

٤- تبيين النوع:

ذكره الهروي ومثّل له بنحو قولنا: ما أكلتُ إلا تمرًا أو زبيبا، وما لبستُ إلا خنزًا أو ديباجًا. ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا تُطْعَمِ مِنْهُمْ أَمَّا أَوْ كَفُورًا﴾^(٣٩)، وقوله عز وجل ﴿قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾^(٤٠)، وقوله جلّ شأنه ﴿وَمَا كَانَ لِيَشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾^(٤١)؛ أي بوجه من هذه الوجوه. وليس للهروي ههنا سوى فضل المصطلح، أمّا معنى (أو) فلم يتعدّ الإباحة، كما أشار إلى ذلك سيبويه والمبرد وابن السراج^(٤٢).

٥- الجمع المطلق:

ذهب جماعة من الكوفية- ومعهم الأحنف والجرمي- إلى أنّ (أو) تأخذ أحيانًا معنى الواو^(٤٣). وإليه ذهب ابن قتيبة أيضًا الذي قال: «وربما كانت بمعنى واو النسق»^(٤٤)، وكذا ابن جني^(٤٥). وقد احتجوا لذلك بشواهد من القرآن والشعر؛ فذكروا قوله تعالى ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾^(٤٦)، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٤٧)،

(٣٩) سورة الإنسان: ٢٤

(٤٠) سورة الذاريات: ٥٢.

(٤١) سورة الشورى: ٥١.

(٤٢) يُنظر الأزهية: ١١٧. ويُنظر في هذا الشأن الكتاب: ١٨٤/٣ والمقتضب: ٣٠١/٣ والأصول في النحو: ٥٦/٢.

(٤٣) يُنظر الأمالي الشجرية: ٣١٧/٢ والجنى الداني: ٢٣٠.

(٤٤) تأويل مشكل القرآن: ٤١٤.

(٤٥) يُنظر الخصائص: ٤٦٠/٢.

(٤٦) سورة النور: ٦١.

(٤٧) سورة سبأ: ٢٤.

وقول توبة بن الحمير^(٤٨):

وَقَدْ زَعَمْتُ لَيْلَى بِأَيِّ فَاجِرٍ لِنَفْسِي تُقَاهَا أَوْ عَلَيَّهَا فُجُورُهَا

وقول جرير^(٤٩):

نَالَ الخِلاَفَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ

ف(أو) في جميع ذلك بمعنى واو النسق^(٥٠).

وقد أنكر البصريون أن تكون (أو) بمعنى الواو؛ قالوا لأنّ الأصل في كلِّ حرفٍ ألاَّ يدلَّ إلاَّ على ما وُضِعَ له^(٥١).

وزعم ابن مالك أنّ (أو) التي للإباحة حالةٌ محلّ الواو^(٥٢)، وردّ ابن هشام ذلك؛ لأنه «لو قيل: جالس الحسن وابن سيرين كان المأمور به مجالستهما معاً، ولم يخرج المأمور عن العهدة بمجالسة أحدهما»^(٥٣).

٦- الإضراب:

أجاز سيويه أن تكون (أو) مثل (بل) بشرطين: تَقَدُّمُ نفي أو نهي و إعادة العامل نحو قولنا: ما قام زيدٌ أو عمرو، ولا تضرب زيداً أو عمراً. ولذا قال في قوله

(٤٨) يُنظر شرح أبيات مغني اللبيب: ٢/٢٣. وقيل إن «أو» في البيت للإبهام، يُنظر مغني اللبيب: ١/٦٥.

(٤٩) ديوان جرير: ١/٢٧٥، وفيه: إذ كانت له...

(٥٠) يُنظر الأزهية: ١١٨. وهناك شواهد أخرى كثيرة في الشعر وردت فيها «أو» بمعنى الواو، يُنظر الأمالي الشجرية: ٢/٣١٧-٣١٨ والأزهية: ١١٩-١٢٢.

(٥١) يُنظر الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري: ٢/٤١٨.

(٥٢) يُنظر تسهيل الفوائد: ١٧٦.

(٥٣) مغني اللبيب: ١/٦٦.

تعالى ﴿وَلَا تُطْع مِنْهُمْ أَيْمًا أَوْ كُفُورًا﴾^(٥٤)، لو قلت فيه: أو لا تطع كفورًا انقلب المعنى؛ أي إنه يصير إضرابًا عن النهي الأول ونهيًا عن الثاني فقط^(٥٥). وقال الكوفيون وأبو عليّ وابن جنيّ وابن بُرهان، وكذلك الهرويّ: إنّ (أو) تكون للإضراب مطلقًا^(٥٦). واستشهدوا بقوله تعالى ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾^(٥٧)، و﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾^(٥٨)، و﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٥٩). وذهب ابن قتيبة إلى أنّها في كلّ هذه المواضع بمعنى الواو لا بمعنى (بل)، وجوّز الهرويّ ذلك^(٦٠).

وذهب ابن الشجريّ إلى أنّها في كلّ هذه المواقع للتخيير؛ أي إنّك إن قلت: إنّ قلوبهم كالحجارة جاز، وإن قلت إنّها أشدُّ قسوةً جاز، وكذلك الحال في سورتي النحل والنجم. ويجوز - برأيه - أن تكون (أو) فيهنّ للإبهام^(٦١)، وهو الأمر الذي أثبتّه ابن فارس قبله؛ إذ إنّ المتكلّم يعلمه لكنّه أجهمه على السامع وطواه عنه^(٦٢). والحقّ أنّ ما ذهب إليه ابن الشجريّ أقرب إلى طبيعة اللغة؛ لأنّه نظر إلى سياق (أو) وحال التركيب الذي وردت فيه دون أن يُغفل معناها الأصليّ في التخيير، وهو ما يُماشى مع ما يراه اللسانيون من أنّ المعنى يحدّده السياق وقرائنه؛ إذ ليست (أو)

(٥٤) الإنسان: ٢٤.

(٥٥) يُنظر مغني اللبيب: ١/٦٧.

(٥٦) يُنظر الأزهية: ١٢٧ والإنصاف في مسائل الخلاف: ٢/٤٨٧ وتسهيل الفوائد: ١٧٦ والجنى الداني: ٢٢٩.

(٥٧) سورة البقرة: ٧٤.

(٥٨) سورة النحل: ٧٧.

(٥٩) سورة النجم: ٩.

(٦٠) يُنظر تأويل مشكل القرآن: ٤١٥ والأزهية: ١٢٧.

(٦١) يُنظر الأمالي الشجرية: ٢/٣١٩.

(٦٢) يُنظر الصاحي: ١٢٩.

سوى وحدة من مكوّنات التركيب التي تتألف لتأدية الدلالات المنشودة.
وقد اختلف هؤلاء في قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(٦٣)؛ فقال
بعض الكوفيين - ومعهم ابن قتيبة - إنها بمعنى الواو^(٦٤). وقال آخرون - منهم الفراء
- إنَّ (أو) في الآية بمعنى (بل)^(٦٥). ويُفهم من كلام الأخفش أنها تفيد الإبهام، قال:
«كانوا كذاك عندكم»^(٦٦).

وللبصريين في (أو) هذه - كما نقل ابن الشجري - ثلاثة أقوال^(٦٧):
أحدها قول سيبويه وهو أنّها في الآية للتخيير؛ والمعنى أنّه إذا رآهم أحد يُخَيَّرُ في
أن يقول هم مئة ألف أو يزيدون. وأنكر ابن هشام ذلك؛ لأنّه لا يصحّ «التخيير
بين شيئين الواقع أحدهما»^(٦٨).

والثاني أنّ (أو) لأحد الأمرين على الإبهام، وهو ما ذهب إليه المالقي^(٦٩).
والثالث ذكره ابن جني؛ ف(أو) - في رأيه - للشكّ، والمعنى أنّ من يراهم يشكّ في
عدّتهم لكنّهم^(٧٠). وهو ما ذهب إليه الزمخشري أيضًا إذ قال: «أو يزيدون في مرأى
الناظر؛ أي إذا رآها الرائي قال هي مئة ألف أو أكثر، والغرض الوصف بالكثرة»^(٧١).
وفي إشارة الزمخشري إلى الغرض من دلالة الآية ومقصدها ما يوحي بأنه لا يُنظر إلى

(٦٣) سورة الصافات: ١٤٨.

(٦٤) يُنظر تأويل مشكل القرآن: ٤١٥.

(٦٥) يُنظر معاني القرآن للفراء: ٣٩٣/٢ والأمالي الشجرية: ٣١٨/٢.

(٦٦) معاني القرآن: ٦٦٩/٢.

(٦٧) يُنظر الأمالي الشجرية: ٣١٨/٢.

(٦٨) مغني اللبيب: ٦٧/١.

(٦٩) يُنظر رصف المباني: ١٣٢.

(٧٠) يُنظر الخصائص: ٤٦١/٢.

(٧١) الكشاف: ٣١١/٣-٣١٢.

(أو) بمنأى عن المقام العام للتركيب ؛ إذ تغدو عنده وحدة من جملة عناصر ووحدات لسانية تحدّد الدلالة العامة لهذا التركيب الذي تحكمه جملة من العلاقات والوشائج. وقال قوم هي بمعنى الإباحة؛ فإذا قال قائل هم مئة ألف فقد صدق، وإن قال غيره بل يزيدون على مئة ألف فقد صدق^(٧٢).

وأنكر المبرّد أن تكون (أو) في الآية بمنزلة (بل)، وحجته في ذلك أمران: أحدهما أنّ (أو) لو وقعت في هذا الموضع موقع (بل) لجاز أن تقع في غير هذا الموضع، وكنا نقول: ضربت زيداً أو عمراً على غير الشكّ لكن بمعنى (بل)؛ وهذا مردود عند جميع النحاة.

والثاني: أنّ (بل) لا تأتي في الواجب في كلام واحد إلا للإضراب بعد غلط أو نسيان، وهذا منفي عن الله ﷻ؛ لأنّ القائل إذا قال: مررت بزيد غالباً فاستدرك أو ناسياً فذكر قال: بل عمرو؛ ليضرب عن ذلك ويثبت ذا. ويقرّر المبرّد أنّ مجاز هذه الآية مجاز قولك «إئت زيداً أو عمراً أو خالدًا، تريد: إئت هذا الضرب من الناس؛ فكأنّه قال - والله أعلم - إلى مئة ألف أو زيادة. وهذا قول كل من نتق بعلمه»^(٧٣).

٧- التقسيم:

سمّاه بعضهم التبعض، وسمّاه آخرون التفصيل^(٧٤). وسمّاه ابن مالك التفريق المجرد من الشكّ والإبهام والتخيير، وقال إنّ هذا أولى من التعبير بالتقسيم؛ لأنّ استعمال الواو في التقسيم أجود^(٧٥). وقد مثّلوا لذلك بقوله تعالى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى

(٧٢) يُنظر الصاحبي: ١٢٧.

(٧٣) المقتضب: ٣٠٤/٣-٣٠٥.

(٧٤) يُنظر الأزهية: ١٢٩ والأمالى الشجرية: ٣٢٠/٢.

(٧٥) يُنظر تسهيل الفوائد: ١٧٢.

تَهْتَدُوا^(٧٦)، و﴿قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾^(٧٧)؛ فالمعنى: وقالت اليهود كونوا هودًا وقالت النصارى كونوا نصارى، وقال بعضهم ساحر وقال بعضهم مجنون. (أو) فيهما لتفصيل الإجمال في (قالوا)^(٧٨)، وليست للتخيير؛ لأنهم لا يَخْتَرُونَ بين اليهودية والنصرانية^(٧٩).

وذكر بعضهم من ذلك قوله تعالى ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾^(٨٠)، و﴿كَلِمَحِ الْبَصْرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾^(٨١)؛ أي بعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة^(٨٢).

٨- معنى (ولا):

زعم بعض النحاة أن (أو) تأتي كذلك بمعنى (ولا)^(٨٣)، وقيد الفراء ذلك بأن تكون في الجحد والاستفهام والجزاء^(٨٤). وزعم ابن مالك أنها توافق (ولا) بعد النهي والنفي^(٨٥). ومثلوا لذلك بقول ابن الرَّمْلَاءِ الغَسَّانِي^(٨٦):

ما وُجِدُ تُكَلِّى كَمَا وَجِدْتُ، وَلَا
أَوْ وُجِدُ شَيْخٍ أَضَلَّ نَاقَتَهُ
وُجِدُ عَجُولٍ أَضَلَّهَا رَنْعُ
يَوْمَ تَوَافَى الْحَجِيجُ فَأَنْدَفَعُوا

(٧٦) سورة البقرة: ١٣٥.

(٧٧) سورة الذاريات: ٥٢.

(٧٨) يُنْظَرُ مَغْنِي اللَّيْب: ١/٦٩.

(٧٩) يُنْظَرُ الْأَزْهِيَّة: ١٣٠ والأُمَامِي الشَّجَرِيَّة: ٢/٣٢٠.

(٨٠) سورة البقرة: ٧٤.

(٨١) سورة النحل: ٧٧.

(٨٢) يُنْظَرُ الصَّاحِي: ١٢٩.

(٨٣) يُنْظَرُ الْأَزْهِيَّة ١٢٩ والجنى الداني: ٢٣٠.

(٨٤) يُنْظَرُ مَعَانِي الْقُرْآن: ٣/٢١٩.

(٨٥) يُنْظَرُ تَسْهِيلُ الْفَوَائِد: ١٧٦.

(٨٦) يُنْظَرُ الْأَزْهِيَّة: ١٢٦.

أراد: ولا وُجِدُ شيخ...^(٨٧).

ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تُطْعَمُنْهُمْ أُمَّمًا أَوْ كُفُورًا﴾^(٨٨)؛ ف (أو) - كما يرى الفراء - بمنزلة (لا)، ومعناها قريب من معنى الواو^(٨٩). وأثبت أبو عبيدة المعنى الثاني^(٩٠).

٩- معنى (إلا أن):

تكتسب (أو) هذا المعنى إذا وليها مضارع منصوب ب(أن) مقدّرة بعدها^(٩١)، وذهب جماعة إلى أنّها تكون أيضاً بمعنى (حتى)^(٩٢). ومن ذلك: لألزمناك أو تقضيبي؛ فمعنى النصب هنا لألزمناك إلا أن تقضيبي؛ أي أنا ملازم لك أو قاض أنت حاجتي^(٩٣)، أو حتى تقضيبي، على رأي من قال إنّها بمعنى (حتى). وهي هنا باقية على حالها من العطف، والمعنى ليكوننّ اللزوم أو أن تقضيبي^(٩٤).

ومن شواهد ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾^(٩٥)، و﴿مَا كَانَ لِيَبْشُرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾^(٩٦). زعم الخليل أنّ نصب (يرسل) محمول على (أن) قبلها، وأنكر سيبويه ذلك قائلاً: «...ولو كانت هذه الكلمة على (أن) هذه لم يكن للكلام وجه، ولكنه لما قال

(٨٧) يُنظر معاني القرآن للفراء: ٣/٣١٩ والأزهية: ١٢٦، والعجول: الناقة الواهية.

(٨٨) سورة الإنسان: ٢٤.

(٨٩) يُنظر معاني القرآن للفراء: ٣/٢١٩.

(٩٠) يُنظر مجاز القرآن: ٢/٢٨٠.

(٩١) يُنظر الكتاب: ٣/٤٦ والإيضاح العضدي: ١/٣٥٠ والصاحي: ١٢٧. ذهب بعض الكوفيين إلى أنّ «أو» هي الناصبة لا «أن» المضمرة، يُنظر رصف المباني: ١٣٤ والجنى الداني: ٢٣١.

(٩٢) يُنظر معاني القرآن للفراء: ١/٢٣٤ والمقتضب: ٢/٢٨ و٣/٣٠٦.

(٩٣) يُنظر الكتاب: ٣/٤٧ ورصف المباني: ١٣٤.

(٩٤) يُنظر الكتاب: ٣/٤٦.

(٩٥) سورة آل عمران: ١٢٨.

(٩٦) سورة الشورى: ٥١.

(إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) كان في معنى: إِلَّا أَنْ يُوحَى، وكان (أَوْ يَرْسَلُ) فعلاً لا يجري على (إِلَّا) فَأَجْرِي على (أَنْ) هذه؛ كَأَنَّهُ قَالَ: إِلَّا أَنْ يُوحَى أَوْ يَرْسَلُ»^(٩٧).

وقد أَيْد المبرّد رأي سيبويه قائلاً: «ولو كان (يرسل) محمولاً على ذلك لَبَطَلَ المعنى؛ لأنّه كان يكون: ما كان لبشر أن يكلمه الله أو يرسل؛ أي ما كان لبشر أن يرسل الله إليه رسولاً، فهذا لا يكون»^(٩٨).

ومثله قول امرئ القيس^(٩٩):

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِيمًا تُحَاوِلُ مُلْكًَا أَوْ تُمُوتُ فَنُعَدَّرَا

وجملة هذا أَنَّ كَلَّ موضع «تصلح فيه (حتّى) و(إِلَّا أَنْ) فالنصب جائز جيّد إذا أردت هذا المعنى، والعطف على ما قبله مستعمل في كل موضع»^(١٠٠)، والرفع على الابتداء جائز أيضاً^(١٠١).

وذكر بعضهم أَنَّ (أَوْ) ههنا تجتمع فيها معان ثلاثة هي (إِلَّا أَنْ) و(كي) و(إلى أن)، وأنكر المالقيّ ذلك وقال إنّ الصحيح «أَنَّها لازمة لمعنى (إِلَّا أَنْ) في كلّ موضع، فعليه المعوّل دون (إلى أن) و(كي)؛ لأن ذلك لا يطردّ فيها في كل موضع»^(١٠٢).

وجعل ابن هشام معنى (إلى أن) قائماً برأسه، ومثّل لذلك بقول الشاعر:

لَأَسْتَسْهَلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُذْرِكَ المَبْنَى فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إِلَّا لِصَابِرٍ

وذكر ابن هشام معنى آخر ل(أَوْ) هو التقريب ونسبه إلى الحريري، ومنه: ما

(٩٧) الكتاب: ٤٩/٣.

(٩٨) المقتضب: ٣٤/٢.

(٩٩) ديوان امرئ القيس: ٦٦.

(١٠٠) المقتضب: ٢٩/٢.

(١٠١) يُنظر الكتاب: ٤٧/٣.

(١٠٢) رصف المباني: ١٣٣-١٣٤.

أدري أسلّم أو ودّع، ثمّ وصفه بالفساد؛ لأنّ (أو) فيه للشكّ «وإنما استُفيد معنى التقريب من إثبات اشتباه السلام بالتوديع»^(١٠٣).

١٠ - (أو) بعد الاستفهام:

إذا سبق (أو) أداة استفهام كالمهزمة أو غيرها كانت لأحد الشئيين أو الأشياء، وذلك في نحو قولنا: أقام زيدٌ أو عمرو؟ معناه: أقام أحدهما؟ وقولنا: هل عندك زيدٌ أو عمرو؟ أي هل عندك أحد هؤلاء، وقولنا: هل تجلس أو تقوم؟ أي هل يكون منك أحد هذين^(١٠٤). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ﴾^(١٠٥)؛ فالمعنى: هل يكون منهم أحد هذه الأشياء..؟

وذكر ابن الشجري أنّ (أو) بعد الاستفهام عدّت قسمًا على حياله؛ لأنّ الاستفهام أخرجها من الشكّ والتخيير والإباحة^(١٠٦).

١١ - الفرق بين (أو) و(أم):

يقول سيويوه: «تقول: أَلْقَيْتَ زَيْدًا أَوْ عَمْرًا أَوْ خَالِدًا؟ و أَعْنَدُكَ زَيْدٌ أَوْ خَالِدٌ أَوْ عَمْرٌو؟ كَأَنَّكَ قُلْتَ: أَعْنَدُكَ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ وَذَلِكَ أَنَّكَ لَمْ تَدَّعِ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ ثَمَّ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا أَجَابَكَ قَالَ: لَا، كَمَا إِذَا قُلْتَ: أَعْنَدُكَ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ؟»^(١٠٧).

(١٠٣) مغني اللبيب: ١/٧٠.

(١٠٤) يُنظر الكتاب: ٣/١٧٥ وورصف المباني: ١٣٣. وقصر بعضهم ذلك على المهزمة وهل؛ ولعلّ السر في ذلك أنّ ورود (أو) بعد هاتين الأداتين كثير في النصوص بخلاف بقية الأدوات الأخرى، يُنظر الأزهية: ١٢٥ والأمالى الشجرية: ٣١٩/٢.

(١٠٥) سورة الشعراء: ٧٢ - ٧٣.

(١٠٦) يُنظر الأمالى الشجرية: ٢/٣٢٠.

(١٠٧) الكتاب: ٣/١٧٩.

ويقول في موضع آخر إنك إذا قلت: أزيدُ عندك أم عمرو؟ و أزيدًا لقيت أم بشرًا؟ تكون مدعياً أنّ «عنده أحدهما؛ لأنك إذا قلت أيهما عندك؟ وأيها لقيت؟ فأنت مدّع أنّ المسؤول قد لقي أحدهما أو أنّ عنده أحدهما إلا أنّ علمك قد استوى، لا تدري أيهما هو»^(١٠٨).

ف(أو) تكون للسؤال عن شيء بغير عينه؛ ولذا يكون الجواب معها ب(نعم) أو (لا)؛ فإذا سأل سائل: أزيدُ عندك أم عمرو؟ فمراده: أأحدُ هذين عندك؟ فهو لا يعلم كون أحدهما عندك؛ ولذا يسألك لتخبره، ومن هنا يكون الجواب ب(نعم) إن كان أحدهما عندك أو ب(لا) إن لم يكن أحد منهما عندك، ولو قال قائل في الإجابة: زيد أو عمرو لم يكن مجيباً عن صريح السؤال^(١٠٩).

أمّا (أم) فتكون للسؤال عن شيء بعينه؛ لأنّ السائل مدّع أنّ أحد الأمرين قد وقع، ولذا ينبغي التعيين في الإجابة. فإذا قيل: أزيدُ عندك أم عمرو؟ وجب أن تقول: زيدٌ أو عمرو؛ لأنّ السؤال بمنزلة أيهما عندك؟ ولو قلت (نعم) أو (لا) لأحلت، ولم تكن قد أجبت على مقتضى السؤال^(١١٠).

فالسؤال ب(أو) معناه أحدهما؟ وب(أم) معناه أيهما؟^(١١١)، وإذا قيل: أزيدُ أفضل أم عمرو؟ لم يجز ههنا إلا (أم)؛ «لأنك تسأل عن صاحب الفضل، ألا ترى أنك لو قلت: أزيد أفضل؟ لم يجز»^(١١٢).

ولو قيل أيضاً (أو) لم يجز؛ لأنّها «تصير المعنى أحدهما أفضل؟ وليس هذا

(١٠٨) الكتاب: ١٦٩/٣.

(١٠٩) يُنظر الأزهية: ١٤٣ وشرح المفصل: ٩٨/٨-٩٩.

(١١٠) يُنظر الإيضاح العضدي: ١/٢٩٠-٢٩١ وشرح المفصل: ٩٩/٨.

(١١١) يُنظر الأزهية: ١٤٣-١٤٤ وشرح المفصل: ٩٩/٨.

(١١٢) الكتاب: ١٧٩/٣-١٨٠.

بكلام»^(١١٣)، بينما يجوز أن تقول: أزيداً أو عمراً رأيت أم بشرًا؟ وذلك أنك» لم ترد أن تجعل عمراً عديلاً لزيد حتى يصير بمنزلة أيهما، ولكنك أردت أن يكون حشواً؛ فكأنك قلت: أحد هذين رأيت أم بشرًا»^(١١٤). ومن ذلك قول صغية بنت عبد المطلب:

كَيْفَ رَأَيْتَ زَنْبَرًا*
أَقِطًا أَوْ تَمْرًا
أَمْ قُرْشِيًّا صَقْرًا

فهي هنا لم ترد أن تجعل التمر عديلاً للأقط؛ لأنَّ «المسؤول عندها لم يكن ممن قال: هو إما تمرٌ وإما أقطٌ وإما قرشيٌّ، ولكنها قالت: أهو طعام أم قرشيٍّ؟ فكأنها قالت: شيئاً من هذين رأيتَه أم قرشيًّا»^(١١٥).

وإذا قيل: سواء عليّ أم قعدت فلا يكون ههنا إلاّ (أم)؛ لأنَّ قبلها ألف الاستفهام، والتأويل سواء عليّ أيهما فعلت. فإن قيل: سواء عليّ قمت أو قعدت، بغير استفهام، لم يكن العطف إلاّ ب(أو)؛ لأنّها بتأويل الجزاء، والمعنى: إن قمت أو قعدت فهما سواء^(١١٦). وأنكر ابن هشام استعمال (أو) بعد سواء، وعدّ ما جاء في الصحاح من قوله: سواء عليّ قمت أو قعدت، من قبيل السّهو^(١١٧).

والحق أنّ النحاة العرب قد اجتهدوا في الوقوف على دلالات (أو)، وتنوعت

(١١٣) الأزهية: ١٤٤.

(١١٤) الكتاب: ١٨١/٣.

(*) زير مُكَبَّرٌ زبير، وهو الزبير بن العوام، يُنظر المقتضب: ٣٠٣/٣.

(١١٥) الكتاب: ١٨٢.

(١١٦) يُنظر الأزهية: ١٤٧.

(١١٧) يُنظر مغني اللبيب: ٤٢/١.

آراؤهم في التحليل والمعالجة، وأبانوا عن ذكاء في محاوره النصوص واستكناه مضامينها. فقد كان الشاهد الواحد يتردد في أكثر من مكان، ويأخذ أكثر من دلالة؛ مما يثري الموضوع، ويفتح آفاق البحث على واسعة للاجتهد والنظر والتأويل، وهو الأمر الذي لمسناه في تناولهم لمعاني هذه الأداة.

وإني أكرّر ههنا أنّ آراءهم تُماشي أحدث ما وصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة، ولا سيما النحو التوليدي التحويلي الذي ينطلق في تحليلاته من أنّ اللغة نظام من القواعد والعلاقات الكلامية، ويقوم في أساسه على دعامين محوريين، هما البنية العميقة المتمثلة في اللغة نفسها وتراكيبها المختلفة من إسناد ونفي وإثبات واستفهام وتعريف وتنكير وغيرها، والبنية الظاهرة أو السطحية التي تتمثل في التراكيب اللغوية التي ينتجها المتكلم، ويتوصّل من خلالها إلى الدلالة وإلى أغراض الكلام ومقاصده.

ونحن حينما نتملّي هذه التحليلات يتجلّى لنا بوضوح أنّ نخاتنا كانوا يقلّبون العبارات التي ترد فيها (أو) على كلّ وجوهها المحتملة، ويتأمّلون بذكاء السياقات التي تضمّها، ثمّ يحاولون، بعد ذلك، أن يقدّموا المعنى الذي تحمله هذه العبارة أو تلك. وذلك، لعمري، هو ما تسعى إليه اللسانيات الحديثة التي تتوخى قراءة النصوص، وتحليل الخطاب اللغوي.

مصادر البحث:

- ١- الأزهية في علم الحروف، علي بن محمد الهروي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق- ١٩٧١م.
- ٢- أسرار العربية، أبو البركات عبد الرحمن الأنباري، تحقيق: محمد مجتد البيطار، مطبعة الترقّي بدمشق-١٩٥٧م.
- ٣- الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج، تحقيق: د. عبد الحسن الفتلي، دار الرسالة، بيروت، ط ٣ - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- ٤- الأمالي الشجرية، ضياء الدين أبو السعادات بن الشجري، دار المعارف العثمانية- ١٣٤٩هـ.

- ٥- الإنصاف في مسائل الخلاف، أبو البركات عبد الرحمن الأنباري، شرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد - ١٩٨٢ م.
- ٦- الإيضاح العضدي، أبو علي الفارسي، تحقيق: د. حسن شاذلي فرهود، مطبعة دار التأليف، مصر، ط ١-١٩٦٩ م.
- ٧- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية.
- ٨- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، محمد جمال الدين بن مالك، تحقيق: محمد كامل، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر-١٩٦٧ م.
- ٩- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، دار المعارف بمصر.
- ١٠- الجنى الداني، الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة ومحمد ندم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت-١٩٨٣ م.
- ١١- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: علي النجار، مطبعة دار الكتاب، القاهرة-١٩٥٢ م.
- ١٢- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر.
- ١٣- رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق-١٩٧٥ م.
- ١٤- شرح ديوان جرير، محمد إسماعيل الصاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ١٥- شرح ديوان لبيد، تحقيق د. إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت-١٩٦٢ م.
- ١٦- شرح المفصل، موفق الدين بن يعيش، مكتبة المتنبي، القاهرة.
- ١٧- الصحاحي في فقه اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: محمد الشومبي، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت-١٩٦٩ م.
- ١٨- الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- ١٩- الكشاف، أبو القاسم محمود الزمخشري، دار المعارف، بيروت.
- ٢٠- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١-١٩٨١ م.
- ٢١- معاني القرآن، يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، ط ٢-١٩٨٠ م.
- ٢٢- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، ابن هشام المصري، تحقيق: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، ط ٢-١٩٦٩ م.
- ٢٣- المقتضب، أبو العباس المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عضية، عالم الكتب، بيروت.

دور الحيوان في التعبير عن التجربة الجاهلية حمار الوحش نموذجًا

د. سليمان الطعان(*)

لم يكن العرب أصحاب حضارة زراعية يُعتد بها، لأن البيئة الجاهلية لم تكن تسمح لأصحابها بالزراعة إلا في بعض الأمكنة الخصيبة كيثرب والطائف، ولهذا قام عماد الحياة الاقتصادية على الرعي، فكان من البدهي أن يحوز الحيوان لديهم مكانة سامية عالية، وأن يعتنوا به كثيرًا، لأنه الوسيلة التي يعتاشون منها. فقد عرف العرب الإبل منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد واستطاعوا تحويلها إلى حيوانات أهلية. ويبدو أثر الحياة الرعوية واضحًا من اهتمام القرآن الكريم بالحيوان أكثر من اهتمامه بالنبات والأشجار. ولعلّ في أسماء سُور البقرة والأنعام ما ينهض دليلاً على الدور الذي كان للحيوان في الحياة العربية حينذاك. كما أنّ الإشارات إلى الحيوان بجميع صنفه تتوالى في كل السور تقريبًا، لضرب العظة والعبرة، والدلالة على قدرة الخالق وجلاله. أضف إلى ذلك تلك الإشارة الواضحة إلى أثر الحيوانات في حياة العرب، قال تعالى^(١): ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿١٦٧﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْبِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٨﴾ وَالْحَيْلَ وَالْبَعَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾.

(*) عضو الهيئة التدريسية في كلية الآداب بجامعة حمص.

(١) سورة النحل الآيات ٥-٨.

وتأسيسًا على هذا الدور المهم، وجدنا الحيوان يأخذ حيًّا كبيرًا من حديث الشعراء، وهو حيز يتناسب وأهمية الحيوان في الحضارة الجاهلية. ويذهب بعض الباحثين إلى أن لهذه الحيوانات دلالات تتصل بأديان العرب القديمة، فقد عبَدَ العرب ثلوثًا مكونًا من الشمس أمًّا والقمر أبًا وابنهما الزهرة، وربطوا على سبيل المثال بين الثور الوحشي والقمر، وجعلوا منه رمزًا للإله «ود»^(٢).

ولا بد من الإشارة إلى أن بقايا النظام الطومني ظلت موجودة لدى الجاهليين، نلاحظ ذلك في أسماء القبائل، مثل: أسد وکلب ویربوع، وفي أسماء الأعلام الأفراد، مثل: ثور ودعبل^(٣) وحمار وغير ذلك.

ويبدو أن النظام القبلي في جوهره استمرار للنظام الطومني الذي يقوم على اعتقاد مجموعة من الناس أنهم ينحدرون من طوتم خاص بهم، يجلونه ويمتنعون عن قنصه وأكله، بل يصل الأمر بهم أحيانًا إلى عدم لمسهِ والإشارة إليه باسمه الحقيقي توقيفًا واحترامًا^(٤). ويؤدي هذا الأمر إلى التزامات متبادلة بين أفراد القبيلة أنفسهم، ولكن النظام الطومني يزول مع مرور الأيام ويبقى النظام الاجتماعي الذي يربط الأفراد فيما بينهم.

ومهما يكن من أمر، فإن كثرة ورود الحيوانات في القصيدة الجاهلية لا يعني أنّ لها أهمية دينية، بمقدار ما يعني أنّ لها أهمية في حياة الإنسان الذي يستعملها. فللحيوان صلة وثيقة بالأساطير والأديان، إلا أنّ ذكر الشعراء لها لا ينبع من ارتباطها بالمقدسات الدينية. ولذلك فإننا سنتجه إلى البحث عن العلة الكامنة خلف ظهور الحيوانات واختفائها، وتبيان أثر ذلك في البنية الكلية للقصيدة. إننا لا نعتقد - كما يذهب إلى ذلك يوسف

(٢) الصورة في الشعر العربي، علي البطل، ٤٥.

(٣) الدُعبل: الناقة القوية الفتية الشديدة أو المسنة.

(٤) موسوعة الميثولوجيا والأديان العربية قبل الإسلام، أحمد الخليل، ٢٢٩-٢٣٠.

اليوسف - أن علة النزوع نحو تشخيص (Characterization) الحيوان في القصيدة الجاهلية هي أنّ الجاهلي حيوان يسير في طور الإنسانية، ولا أنه كائن يحتوي نسبة عالية من الحيوانية^(٥). ولكن هذا النزوع يدل على التحام الجاهلي بالطبيعة، وعلى أن الحيوان يمثل معادلاً للذات الشاعرة، وستاراً تلقي عليه ما تريد هي أن تتخفف منه، أو تحجل من إظهاره.

دور حمار الوحش في القصيدة الجاهلية:

تبدو قصة حمار الوحش تعبيراً عن حالة الشاعر النفسية من جهة، وموقفه من الحياة من جهة ثانية. ويتوسل الشاعر بهذه القصة للتعبير عن الوجود، وجوده ووجود الآخرين، وللتعبير عن فهمه الذي يتحكم به منطق الحياة الجاهلية وموقفه من هذه الحياة نفسها.

والظاهر أن الشاعر الجاهلي كان يصور في هذه القصة حياة الإنسان بأكثر مما كان يصف الحيوان وطريقة عيشه. وآية ذلك أن الشاعر يستعير مفردات معجم الأسرة، للدلالة على العلاقة بين الحمار وأُثْنِهِ، فنراه يسمّي أُنَّ الحمار بـ «حلائله»، أي: زوجاته اللواتي يجلن له، كما في قول زهير بن أبي سلمى^(٦):

فَبَيْنَا نُبْعِي الْوَحْشَ جَاءَ غُلَامُنَا يَدِبُّ وَيُخْفِي شَخْصَهُ وَيُضَائِلُهُ
فَقَالَ: شِيَاءَ رَاتِعَاتٍ بَقْفَرَةٍ بِمُسْتَأْسِدِ الْقُرْيَانِ حُوٌّ مَسَائِلُهُ
ثَلَاثٌ كَأَفْوَاسِ السَّرَّاءِ وَنَاشِطٌ قَدْ أَحْضَرَّ مِنْ لَسِّ الْعَمِيرِ جَحَافِلُهُ
وَقَدْ حَرَّمَ الطَّرَادُ عَنْهُ جِحَاشَهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفْسُهُ وَحَلَائِلُهُ

(٥) مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، ١٥٨.

(٦) الإيمان، ١٠٥-١٠٦. الحو: النبات يضرب إلى السواد. المسائل: مسائل الماء. اللس: الأخذ

ويرى امرؤ القيس أن هذه الأثن ضرائر يجمعها حمار فظ، خشن العشرة والسلوك، يقول^(٧):

أرَنَّ على حُقْبِ حِيَالٍ طَرُوقَةٍ كَدَوْدِ الْأَجِيرِ الْأَرَبِ الْأَشْرَاتِ
عَنِيفٍ بَتَّحْمِيعِ الضَّرَائِرِ فَاحِشٍ شَتِيمٍ كَذَلِقِ الرَّجِّ ذِي ذَمَرَاتِ

وينحو الأعشى منحى امرئ القيس، من حيث تصويره للبعد النفسي في علاقة حمار الوحش بأثنته، يقول^(٨):

تَرَاهَا كَأَحْقَبِ ذِي جُدَّتَيْهِ مِنْ يَجْمَعُ عَوْنًا وَيَجْتَاهُهَا
نَحَائِصَ شَتَّى عَلَى عَيْنِهِ حَلَائِلَ لَمْ يُؤْذِهِ مَاهُهَا
عَنِيفٌ وَإِنْ كَانَ ذَا شِرَّةٍ يَجْمَعُ الضَّرَائِرَ شَالَاهَا

وتصوّر قصة حمار الوحش أيضاً دورة الفصول التي تتعاقب على القبيلة، أو على المجتمع الرعوي عامة، وبحث هذا المجتمع عن وسائل العيش والحياة، ولذلك نستطيع أن ندّعي أنها صورة مصغرة لحياة القبيلة. وتبدأ هذه القصة في موسم الربيع، فنجد الحمار يحيا حياة رغد وهناء مع قطع الأثن، وقد يصوره الشعراء وحيداً، منفرداً عن بقية أفراد القطيع، يرعى وأتانه التي ظفر بها بعد طول ممانعة وصدود في مكان خصيب كثير العشب والماء. يقول الأعشى^(٩):

عَرْنَدَسَةٌ لَا يَنْقُضُ السَّيْرُ عَرَضَهَا كَأَحْقَبِ بِالْوَفْرَاءِ جَابٌ مُكَدَّمٌ

(٧) ديوانه، ٧٩-٨٠. أرَنَّ: صوّت. الحِيَال: جمع حائل، وهي التي لم تحمل. الذود: من الإبل من الثلاث إلى العشر. الشتيم: القبيح. ذلق الرج: حدّه.

(٨) ديوانه، ١٦٥. الأحقب: حمار الوحش. الجدة: الطريقة والعلامة. النحوص: الحائل غير الحامل. الشرة: الحدة. الضرائر: النساء يجمع بينهن زوج واحد. الشل: الطرد.

(٩) شرح شعره، ١١٩-١٢١. عرندسة: شديدة. الغرض: حزام الرجل. جاب: غليظ. الدو:

الصحراء. السقبة: الجحشة. القوداء: المنقادة. يعدم: يعض. الشد: العدو.

رعى الرّوضَ والوسْجِيَّ حتى كَأْتَمَا يرى ببَيْسِ الدَّوِّ إِمْرَارَ عُلْمِ
تلا سَقْبَةً قوداءَ مَشْكوكَةَ القَرَى متى ما تُخالفُهُ عن القَصْدِ يَعدِمُ
إذا مادنا مِنْها التَّقْتَهَ بِحَافِرٍ كأنَّ له في الصِّدْرِ تَأثيرَ حُجْمِ
إذا جَاهَرْتُهُ بالفِضَاءِ انبَرى لها بشدِّ كِهْلَابِ الحَرِيقِ المِضْرَمِ

وليس هذا الحيوان إلا رمزًا للشاعر نفسه، وقد ظفر بزوجة وهو في ريعان شبابه، بعد أن عانى الكثير من المشقة للظفر بحبها، كما تفعل المرأة دائمًا في بداية كل علاقة غرام معها. كما أنه ينعم بالعيش وسط الجماعة التي يتخذ لها القطيع رمزًا، وتلك دلالة واضحة على الطمأنينة التي تحيط بالإنسان الجاهلي حينما يعيش في ظل قبيلة يشعر بالأمن والحماية اللتين توفرهما له.

واعتماد الشعراء بعد ذلك أن يصوروا انقلاب الخصب إلى جدد مهلك، إذ يحلّ فصل الصيف، فينجس المطر، وتحتّ عيون الماء، ويهلك الحُرّ العشب، فيصبح التحول أو الارتحال أمرًا لا مفر منه. يقول لبيد بن ربيعة^(١٠):

فلمّا اعتَقاه الصَّيفُ ماءً ثَمادِهِ وقد زايَلِ البُهْمى سَفا العَرَبِ ناصِلا
ولم يَتَذَكَّرْ مِنْ بَقِيَّةِ عَهْدِهِ مِنَ الحَوْضِ والسُّؤْبانِ إِلا صِلاصِلا
فأجمادَ ذي رَقْدٍ فأَكنافَ ثادِقِ فصارةٌ يُوفى فَوْقها فالأعابِلا
وزالَ النَّسِيلُ عن زَحاليفِ مَتْنِهِ فأصبحَ مُمتدَّ الطَّريقَةَ قافِلا
يُقلِّبُ أطرافَ الأمورِ تَحالُهُ بأحناءِ ساقِ آخَرَ الليلِ ماثِلا

(١٠) ديوانه، ٢٣٦-٢٣٧. اعتقاه: حبسه. الثماد: الحفر فيها الماء القليل. العرب: شوك البهيمى.

الصلاصل: بقايا الماء. العهد: أول المطر. رقد: جبل. ثادق: ماء. صارة: جبل. النسيل: ما

سقط من الوبر. الزحاليف: المواقع المنحدرة. القافل: العائد.

ويقول أوس بن حجر^(١١):

وأخْلَفَهُ مِنْ كَلِّ وَقَطِ وَمُدْهِنٍ نِطَافٌ فَمَشْرُوبٌ يِيَابٌ وَنَاشِفٌ
وَحَبٌّ سَقًا قُرْيَانِهِ وَتَوَقَّدَتْ عَلَيْهِ مِنَ الصَّمَانَتَيْنِ الْأَصَالِفُ
فَأَضْحَى بِقَارَاتِ السَّتَارِ كَأَنَّهُ رَيْبُهُ حَيْشٌ فَهُوَ ظَمَانٌ خَائِفُ

ههنا نجد أن علة ارتحال الإنسان عن دياره، وارتحال حمار الوحش عن مرعاه، تعود إلى سبب واحد هو الجذب، ولذا فإن تشابهاً كبيراً يجمع بين المصيرين: مصير الإنسان الفرد، ومصير حمار الوحش. فالقيظ الذي يجبر القبيلة على الارتحال هو ذاته الذي يجبر حمار الوحش على ترك مراعيه، والبحث عن أمكنة جديدة للعيش.

إلا أن هناك خلافاً سائراً بين هذين المصيرين. فحمار الوحش يرتحل عن الديار مبتعداً بأثانه عن الخطر الذي يحيط بها وبجنينها، والذي يتجسد في الحمر الأخرى التي قد تنال أثنائه، وتقضي على الجنين قبل تمام نموه وولوجه عالم الحياة. يقول لبيد بن ربيعة^(١٢):

أَوْ مُلْمِعٌ وَسَقَتْ لِأَحْقَبٍ لَاحَهُ طَرْدُ الْفُحُولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَائِمُهَا
يَعْلُو بِهَا حَدَبَ الْإِكَامِ مُسَحَّجًا قَدْ رَابَهُ عِصْيَانُهَا وَوِحَامُهَا
بَأَحْزَةِ التَّلْبُوتِ يَرِيأُ فَوْقَهَا قَفَرَ الْمَرَاقِبِ خَوْفُهَا آرَامُهَا

وقد يتمثل هذا الخطر في الجفاف أو الصيد الذي يترص بالحمار وأثانه. يقول

(١١) ديوانه، ٦٨. الوقط: حفرة في الجبل يجتمع فيها الماء، ومثلها المدهن. حب: ارتفع. القرين:

جمع قري وهو مسيل الماء. الأصلف: المكان الذي لا ينبت.

(١٢) ديوانه، ٣٠٤-٣٠٥، شرح المعلقة العشر، ١٧٤-١٧٦. الأحقب: الحمار الوحشي.

والملمع: أثنائه. الحدب: ما ارتفع من الأرض. الإكام: الجبال الصغار. مسح: مععض.

يرياً: يعلو.

زهير بن أبي سلمى^(١٣):

صافا يَطُوفُ بها على قُلَلِ الصُّوَى وَشَتَا كَذَلِقِ الرُّجِّ غَيْرِ مُفَهَّدِ
خافا عَمِيرَةَ أَنْ يُصَادَفَ وَرَدَهَا وَاِبْنُ الْبُلَيْدَةِ قَاعِدٌ بِالْمُرْصَدِ
صافا يَطُوفُ بها على قُلَلِ الصُّوَى وَشَتَا كَذَلِقِ الرُّجِّ غَيْرِ مُفَهَّدِ
فَأَجَارَهَا تَنْفِي سَنَابِكُهُ الْحَصَا مُتَحَلِّبُ الْوَشَلَيْنِ قَارِبُ ضَرْغَدِ

وليس هذا الصياد على وجه التحقيق إلا القبيلة التي تتربص بالشاعر ومحبوبته، والتي ينهي رحيلها علاقة الحب بينهما، أو قل: إنه الزمن ذاته الذي يفرق بين الشاعر ومحبوبته، ويحاول ههنا أن يقضي على حمار الوحش وأتانه.

وإذن، فإن الخلاف بين مصير الإنسان الفرد ومصير الحيوان هو أن الأتان ترتحل مع حمار الوحش، أي: يرتحل الذكر والأنثى معاً، للمحافظة على الجنين الذي تحمله الأنثى. وفي هذا اختلاف واضح بين حمار الوحش وأتانه، والشاعر (الإنسان) وأتانه. فالعلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة غرام ومحبة، لا علاقة زواج وإنجاب، ولذلك يغيب عالم الطفولة عن القصيدة الجاهلية غيابةً شبه تام، والقصيدة الوحيدة التي يُذكر فيها الأطفال هي قصيدة رثاء لهم. وهي قصيدة أبي ذؤيب العينية.

ولا نظن أننا نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا: إن الشاعر الجاهلي يرى الحياة الأسرية في عالم الحيوان أكثر دفئاً ومودة من تلك الحياة التي يحياها البشر، وإن الحيوانات التي تعيش وفق غريزتها لا تعاني الكبت الجنسي الذي نشاهد آثاره في أثناء تصوير العلاقة بين الرجل والمرأة.

ويبدو أنّ حمل الأتان إيجاءً بالنهاية السعيدة للرحلة، ورمز لحياة الخصب والراحة التي سيحدها حمار الوحش وأتانه، حينما يصلان مورد الماء. وهذا ما نخالف به كمال

(١٣) شرح شعره، ١٩٥-١٩٦. صافا: أقاما في الصيف. قلال الصوى: رؤوسها. مفهد: سمين. عميرة وابن البليد: الصائد الخبير، وهما واحد. متحلب الوشلين: يسيل العرق من لبيته.

أبو ديب الذي يقع في خطأ بيّن، حينما يرى أن حمل الأتان علامة ضعف واعتلال^(١٤). ومصدر هذا الخطأ أنه يقيس الأتان بالناقة التي يرحل عليها الشعراء، والتي درجوا على نعتها بأنها غير حامل، لتستطيع تحمل الرحلة الشاقة. وقد غاب عن كمال أبو ديب أن إصرار الشعراء على وصف الناقة التي يمتطونها بأنها غير حامل يعود إلى أن الأنتى الحامل لا تقوى على تحمل مشاق الرحلة، ولذلك لا يكلفها المرء فوق قدرتها كأن يركب عليها مثلاً.

أما في حالة حمار الوحش وأثناه فإنّ هروبهما يعود في جزء منه إلى أنهما يحاولان المحافظة على الجنين القادم، حتى إنّ الحمار يبعد عن أتانه أولادها الصغار. يقول لبيد بين ربيعة^(١٥):

أذلك أم عراقِي شَتِيمٌ أَرَنْ عَلَى نَحَائِصِ كالمِقَالِي

نَفِي جِحَشَها بِجِمَادٍ قَوٌّ خَلِيطٌ ما يُلامُّ على الزَّيَالِ

ويصف الشعراء بعد ذلك رحلة الحمار وأتانه نحو موارد الماء، ولكنهم ينحازون إلى جانب الحمار الذي يظهر أكثر ذكاءً وفطنة من الأتان، والذي يأتي في مقدمة الصورة التي تتوارى خلفها الأتان، رمزاً لقدرة الذكر على الانتصار، وتفوقه على الأنتى.

يقول لبيد بن ربيعة^(١٦):

حَتَّى إِذَا سَلَخَا جُمَادَى سِتَّةً جَزَأَ فطالَ صِيامُهُ وِصِيامُها

(١٤) الرؤى المقنعة، كمال أبو ديب، ٩٧.

(١٥) ديوانه، ٨١. العراقي: الحمار يأتي العراق. المقالي: العصي. الخليط. المخالط. ما يلام على الزبال: ما يلام على أن لا يكون معه فحل.

(١٦) ديوانه، ٣٠٥-٣٠٦. شرح المعلقات العشر، ١٧٦-١٧٩. الصريمية: العزيمة. السبط: الغبار.

الممتد. المشعلة: النار المشتعلة.

رَجَعَا بِأَمْرِهِمَا إِلَى ذِي مِرَّةٍ حَصِيدٍ وَبُحْخُوحٍ صَرِيمَةٍ إِبْرَاهِمَهَا
 وَرَمَى دَوَابِرَهَا السَّفَا وَهَيَّجَتْ رِيحُ الْمَصَايِفِ: سَوْمُهَا وَسَهَامُهَا
 فَتَنَّا زَعَا سَبِطًا يَطِيرُ ظِلَالُهُ كَدُخَانٍ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرَامُهَا
 مَشْمُولَةٌ غُلَّتْ بِنَابِتٍ عَرَفَجٍ كَدُخَانٍ نَارٍ سَاطِعٍ إِسْنَامُهَا

ويرى محمد النويهي أن الشعراء الجاهليين عمومًا يصورون الأتن غبية، قصيرة النظر، لا تفهم ما ينفعها وما يضرها، فهي تريد البقاء في المكان القديم على نضوبه أو إشرافه على النضوب. أما الحمار فهو وحده الحكيم البعيد النظر الذي يدرك حاجتها إلى مورد جديد، فهو لا يكثرث لممانعتها ويرغمها على أن تمضي معه، وينفق كل جهده وحيئلته في منعها من الهرب في أثناء الرحلة. وربما كان هذا يحدث حقًا من الأتن، ولكن في وصف الجاهليين لسلوكها تحيزًا قويًا إلى صف الحمار الذي تجمعهم به جامعة الذكورة المضادة للإناث الغبيات^(١٧).

ونضيف إلى ما قاله النويهي أن هذا الانحياز إلى جانب «الذكر» له ما يُسوّغُه، فقد خالفت المرأة الرجل «الشاعر»، وارتحلت عنه غير آبهة لعلاقة الوصال والمحبة التي تجمعهما، ولو أنها أطاعته لحصولها على السعادة والحياة الهنيئة، مثلما حصل عليها حمار الوحش وأتانه، حينما انقادت الأتان له وتركت أهواءها جانبًا.

ثم تكون نهاية الرحلة بالوصول إلى غدران الماء التي لم يكدر صفاءها أحد. وهذه النهاية تماثل رحلة الطعّان التي تلقي رحالها بجانب غدير ماء عذب. يقول أوس بن حجر^(١٨):

تَذَكَّرَ عَيْنًا مِنْ عُمَازَةَ مَاؤَهَا لَهُ حَبٌّ تَسْتَلُّ فِيهِ الزَّخَارِفُ

(١٧) الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه، محمد النويهي، ٢/٤٨٤ وما بعدها.

(١٨) ديوانه، ٦٩. عمّازة: بئر معروفة. الزخارف: ذباب صغير يطير فوق الماء. الثأد: الندى.

له ثأدٌ يَهْتَرُ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مُخَالِطٌ أَرْجَاءِ الْعَيُونِ الْقَرَّاطِفُ
فَأَوْرَدَهَا التَّقْرِيبُ وَالشَّدُّ مِنْهَا قَطَاهُ مُعِيدٌ كَرَّةَ الْوَرْدِ عَاطِفُ
ويقول لبيد بن ربيعة^(١٩):

فَتَضِيْفًا مَاءً بَدَخِلِ سَاكِنًا يُسْتَنُّ فَوْقَ سَرَاتِهِ الْعُلْجُومُ
عَلَاً تَضَمَّنَهُ ظِلَالٌ يِرَاعِيَّةٌ عَرَقِي ضَفَادِعُهُ لَهْنٌ نَائِمٌ
فَمَضَى وَضَاحِي الْمَاءِ فَوْقَ لِبَانِهِ وَرَمَى بِهَا عُرْضَ السَّرِيِّ يَعْومُ

ويبدو وصول حمار الوحش وأتانه إلى الماء إشارة واضحة إلى قدرة الشاعر على المحافظة على دوره الأبوي، وقيامه بواجبات الأبوة خير قيام، من خلال الانفراد بالأنثى التي يريدها، والحفاظ على الجنين الذي استقر في أحشائها من عدوان الآخرين، والوصول بها إلى حيث تجد الراحة والأمان. ويبدو أيضاً أن ما لم يستطع الشاعر تحقيقه مع المرأة يعوضه من خلال صورة حمار الوحش وأتانه، فهذا المشهد قد يكون تفريراً للدور الأبوي المحض لارتحال طرف العلاقة الآخر.

بيد أن نهاية الرحلة لا تكون دون وجود عقبات، فقد يجد حمار الوحش وأتانه عند غدران المياه صياداً، يربض في وكره قريباً من مورد الحيوانات، بانتظار وصول صيد يسوقه العطش، فيرمي من كنانته بسهم، ولكن السهم يخطئ مقصده دائماً. يقول عمرو بن قميئة^(٢٠):

فَأَوْرَدَهَا عَلَى طِمْلٍ يَمَانٍ يُهْلُ إِذَا رَأَى لَحْمًا طَرِبًا

(١٩) ديوانه، ١٣٠. الدحل: غار يكون في أصل الجبل. سراته: ظهره. العلجوم: الموج. ضاحي الماء: أعلاه.

(٢٠) ديوانه، ١٤٨ وما بعدها. الطمل: الماء الكدر. شريانة: قوس. تنخلها: تخيرها. النفي: القدح. الصوادي: العطاش. تبوأ: نزل. المنقعض: الملتوي. رثيم: فيه دم.

له شِرْيَانَةٌ شَعَلَتْ يَدَيْهِ وكان على تقلدِها قَوِيًّا
 وَزُرْقٌ قَدْ تَنَحَّلَهَا لَقْضِبٍ يشدُّ على مناصبِها النَّضِيًّا
 تَرْدَى بُرْزَةً لِمَا بَنَاهَا تبوءُ مقعدًا منها خَفِيًّا
 فلما لم يَرَيْنَ كثيرَ دُغْرٍ وردنَ صَوَادِيًّا وَرَدًّا كَمِيًّا
 فَأَرْسَلَ والمَقَاتِلِ مُعَوْرَاتٍ لما لاقَتْ دُعَاً يَثْرِيًّا
 فَتَحَرَ النَّصْلُ مُنْفَعِضًا رَثِيمًا وطَارَ القِدْحُ أَشْتَاتًا

وإذا كان المجتمع القبلي قد استطاع التفرقة بين الشاعر والأنتى، فإنه هنا متمثلاً بالصياد أخفق في القضاء على الحياة الأسرية التي يتخذ لها الشاعر هذين الحيوانين رمزاً، لأن الشاعر يريد من وراء هذه القصة التعبير عن مشاعره الدفينة حيال حاجته الماسة إلى أسرة يعيش في كنفها، أو امرأة يتزوجها.

على أن المشهد ينتهي بنجاحة حمار الوحش وفراره، وعودة الصياد إلى زوجته وأولاده، ليخبرهم بما كان من أمره، فنجد خيبة ظنوتهم به، وضياع ثقتهم بأنه سيحلب لهم طعاماً يدفعون به غائلة جوعهم.

يقول عمرو بن قميئة^(٢١):

وعَضَّ على أَنَامِلِهِ لَهِيْفًا ولاقى يَوْمَهُ أَسْفًا وَغِيًّا
 وراحَ بِحَجْرَةٍ لَهْفًا مُصَابًا يُنَبِّئُ عِرْسَهُ أَمْرًا جَلِيًّا
 فلو لَطَمَتْ هناكِ بذاتِ حَمْسٍ لكانا عِنْدَهَا جِئْنِي سِيًّا
 وكانوا واثِقِينَ إذا أتاهُمْ بلحْمٍ إنْ صَبَاحًا أو مُسِيًّا

يذهب وهب رومية إلى أن شخصية الصياد ليست شخصية أساسية في مشهد حمار الوحش، ولكنها شخصية ثانوية يصعب رسم حدود ثابتة لها، ويصعب أيضًا تحديد

(٢١) ديوانه، ١٥٣-١٥٤ الحرة: العطش. الحتن: المثل.

دور محدد لها، إنها لا تحضر باستمرار فقد تغيب غيابًا كاملاً، أو غيابًا يوشك أن يكون كاملاً، فلا نعثر على شيء منها سوى اسمها أو خوف الأتن منها^(٢٢).

إنها ثنائية الهزيمة والانتصار، نصادفها في مشهد حمار الوحش، كما نصادفها في المجتمع القبلي. وإذا كانت الهزيمة نتيجة قلة الماء وجفافه في الحالتين، فإنّ هناك بونًا شاسعًا في طريقة الانتصار، فحمار الوحش يرتحل بأتانه بعيدًا عن قطع الحيوانات للنجاة من الموت، ولحماية بذرة الحياة التي أودعها جسد الأتان. وأما القبيلة فترحل مجتمعة نحو وجهتها الجديدة.

وإذا كنا قد رأينا في مشهد حمار الوحش تصعيدًا للرغبة الذاتية لدى الشاعر بتكوين أسرة، فإنّ هذا يدفعنا إلى القول: إن الشاعر الجاهلي يرى في النظام القبلي قوة مدمرة للأسرة، وإن بناء الأسرة يتطلب الابتعاد عن النظام القبلي الذي تؤلّف القبيلة لا الأسرة نواته الأساسية. فالشاعر يحاول الابتعاد عن غريزة القطيع التي تحكم السلوك القبلي. وآية ذلك أن حمار الوحش وأتانه يرحلان منفردين بحثًا عن الماء، وطلبًا للنجاة دون بقية أفراد القطيع، مع أنّ البحث الجماعي عن موارد المياه وأمكنة الرعي غريزة متأصلة في السلوك الحيواني. أما القبيلة فتشبه في سلوكها الحيوانات حينما تغادر ديارها مجتمعة بحثًا عن مكان جديد للحياة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الماء يبرز مرة أخرى عنصرًا مهمًا في القصيدة، ودعامة أساسية من دعائم الحياة الجاهلية. فالجفاف، الذي أحال خضرة المراعي ونضارتها إلى هشيم تذروه الرياح، هو الذي يُجبر حمار الوحش على الهجرة وترك الأمكنة اليابسة، وهو أيضًا الذي يجبر سكان البادية على التنقل بحثًا عن مواطن الكأ والماء.

(٢٢) الرحلة في القصيدة الجاهلية، وهب رومية، ١٤٣.

وإذن، فمشهد حمار الوحش صورة رمزية لحياة القبائل العربية التي تضطرها دورة الحياة الموسمية إلى الرحيل المستمر، والهجرة الدائمة. ولعلّ تكرار هذا المشهد هو الذي دفع «علي البطل» إلى الاعتقاد أنّ ما بقي من صورة الحمار الوحشي في الشعر يكون ملامح من أسطورة مفقودة تتصل بدورة الشمس، وبخاصة في وقت الانقلاب من الربيع إلى الصيف، وهو الوقت الذي ينمو فيه النبات حتى يصوّح^(٢٣). إذ إنّ هذه الرحلة تبدأ بانتهاء الربيع ووقوم الصيف، وهي المدة التي تسيطر فيها الشمس على الأرض، فيجف الماء ويذبل العشب. كما أن هدف الرحلة - وهو الوصول إلى الماء - يذكّرنا بتلك الأساطير التي ظهرت في بلاد الرافدين، والتي كان الحصول على الماء فيها هو هدف الأسطورة ومنتهاها.

حمار الوحش في المراثية:

تنطلق المراثة من رؤية مطلقة بعشية الصراع من أجل البقاء والاستمرار، رؤية تتشح بالسواد والحزن والفجيعة. ولا تكتفي المراثة بحزنها الخاص، وإنما تحاول أن تلقي رداء حزنها على الوجود، الذي يصبح مجالاً لتصوير الفناء القادم. وتتضح هذه الرؤية بتصوير القوة والحيوية والمنعة في ذروة اكتمالها، ثم تجسّد انهيّارها المفجع أمام الموت. ولذلك نجد حمار الوحش مثلاً للحيوية والقوة، فهو ذكر له أربع آتن، يعيش معهن حياة هائلة لا يكدرها شيء إلا ما يكون من جفاف المياه. يقول أبو ذؤيب الهذلي^(٢٤):

(٢٣) الصورة في الشعر العربي، ١٤٤.

(٢٤) ديوان الهذليين، ٤-٥. الجون: الأسود. الجدائد: الأتن. الصّخب: الصّباح. الشوارب: مخارج الصوت في الحلق. السمحج: الأتان. يعتلجن: يتضاربن. جزرت: نقصت. الرزون: الأمكنة المرتفعة.

والدهرُ لا يَيْقَى على حَدَثَانِهِ جَوْنُ السَّرَاةِ له جَدَائِدُ أَرْبَعُ
صَحْبُ الشَّوَارِبِ لا يَزَالُ كَأَنَّهُ عَبْدُ لَالِ أَبِي رَبِيعَةَ مُسْبَعُ
أَكَلِ الجُمَيْمِ وطَاوَعْتُهُ سَمَحَجُ مِثْلُ الفَنَاءِ وَأَزَعَلْتُهُ الأَمْرُغُ
بَقَرَارِ قِيَعَانٍ سَقَاهَا وَاِبْلُ وَاِهٍ فَأَنْجَمَ بَرْهَةً لا يُفْلِعُ
فَلِبِثْنِ حِينًا يَعْتَلِجُنْ بَرُوضَةَ فَيَجِدُ حِينًا فِي العِلاجِ وَيَشْمَعُ
حَتَّى إِذَا جَزَرَتْ مِيَاهُ رُزُونِهِ وَبِأَيِّ حِينٍ مِلاوَةٍ تَتَقَطَّعُ

يرى كمال أبو ديب أن الشاعر يلجأ إلى تعميق التشابه بين المصيرين: الإنساني والحيواني، حينما يشبّه الحيوان بالعبد، لأن المؤلف الشائع هو تشبيه الإنسان بالحيوان لا العكس، وأن صورة الحمار تفيض حيوية، لأنه يرعى مع أتنه في مكان آمن كثير العشب، ولأن فحولته تظهر في قدرته على حيازة مجموعة من الإناث، فنرى الأتن تطيعه ولا تجرؤ على مخالفة أمره، على النقيض مما هو مألوف في هذا الموضوع، إذ نجد الأتان تتأبى على الذكر وتتمنع عليه^(٢٥).

ولكن سياق الخصب، الذي يعيش فيه حمار الوحش وأتنه، لا يلبث أن ينقلب رأساً على عقب، كما في كل مظاهر الحياة الجاهلية التي لا نجد فيها أبداً دوام الفرح، ولا استمرار السعادة، وحينئذ تدفع الغريزة حمار الوحش إلى البحث عن مواضع الماء التي عرفها من قبل.

يقول أبو ذؤيب الهذلي^(٢٦):

دَكَرَ الوُرُودَ بِهَا وشَاقَى أَمْرَهُ شُؤْمٌ وَأَقْبَلَ حِينَهُ يَتَّبَعُ
فَافْتَنَّهُنَّ مِنَ السَّوَاءِ وَمَاؤُهُ بَثْرٌ وَعَانَدَهُ طَرِيقُ مَهْيَعُ

(٢٥) الرؤى المقنعة، كمال أبو ديب، ٢١٤.

(٢٦) ديوان الهذليين، ٥-٦. افتنهن: طردهن. السواء: المرتفع. البثر: الكثير. المهيع: الواسع.

وتبدأ بعد ذلك نذر الموت، إذ يتناهى إلى مسمع الحمار وأتته ما يدل على وجود صياد حول عين الماء، فيهمُّ الحمار وأتته بالهرب، ولكن حتمية الموت تسوق الحمار وإحدى الأتن إلى الجهة التي يكمن فيها الصياد، لتكون النهاية بقتل حمار الوحش. يقول أبو ذؤيب^(٢٧):

فَشْرِبْنَ ثُمَّ سَمِعْنَ حِسًّا دُونَهُ	شَرَفُ الْحِجَابِ وَرَيْبُ قَرْعٍ يُقْرِعُ
وَنَمِيمَةً مِنْ قَانِصٍ مُتَلَبِّبٍ	فِي كَفِّهِ جَشٌّ أَجَشُّ وَأَقْطُعُ
فَنَكِرْتَهُ فَنَقَرْنَ وَامْتَرَسَتْ بِهِ	سَطْعَاءُ هَادِيَةٌ وَهَادٍ جُرْشُعُ
فَرَمَى فَأَنْقَدَ مِنْ بَجُودِ عَائِطٍ	سَهْمًا فَخَرَّ وَرَيْشُهُ مُتَصَمِّعُ
فَأَبَدَهُنَّ حُتُوفَهُنَّ فَهَارِبٌ	بَدَائِمُهُ أَوْ بَارِكٌ مُتَجَعِّعُ
يَعْتُرْنَ فِي حَدِّ الطُّبَاتِ كَأَمَّا	كُسَيْتُ بُرُودَ بَنِي يَزِيدَ الْأُدْرُعُ

إنَّ حمار الوحش لا يستطيع القتال ولا الدفاع عن نفسه، والصياد لا يحتاج إلى كلاب مدربة على الصيد، وإنما يستعين بالمراوغة والخداع. وما أشد شبه الإنسان الجاهلي في باديته بحمار الوحش! بل لنقل: إن هذا الصياد هو التجسيد الواضح للنظام القبلي وقسوته. فالتحديات التي تواجه الحمار، كشدّة الحر، وجفاف الماء، وقلة الكالأ، هي الرموز الناطقة عن العقبات والصعاب التي تواجه الإنسان الجاهلي في بيئته.

وجدير بالذكر أن التغيير ينبثق من قلب الرخاء والخصب والحيوية، فيفاجئ جماعة متكاملة أو أسرة متكاملة فيها الذكر وإناثه. ويقود هذا التحول الجماعة إلى البحث عن أمكنة جديدة للعيش، تعود الحيوانات إليها عودة القبيلة إلى منابع الماء ومواطن الكالأ.

(٢٧) نفسه، ٧-١٠. النميمة: صوت الوتر. الجشء: قضيب خفيف. أجش: غليظ الصوت.

السطعاء: الطويلة العنق. جرشع: منتفخ الجنين. النجود: الأتان الطويلة.

هذا، ويدل إخفاق حمار الوحش في أن يلقح إحدى هذه الأتن الأربع، وانقراضه في نهاية المطاف على يدي الصياد، على إخفاق الشاعر في المحافظة على النسل والأولاد من خلال القيام بواجبه الأبوي. كما أن انقراض حمار الوحش رمز لانقراض الشاعر واندثار سلالته. فحمار الوحش في مراثية أبي ذؤيب له أربع أتن، ولكنه لم يستطع التوالد، على خلاف ما هو موجود في بقية القصائد التي يكون لحمار الوحش فيها أتان واحدة، ينجح في إلقاحها.

وإذا علمنا أن قصيدة أبي ذؤيب أنشئت في تلك المرحلة الانتقالية في الحياة العربية، أي: أواخر العصر الجاهلي وبدايات العصر الإسلامي، بدا واضحاً أن الموازة بين الشاعر وحمار الوحش لها ما يبررها ويسندها. فإذا كان للإنسان الجاهلي امرأة واحدة، فإن الإسلام قد أحلّ للفرد أن يتزوج بأربع نساء، رمز الشاعر لهن بأربع أتن، ومن المعلوم أن اتخاذ الحيوان رمزاً للإنسان أمر مألوف في الثقافة العربية، ويكفي دليلاً على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢٨﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَتَّخِفْ خَصْمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاخْتُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٩﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَاِثْنَيْ عَشَرَ نَعِجَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٣٠﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى تِسْعَةٍ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٣١﴾ فَعَفَوْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٣٢﴾﴾ (٢٨).

وقد ذكر النسفي أن داود عليه السلام كانت له نساء كثيرات، ولكنه رأى امرأة جميلة فأراد أن ينزل له زوجها ليتزوجها. ووجه التمثيل أن مثلت قصة داود بقصة رجل

له تسع وتسعون نعجة، ولخليطه نعجة واحدة، فأراد الرجل تمنة المئة، فطمع في نعجة خليطه، وأراده الخروج من ملكها إليه. والنعجة كناية عن المرأة.

مما سبق نجد أن مشهد حمار الوحش في القصيدة الجاهلية تمثيل رمزي لحياة الإنسان الجاهلي في باديته، ولما يواجهه فيها من جذب وقحط. وحقًا كان لحمار الوحش ارتباط بالأساطير القديمة، ولكن هذا الجانب لم يكن هو ما يثير اهتمام الشعراء، وما يدفعهم لاستلهامه في قصائدهم، فقد استعملوا حمار الوحش للتعبير عن التجربة الإنسانية، وللتعبير أيضًا عن دورة الحياة الموسمية التي تجر الإنسان الجاهلي، على الانتقال من مكان إلى آخر، بحثًا عن الماء والكلأ. كما أن الشعراء يأتون بمشهد حمار الوحش، لتبيان عجز الإنسان عن مواجهة الفناء الذي يترصص بالوجود الإنساني، ويظهر هذا جليًا في قصيدة أبي ذؤيب العينية التي يرثي فيها أبناءه.

المصادر والمراجع

- ١- تفسير القرآن الجليل (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، وزارة المعارف العمومية، القاهرة، ١٩٤٢.
- ٢- ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة. دت.
- ٣- ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠.
- ٤- ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١١، ١٩٦٥.
- ٥- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٥، دار المعارف، القاهرة. ١٩٩٠.

- ٦- ديوان المهذليين، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، الدار القومية، القاهرة، ج٢. ١٩٦٥.
- ٧- الرحلة في القصيدة الجاهلية: وهب رومية، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣.
- ٨- الرؤى المقنّعة: نحو منهج بنوي في دراسة الشعر الجاهلي: كمال أبو ديب، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.
- ٩- شرح ديوان ليبد بن ربيعة: حققه وقدم له: إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢.
- ١٠- شرح شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٦.
- ١١- شرح المعلقات العشر: الخطيب التبريزي، تحقيق: فخر الدين قباوة، ط١، دار الفكر، دمشق ١٩٩٧.
- ١٢- الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دت.
- ١٣- الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني للهجرة: علي البطل، ط٣، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣.
- ١٤- مقالات في الشعر الجاهلي: يوسف اليوسف، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٥.
- ١٥- موسوعة الميثولوجيا والأديان العربية قبل الإسلام: أحمد الخليل، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦.

أثر متعلقات الفعل في معناه

أ. محمود الحسن (*)

من الثابت عند النحاة أن الفعل يعمل فيما يدلّ عليه لفظه، كالمصدر والفاعل والمفعول به، أو فيما كان وصفًا لواحدٍ من هذه، سواء كان نعتًا أو حالًا، لأن الوصف هو الموصوف في المعنى،^(١) كما يعمل أيضًا فيما يقتضيه عقلاً من زمان ومكان وعلّة ومُصاحب.^(٢) ويعمل في الجار والمجرور لأنهما قد يُؤديان الوظائف السابقة، كما سيظهر لاحقًا.

فالفعل «ضَرَبَ» مثلاً يقتضي النطقُ به: ضَرَبًا وهو مصدر، وضارِبًا وهو فاعل، ومضروبًا وهو مفعول به، وزمانًا ومكانًا، وعلّة لأنّ عامة أفعال العقلاء تكون محكومة بغرض، وهذا الغرض يُجعل مفعولاً لأجله،^(٣) ومُصاحبًا وهو المفعول معه، إضافة إلى ما كان وصفًا لما سبق. أما المتعلقات الأخرى كالمستثنى والتمييز والتوابع الأخرى والمنادى فمختلفة في العامل فيها. وهي أضعف تأثيرًا في الفعل الصّريح من المتعلقات المذكورة.

وإن التأمّل في العلاقات التركيبية بين الفعل من جهة، ومعمولاته من جهة أخرى،

(*) عضو الهيئة الفنية في مجمع اللغة العربية.

(١) السهيلي: نتائج الفكر في النحو ص ٣٠١.

(٢) الأسترابادي: شرح الكافية، القسم ٢، ص ٧٠٦.

(٣) ينظر العكبري: اللباب في علل البناء والإعراب ١: ٢٧٧.

يُظهر أن تلك المعمولات تتحكّم في معنى الفعل ودلالته. ويتمثّل أثرها إما في تخصيص حدوث الفعل، وإما في تغيير معناه، وتوجيهه وجهة مُخالفة لما هو عليه، ولما يقتضيه في أصل الوضع.

ومن أشار إلى هذه الحقيقة عبد القاهر الجرجاني، حين رأى أن أسماء الجنس، وفيها المصادر، تتأثر بالوصف فتصبح أجناسًا متنوعة، قال: «من شأن أسماء الأجناس كلها إذا وُصفت أن تتنوّع بالصفة، فيصير الرجل الذي هو جنس واحد، إذا وصفتَه فقلت: رجل ظريف، ورجل قصير، ورجل شاعر، ورجل كاتب، أنواعًا مختلفة يُعدُّ كلٌّ منها شيئًا على حدة. وهكذا القول في المصادر تقول: العلم والجهل والضرب والقتل والسير والقيام والقعود، فتجد كل واحد من هذه المعاني جنسًا كالرجل والفرس والحمار. فإذا وصفت فقلت: علم كذا وعلم كذا، كقولك: علم ضروري، وعلم مكتسب، وعلم جليّ، وعلم خفيّ، وضرب شديد، وضرب خفيف، وسير سريع، وسير بطيء، وما شاكل ذلك، انقسم الجنس منها أقسامًا وصار أنواعًا، وكان مثلها مثل الشيء المجموع المؤلّف تُفرِّقه فرقًا، وتُشعبُه شعبًا. وهذا مذهب معروف عندهم، وأصل متعارف في كل جيل وأمة».^(٤)

هذا ما ذكره الجرجاني عن أثر الوصف في جعل اسم الجنس ينقسم أنواعًا متعدّدة. وقد أردتُ أن أعرضه هنا، لأنه يتصل بالظاهرة المقصودة، ويسهم في التمهيد لها وتوضيحها، فالمصدر الذي تتنوّع دلالاته بالوصف هو الأصل الذي اشتقت منه الأفعال، وتنوّع دلالاته بالوصف يُفسّر تنوّع دلالات الفعل المشتق منه بما يُذكر من متعلقاته. إضافة إلى أن كل ما ينطبق على المصدر ينطبق على الفعل المشتق منه، لاشتراكهما في الدلالة على الحدث.

(٤) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز ص ١٩٢ - ١٩٣.

ثم أشار الجرجاني إلى أثر الجار والمجرور والمفعول به في التحكم بمعنى المصدر فقال: «من شأن المصدر أن يُفَرَّقَ بالصَّلَاتِ، كما يُفَرَّقُ بالصفات. ومعنى هذا الكلام أنك تقول: (الضَّرْبُ) فتراه جنسًا واحدًا، فإذا قلت: الضرب بالسيف، صار بتعديتك له إلى السيف نوعًا مخصوصًا. ألا تراك تقول: الضرب بالسيف غير الضرب بالعصا؟ تريد أنهما نوعان مختلفان، وأن اجتماعهما في اسم الضرب لا يوجب اتفاقهما، لأن الصلة قد فصلت بينهما وفرقتها. ومن المثال البيّن في ذلك قول المتنبي:^(٥)

وَتَوَهَّمُوا اللَّعِبَ الوَعَى، وَالطَّعْنَ فِي الـ هَيْجَاءٍ غَيْرِ الطَّعْنِ فِي المِيدَانِ

لولا أن اختلاف صلة المصدر تقتضي اختلافه في نفسه، وأن يحدث فيه انقسام وتنوع لما كان لهذا الكلام معنى، ولكان في الاستحالة كقولك: والظعن غير الظعن. فقد بان إذاً أنه إنما كان كل واحد من الظعنين جنسًا برأسه غير الآخر، بأن كان هذا في الهيجاء وذاك في الميدان. وهكذا الحكم في كل شيء تعدى إليه المصدر وتعلق به. فاختلاف مفعولي المصدر يقتضي اختلافه. وأن يكون المتعدي إلى هذا المفعول غير المتعدي إلى ذاك. وعلى ذلك تقول: ليس إعطاؤك الكثير كإعطائك القليل. وهكذا إذا عديته إلى الحال كقولك: ليس إعطاؤك معسرًا كإعطائك موسرًا. وليس بذلك وأنت مقل كبدلِكَ وأنت مُكثِر. وإذ قد عرفت هذا من حكم المصدر فاعتبر به حكم الاسم المشتق منه.^(٦)

يُستخلص من هذا أن الجار والمجرور والمفعول به، وغيرهما مما يتعلّق به الفعل، تُسهم في توجيهه وجهة مُخَالِفَةٍ لما هو عليه، ولما يقتضيه في أصل الوضع. وذلك إما بتخصيص حدوثة، مع بقاء معناه الوضعي، وإما بحرفه عن معناه الوضعي، وإكسابه دلالات جديدة. وفيما يلي عرض لأثر متعلقات الفعل في التحكم بمعناه.

(٥) المتنبي: ديوانه بشرح البرقوقي ٤ : ٣٠٩.

(٦) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز ص ١٩٣ - ١٩٤.

أثر الفاعل في معنى الفعل:

يتمثل أثر الفاعل في تخصيص حدوث الفعل، أو حَرْفه عن معناه الأصلي بإكسابه دلالات متنوعة، تبعًا لتنوع الفاعل. فالفعل «حاق» مثلاً يدل في الأصل على نزول الشيء بالشيء، يُقال: حاق به السوء يَحِيقُ حَيْقًا، إذا نزل به وأحاط، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.^(٧) فإذا تغيّر الفاعل تَخَصَّصَتْ دلالة الفعل، فيُقال مثلاً: حاق بهم العذابُ، وحقّ بهم الأعداء، وحقّ بهم الشُّرُ، وحقّ بهم القومُ. فالفعل «حاق» في هذه الأمثلة لم يخرج عن معناه الأصلي، لكنه اكتسب في كل مثال تخصيصًا من الفاعل، بحيث أصبح الحِيقُ أجناسًا متنوّعة، تبعًا لتنوع الفاعل. ولهذا صحّ القول: ليسَ حِيقُ القومِ كحِيقِ الأعداء، أو حِيقِ العذاب. وتخصيص حدوث الفعل في هذه الأمثلة يتحكّم به الفاعل كما هو واضح.

ولا يقف تأثير الفاعل في الفعل عند التخصيص، بل يتعدّاهُ إلى حَرْفِ الفعل عن معناه الأصلي، وإكسابه دلالات متنوعة، تبعًا لتنوع الفاعل. فيُقال:

- حاق به الجوعُ: لزمه واشتدَّ.

- وحقّ بهم السيفُ: حاك أي قطع.

- وحقّ بهم الأمرُ: وجب.

فالفعل في هذه الأمثلة الحرف عن معناه الأصلي، واكتسب دلالات جديدة، بتأثير الفاعل. إلا أن انحرافه لا يعني أنه خرج عن معناه الأصلي خروجًا مُطلقًا، لأن ظلال المعنى الأصلي بقيت حاضرة، لتُشعر بأن المعاني التي انحرف إليها الفعل تولّدت من المعنى الأصلي، وأُخذت منه.

والفعل «ذاب» يدلّ في الأصل على الذوبان وهو الميع، يُقال: ذاب الشحمُ

(٧) الآية ٤٣ من سورة فاطر؛ ويُنظر ابن فارس: المقاييس (حيق).

دَوْبًا ودَوْبَانًا، إذا ماع، أي سأل عن جمود.^(٨) ولكنه بتأثير الفاعل يتخصَّص، كما في: ذاب الشَّحْمُ، وذاب التَّلْجُ، فيصح القول مثلاً: ذوبُ التَّلْجِ أسرَعُ من ذوبِ الشَّحْمِ. وقد ينحرف عن معناه الأصلي حين يتغيَّر الفاعل، فيدل على اشتداد الحرِّ كما في قول ذي الرمة:^(٩)

إذا ذابتِ الشَّمْسُ اتَّقَى بأفنانِ مَرَبوعِ الصَّرِيمَةِ مُعِيلِ
صَـ _____ قَرَاتٍ هِـ

أي: اشتدَّ حرُّها، ويدلُّ على الضعف والتُّحول كما في قول ابن المعتز:^(١٠)

أُسْرُؤُ إذا بَلَيْتُ وذابَ جِسْمِي لَعَلَّ الرِّيحَ تَسْعَى بِي إِلَيْهِ

أي هزل ونخل، ويدل على الحمق كما في قولهم: ذاب الرجل، أي: حمق بعد عقل. والفعل « خَدَع »^(١١) يدل في الأصل على الخفاء، يُقال: خَدَعَ الرِّيقُ في الفَم، إذا خفي في الخلق وغاب. وخَدَعَ مني فلانٌ: توارى ولم يَظْهَر. ولكنه في التراكيب يكتسب دلالات متنوعة تبعاً لتنوع الفاعل، فيتخصَّص حدوثه كما مرَّ سابقاً، أو ينحرف عن معناه الأصلي على النحو:

- خَدَعَ البعيرُ: زال عَصَبٌ وظيف رجله.
- وخَدَعَ الرَّجُلُ: قلَّ ماله، وخَدَع: تَخَلَّقَ بغير خُلُقِهِ.
- وخَدَعَ السرابُ: لآخ وظَهَر.

(٨) ابن فارس: المقاييس، وابن منظور: لسان العرب (ذوب) و(ميع).

(٩) ذو الرمة: ديوانه ص ١٤٥٨؛ وابن فارس: المقاييس، وابن منظور: لسان العرب (ذوب).
والصَّقرات: شدة الحرِّ. والأفنان: الأغصان. والمربوع: الذي أصابه مطر الربيع. والصريمية: رملة منقطعة عن الرمل. والمجبل: المورق.

(١٠) أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، ج ١، ص ٢٧١؛ وابن المعتز: ديوانه ص ٤٩١.

(١١) ابن فارس: المقاييس، والزحشيري: أساس البلاغة، وابن منظور: لسان العرب (خدع).

- وَخَدَعَ الطَّرِيقُ: بَانَ مَرَّةً وَخَفِيَ أُخْرَى.
- وَخَدَعَ الضَّبُّ: دَخَلَ فِي جُحْرِهِ.
- وَخَدَعَ الظَّبْيُ: دَخَلَ فِي كِنَاسِهِ.
- وَخَدَعَ الثعلبُ: أَخَذَ فِي الرَّوْغَانِ.
- وَخَدَعَ الشَّيْءُ وَالطَّعَامُ: فَسَدَ.
- وَخَدَعَ الرَّيْقُ خَدْعًا: نَقَصَ، وَإِذَا نَقَصَ خُثِرَ، وَإِذَا خُثِرَ أَنْتَنَ.
- وَيُقَالُ: كَانَ فُلَانٌ يُعْطِي ثُمَّ خَدَعَ، أَي: أَمْسَكَ وَمَنَعَ.
- وَخَدَعَ الزَّمَانُ خَدْعًا: قَلَّ مَطَرُهُ.
- وَخَدَعَ الدِّينَارُ: نَقَصَ.
- وَخَدَعَ الدَّهْرُ وَالرَّأْيُ: إِذَا تَلَوَّنَ.
- وَخَدَعَتِ الْعَيْنُ خَدْعًا: لَمْ تَنَمَّ.
- وَخَدَعَتِ عَيْنُ الرَّجُلِ: غَارَتِ.
- وَمَا خَدَعَتْ بَعَيْنَهُ نَعْسَةٌ، أَي: مَا مَرَّتْ بِهَا.
- وَخَدَعَتِ السُّوقُ خَدْعًا: كَسَدَتْ.
- وَخَدَعَ السَّعْرُ: ارْتَفَعَ وَعَلا.

يُلاحَظُ مِنَ الْأَمْثَلَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ لِلْفَاعِلِ أَثْرًا وَاضِحًا فِي تَوْجِيهِ الْفِعْلِ، بِإِكْسَابِهِ مَعَانِيً مُتَنَوِّعَةً تَبَعًا لِتَنَوُّعِ الْفَاعِلِ. وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ الْمَعَانِيَ الَّتِي اِكْتَسَبَتْهَا الْأَفْعَالُ فِي الْاِسْتِعْمَالَاتِ السَّابِقَةِ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْجَازِ. وَهَذَا صَحِيحٌ. فَلَا يُظَنُّ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْإِشَارَاتِ الْخُرُوجُ عَلَى الْجَازِ أَوْ الْغَاوَةِ. بَلِ الْمَقْصُودُ تَفْسِيرُ بَعْضِ ظَوَاهِرِهِ فِي اللُّغَةِ، وَبَيَانُ أَسْبَابِهِ، وَمَعْرِفَةُ الْعِلَاقَاتِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي تَسُودُ فِي التَّرْكِيبِ فَتَنْقَلُ اللَّفْظُ مِنْ

الحقيقة إلى المجاز. أي إن هذه الدراسة لا تلغي المجاز، بل تصبّ في توضيحه، وبيان أسباب نشوئه.

أثر المفعول به في معنى الفعل:

للمفعول به أثر واضح في توجيه الفعل المتعدّي والتحكم بمعناه. ويتمثل هذا الأثر في تخصيص حدوث الفعل أو حرفه عن معناه الأصلي، قال عبد القاهر الجرجاني: «فاختلاف مفعولي المصدر يقتضي اختلافه، وأن يكون المتعدّي إلى هذا المفعول غير المتعدّي إلى ذلك. وعلى ذلك تقول: ليس إعطائك الكثير كإعطائك القليل... وإذ قد عرفت هذا من حكم المصدر فاعتبر به حكم الاسم المشتق منه»^(١٢).

فالجرجاني هنا يرى أن اختلاف المفعول به يؤدّي إلى اختلاف الفعل، وعبر عن ذلك بأثر المفعول به في المصدر الذي هو أصل للفعل والأسماء المشتقة. ولكن حديثه اقتصر على أثر المفعول به في تخصيص حدوث الفعل دون حرفه عن معناه الأصلي، مُثلاً لذلك بالفرق بين إعطاء القليل وإعطاء الكثير، مستدلاً على أن الفعل يختلف معناه تبعاً لاختلاف المفعول به. وسيظهر من الأمثلة التالية أن أثر المفعول به في الفعل لا يقتصر على ما ذكره الجرجاني، بل يتعدّى ذلك إلى حرفه عن معناه الأصلي، وإكسابه معاني متنوعة، تُخرجه في الغالب من حيّز الحقيقة إلى حيّز المجاز.

فالفعل «عبر»^(١٣) مثلاً يدل في الأصل على اجتياز الشيء، يُقال عَبَرَ النهرَ عَبْرًا وَعَبُورًا: قَطَعَهُ من شاطئ إلى شاطئ. ولكي يدل هذا الفعل على معناه الأصلي يجب أن يكون المفعول به من الأماكن والبقاع لأنها تصلح للعبور. فإذا تغيّر المفعول به، وكان تغيّره

(١٢) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز ص ١٩٤.

(١٣) ابن فارس: المقاييس، والزنجشيري: أساس البلاغة، وابن منظور: لسان العرب (عبر).

محصورًا في الأماكن والبقاع، حافظَ الفعل على معناه الأصلي، مع اكتسابه تخصيصًا يجعله متميِّزًا مع كل مفعول، وذلك نحو: عَبَرَ النَّهْرَ، وَعَبَرَ الْبَحْرَ، وَعَبَرَ الطَّرِيقَ، وَعَبَرَ الصَّحْرَاءَ، وَعَبَرَ الوادي، وغير ذلك. فالفعل لم يخرج في هذه الأمثلة عن معنى الاجتياز، ولكنه اكتسب في كل مثال تخصيصًا، فأصبح أنواعًا متميِّزة، لأن عبور النهر ليس كعبور الطريق أو عبور الصحراء، أي إن العبور في كل مثال يتميِّز عن العبور في بقية الأمثلة. وهذا عائد إلى تنوع المفعول به كما يظهر من الأمثلة.

أما إذا تغيَّر المفعول به، بحيث خرج عن الأماكن والبقاع، فإن الفعل ينحرف عن معناه الأصلي ويكتسب دلالات جديدة، نحو:

- عَبَرَ الْكِتَابَ يَعْبُرُهُ عَبْرًا: تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْفَعْ صَوْتَهُ بِقِرَاءَتِهِ.

- وَعَبَرَ الْمَتَاعَ وَالذَّرَاهِمَ يَعْبُرُهَا عَبْرًا: نَظَرَ كَمْ وَزُنْهَا؟ وَمَا هِيَ؟

- وَعَبَرَ الْكَبِشَ يَعْبُرُهُ عَبْرًا: تَرَكَ صُوفَهُ عَلَيْهِ سَنَةً.

- وَعَبَرَ الطَّيْرَ: زَجَرَهَا.

- وَعَبَرَ الرُّؤْيَا عَبْرًا: فَسَّرَهَا.

فالفعل في هذه الأمثلة انحرف عن معنى الاجتياز، واكتسب دلالات متنوعة تبعًا لتنوع المفعول به.

وانحراف الفعل في هذه الأمثلة لا يعني أنه خرج عن معناه الأصلي خروجًا مُطلقًا، لأن ظلال المعنى الأصلي تبقى حاضرة، لثُشَعِرَ بأن المعاني التي انحرف إليها الفعل تولدت من المعنى الأصلي، وأُخِذَتْ منه. فهي معانٍ مجازية للفعل نشأت بتأثير المفعول به.

ومن أمثلة تنوع دلالة الفعل، بتأثير المفعول به، الفعل «ضَرَبَ»^(١٤) فهو يدل في الأصل على الصدم، يُقال: ضَرَبَهُ ضَرْبًا إِذَا صَدَمَهُ. ولكنه يكتسب معاني متنوعة تبعًا لتنوع المفعول به، فيقال: ضَرَبْتُ زَيْدًا، وضَرَبْتُ الْحَجَرَ، وضَرَبْتُ الْقَرْسَ. فالضَرْبُ في هذه الأمثلة لم يخرج عن حقيقته، مع أن وقوعه في كل مثال قد خُصَّصَ بنوع المفعول به، فأصبح الضربُ أجناسًا مختلفة، ولكنه على كل حال لم ينحرف عن معناه الأصلي.

ولا يقف أثر المفعول به في الفعل «ضَرَبَ» عند تخصيصه، بل يتعدى ذلك إلى حَرْفِهِ عن معناه الأصلي، وإكسابه دلالات جديدة، نحو:

- ضَرَبَ الْوَتِدَ يَضْرِبُهُ ضَرْبًا: دَقَّهُ حَتَّى رَسَبَ فِي الْأَرْضِ.
- وضَرَبَ الدَّرْهَمَ يَضْرِبُهُ ضَرْبًا: طَبَعَهُ.
- وفُلَانٌ يَضْرِبُ الْمِحْدَ، أَي: يَكْسِبُهُ وَيَطْلُبُهُ.
- وفي الحديث «لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي قُبَاءٍ لَضَرَبُوا إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْإِبِلِ»^(١٥)، أي لركبوها وساروا إليه.

- وضَرَبَ اللَّبْنَ: حَلَبَهُ مِنْ عِدَّةٍ لِقَاحٍ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ.
- وقال تعالى: ﴿واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا﴾^(١٦)، أي اذْكُرْ لَهُمْ وَمَثَلٌ لَهُمْ.
- وضَرَبَ الْإِتَاوَةَ: فَرَضَهَا وَأَوْجَبَهَا.
- وضَرَبَ الْحَلَاءَ: ذَهَبَ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ.
- وضَرَبَ الْأَرْضَ: أَبْدَى، أَي خَرَجَ إِلَى الْبَادِيَةِ.
- وضَرَبَ الْقِدَاحَ: اسْتَفْسَمَ بِهَا.
- وضَرَبَ مَنَاقِبَ جَمَّةٍ: حَازَهَا.

(١٤) ابن فارس: المقاييس، والزخشي: أساس البلاغة، وابن منظور: لسان العرب (ضرب).

(١٥) ابن حجر: فتح الباري ص ٧٨٣.

(١٦) الآية ١٣ من سورة يس.

- وَضَرَبَ الْحَيْمَةَ: بناها.

- وَضَرَبَ الْفَحَّ: نَصَبَهُ وَهَيَّأَهُ.

ويُشار إلى أن أثر المفعول به في تخصيص حدوث الفعل، أو حَرْفَهُ عن معناه الأصلي، خاص بالفعل المتعدي دون اللازم، لأن اللازم لا ينصب مفعولاً به. وهذا يعني أن انحراف الأفعال عن معانيها الوضعية يكون في المتعدي أكثر من اللازم، أي أنه يُمكن الاتساع بالفعل المتعدي أكثر من اللازم، بتوظيفه لأداء معانٍ كثيرة، لا يتَّسع لأدائها الفعل اللازم.

أثر المفاعيل الأخرى والحال والنعته:

الأفعال عامة تشترك في نصب ما عدا المفعول به، كالمفعول المطلق، والمفعول فيه، والمفعول لأجله، والمفعول معه، وما كان حالاً أو نعتاً لهذه المفاعيل. وهذه المتعلقات يتجلى أثرها في تخصيص حدوث الفعل، دون تغيير معناه. وفيما يلي عرض لوظائف هذه الأسماء، وأثرها في تخصيص حدوث الفعل. وسيكون العرض موجزاً، بحيث يكفي لتوضيح الظاهرة، ولا يقود إلى الاستطراد أو الخروج عن الموضوع.

فالمفعول المطلق يُذكر في التراكيب لأداء إحدى الوظائف التالية: ^(١٧)

١- توكيد الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾. ^(١٨) فالمصدر هنا ناب

(١٧) العكبري: اللباب في علل البناء والإعراب ١: ٢٦٢؛ وابن هشام: شرح شذور الذهب ص ٢٢٦. والمفعول المطلق يكون مصدرًا للفعل كما في قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ الأحزاب ٥٦، أو مصدرًا يُلاقي الفعل في الاشتقاق كما في قوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ إِلَيْهِ تَبْيِينًا﴾ المزمل ٨، أو مصدرًا يلاقي الفعل في المعنى كقولهم: قَعَدَ جُلُوسًا، لأن القعود والجلوس بمعنى واحد. وهذا مذهب المازني والمبرد والأستراباذي. وذهب سيبويه ومن تابعه إلى أن المفعول المطلق، الذي لا يكون على لفظ المصدر، منصوب بفعل مقدّر. يُنظر الأستراباذي: شرح الكافية، القسم الأول، ص ٣٥١-٣٥٢.

عن تكرير الفعل، لأن التوكيد يكون بتكرار اللفظ. وإنما عدلوا إلى المصدر كراهية إعادة اللفظ بعينه، ولأن الفعل الثاني جملة، والمصدر ليس بجملة، فكان أخصر وأبعد من التكرير. ورأى الأسترابادي أن المفعول المطلق لا يؤكّد الفعل، بل يؤكّد المصدر الذي هو مضمون الفعل، لكنهم سمّوه تأكيداً للفعل توسّعاً.^(١٩)

٢- بيان نوع الحدث الذي يتضمنه الفعل. وهذه الوظيفة يؤدّيها المصدر الموضوع على معنى الوصف، أو المصدر المقيّد بوصف أو إضافة. فالمصدر الموضوع على معنى الوصف هو **مصدر النوع**. وهو: اسم مصوغ من المصدر الأصلي للدلالة على صفة الحدث عند وقوعه.^(٢٠) نحو «سيرة» في قول الفرزدق:^(٢١)

لَعَمْرِي لَقَدْ سَارَ ابْنُ شَيْبَةَ سِيرَةً أَرْتَكُ بُحُومَ اللَّيْلِ ظَاهِرَةً تَجْرِي

ويغلب على هذا المصدر، حين يُستعمل مفعولاً مطلقاً، أن يكون موصوفاً أو مضافاً. فمن الموصوف نحو «ميتة» في الحديث الشريف: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً».^(٢٢) ومن المضاف نحو «سِطْوَةٌ» في قول عنتره:^(٢٣)

(١٨) الآية ١٦٤ من سورة النساء.

(١٩) الأسترابادي: شرح الكافية، القسم الأول، ص ٣٤٧.

(٢٠) سيويوه: الكتاب ٤: ٤٤؛ وابن هشام: أوضح المسالك ٢: ٢٦٥. ويُصاغ مصدر النوع للفعل

الثلاثي المجرد على صيغة «فَعْلَةٌ» نحو: جلسة وضربة. ويُصاغ للفعل فوق الثلاثي المجرد بوصف

المصدر الأصلي نحو قوله تعالى: ﴿وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب ١١].

(٢١) الفرزدق: ديوانه ص ٣٧٣.

(٢٢) مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم ص ٧٧٢ تحت الرقم ١٤٤٨.

(٢٣) عنتره: ديوانه ص ٥٥.

فَسَطَا عَلَيَّ الدَّهْرُ سِطْوَةً غَادِرٍ، والدَّهْرُ يَخْلُ تَارَةً، وَيَجُودُ

وقد يكون مجرّداً من الوصف والإضافة. ويصح ذلك، « لأن الفعل للصدر المختصّ بصفة من الصفات، كصفة الحُسن أو القُبْح أو الشدّة أو الضعف أو غير ذلك. فالجلسة ليست لمطلق الجلوس، وربما يُذكر بعدها ما يُعيّن الوصف نحو: جلسة حسنة، وربما يُترك نحو: جلستُ جلسةً».^(٢٤)

ويُستعمل مفعولاً مطلقاً لبيان النوع، إضافة إلى مصدر النوع، المصدر الأصلي للثلاثي المجرد، مضافاً أو موصوفاً، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ آخِذًا مِّنْ عِزِّهِ مُقْتَدِرِينَ﴾^(٢٥)، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ آخِذًا مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَأَخِذًا مِّنْ وَّخْدِهِمْ لِنَنْظُرَ أَيُّهُمْ أَشَدُّ مُقْتَدِرِينَ﴾^(٢٦). أي: شديدًا. ويُشار إلى أن المصدر الموصوف قد يُحذف، وتبقى صفته قائمة مقامه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ كَثِيرًا﴾^(٢٧)، أي: ذكراً كثيراً.

٣- تبيين العدد، أي عدد مرّات حدوث الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿فَدَكَّنَّا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾^(٢٨) وتؤدّي هذه الوظيفة إما بالمصدر الموضوع للعدد، وإما بمصدر موصوف بما يدلّ على العدد. والمصدر الموضوع للعدد هو مصدر المرّة، وهو: اسم مصوغ من المصدر الأصلي، للدلالة على عدد حدوث الفعل.^(٢٩)

(٢٤) الأسترابادي: شرح الكافية، القسم الأول، ص ٣٤٨.

(٢٥) الآية ٤٢ من سورة القمر.

(٢٦) الآية ١٦ من سورة المزمل.

(٢٧) الآية ٤١ من سورة آل عمران؛ والعكبري: التبيان في إعراب القرآن ص ٢٥٨.

(٢٨) الآية ١٤ من سورة الحاقة.

(٢٩) سيبويه: الكتاب ٤: ٤٥؛ والأسترابادي: شرح شافية ابن الحاجب ١: ١٧٩. ويُصاغ هذا المصدر، للفعل الثلاثي المجرد، على وزن «فَعْلَةٌ» من المصدر الأصلي للفعل التام، الدالّ على حدث حسيّ تقوم به الأعضاء والجوارح، نحو: ضربة وصوله ودورة، ويُصاغ المرّة للفعل فوق

والمفعول المطلق المبين للعدد إما أن يكون مصدر المرة ذاته، مفردًا أو مثنيًا أو مجموعًا، نحو: ضربته ضربةً وضربتين وضرباتٍ، وإما أن يكون مصدرًا آخر موصوفًا بما يدل على العدد، نحو: ضربته ضربًا كثيرًا. ويجيء أيضًا عددًا صريحًا مُميّزًا بمصدر المرة نحو قوله تعالى: ﴿فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾،^(٣٠) أو غير مميّز نحو «ألفًا» في قول عمر بن أبي ربيعة:^(٣١)

ولا أبصرت عيناى في الناس عاشقًا صبا صبوًا إلا صبوت لها ألفا

والمفعول المطلق المستعمل لتوكيد الفعل يخصّصه، بما يُضفيه عليه من تأكيد حدوده وتقوية معناه، ويُفهم هذا التخصيص بأن الفعل المؤكّد يتميّز عن غير المؤكّد في أنه لا يُساويه في المعنى، وإن كان لا يُخالفه فيه. أما المستعمل لبيان النوع أو العدد فيخصّص الفعل تخصيصًا واضحًا، لأنه يُقيّده بهيئة أو عدد، فيُصبح بهذا التقييد جنسًا قائمًا بذاته متميّرًا عن غير المقيّد.

والمفعول لأجله وهو: ^(٣٢) المصدر المعلّل لحدّث مشارك له في الزمان والفاعل. كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حُدُورَ الْمَوْتِ﴾. ^(٣٣) فالحدّر: مصدر منصوب ذُكر عِلَّةً لجعل الأصابع في الآذان، وزمنه وزمن الجعل واحد، وفاعلهما أيضًا واحد.

ويعمل الفعل في المفعول لأجله، مع أن لفظه لا يدلّ عليه، لأنه يقتضيه عقلاً وإن لم يدلّ عليه لفظًا، لأن عامة أفعال العقلاء تكون محكومة بغرض، وهذا الغرض جُعِل مفعولاً لأجله منصوبًا بالفعل الذي قبله. والفعل يحتاج إليه كاحتياجه إلى

الثلاثي المجرد، بإضافة تاء في آخر المصدر الأصلي نحو: أكرمتُ الزائرَ إكرامًا.

(٣٠) الآية ٤ من سورة النور.

(٣١) عمر بن أبي ربيعة: ديوانه ص ١٣٢.

(٣٢) ابن هشام: شرح قطر الندى وبلّ الصدى ص ٢٤٧.

(٣٣) الآية ١٩ من سورة البقرة.

الظرف.^(٣٤) والمفعول لأجله يُخَصَّصُ حدوث الفعل، ولا يُخرجه عن معناه الأصلي، لأنه يُقَيِّدُ الفعل بعلة حدوثه، فيُصبح الفعل أجناسًا متنوعة تبعًا لتنوع العلة التي تُقَيِّده.

والمفعول فيه وظيفته^(٣٥) بيان زمان حدوث الفعل كما في قوله تعالى: ﴿بَل لَبِثَتْ مِئَةَ عَامٍ﴾.^(٣٦) أو مكانه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.^(٣٧) ومن الواضح أن الظرف لا يُعَيِّرُ المعنى الأصلي للفعل، بل يُخَصِّصُه فقط، لأنه يُقَيِّده بوعاء. فيُصبح الفعل أجناسًا متنوعة تبعًا لتنوع الوعاء الزماني أو المكاني الذي يحويه.

والمفعول معه هو: الاسم الذي ينصبه الفعل بوساطة واو بمعنى «مع»، نحو: سِرْتُ وَالنَّيْلَ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾.^(٣٩) وهذه الواو تُشْبِهُ واو العطف، لذلك يصح في الاسم بعدها النصب على أنه مفعول معه، كما يصح حمله على أنه تابع معطوف على معمول الفعل. والأمران جائزان، إلا إذا نُصِّصَ على المصاحبة، فعندئذٍ يجب النصب.

ويعمل الفعل في المفعول معه لأنه يدلّ عليه عقلاً، كما يدل على المفعول لأجله

(٣٤) ينظر العكبري: اللباب في علل البناء والإعراب ١: ٢٧٧.

(٣٥) ابن يعيش: شرح المفصل ٢: ٤٠.

(٣٦) الآية ٢٥٩ من سورة البقرة.

(٣٧) الآية ١٩١ من سورة البقرة.

(٣٨) سيبويه: الكتاب ١: ٢٩٧؛ وابن السراج: الأصول ١: ٢٠٩؛ والعكبري: اللباب ١:

٢٧٩؛ والأستراباذي: شرح الكافية، القسم ١، المجلد ٢، ص ٦١٨؛ وابن هشام: شرح

شذور الذهب ص ٢٣٧.

(٣٩) الآية ٦٨ من سورة مريم؛ والزخشي: الكشاف ٣: ٣٣.

والمكان. إلا أن عمله فيه مرهون بوساطة الواو، بخلاف المفاعيل الأخرى، حيث ينصبها الفعل بلا وساطة.

والمفعول معه يُخصَّص الفعل لأنه يُتَيَّد فاعله أو مفعوله بمُصاحِب، فإذا تنوَّع المصاحِب تنوَّعت دلالة الفعل، دون أن يخرج عن معناه الأصلي.

والحال هي: (٤٠) وصفٌ فَضْلةً مَسوق لبيان هيئة الفاعل أو المفعول به وقت وقوع الفعل المنسوب إليها. أما كونها هيئة للفاعل فعامة الأفعال اللازمة والمتعدية تتساوى في نصبها، وأما كونها هيئة للمفعول به فهذا من اختصاص الفعل المتعدّي، لأن الفعل اللازم لا ينصب مفعولاً به ولا هيئة له.

وتجيء الحال اسماً نكرةً مشتقاً، أو مؤوَّلةً بذلك، وتكون مبيّنةً للهيئة كما في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا﴾، (٤١) أو مؤكِّدةً لصاحبها كما في: جاءَ الناسُ قاطِبَةً، وقوله تعالى: ﴿لَا مَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، (٤٢) أو مؤكِّدةً لعاملها كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّ مِ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾. (٤٣) والعامل في الحال هو الفعل أو ما في معناه. وقد تقدّم أن الفعل يعمل فيما يدلّ لفظه عليه، وفيما كان وصفاً لذلك سواء كان حالاً أم نعتاً. ومن الواضح أن الحال في الأمثلة السابقة أكسبت الفعل تخصيصاً، جعله أجناساً متنوّعة تبعاً لتنوّع الحال التي قيّدت فاعله أو مفعوله.

والنعت هو: (٤٤) تابع مشتقّ أو مؤوّل به، يُفيد تخصيص متبوعه أو توضيحه بما

(٤٠) العكبري: اللباب ١: ٢٨٤؛ والأسترابادي: شرح الكافية، القسم الأول، ص ٦٣٢؛ وابن

هشام: شرح شذور الذهب ص ٢٤٤.

(٤١) الآية ٢١ من سورة القصص.

(٤٢) الآية ٩٩ من سورة يونس.

(٤٣) الآية ١٩ من سورة النمل.

(٤٤) العكبري: اللباب ١: ٤٠٤؛ والأسترابادي: شرح الكافية، القسم ١، ص ٩٦٧؛ وابن

هشام: شرح شذور الذهب ص ٤٣٢.

يتضمنه من معنى. فمثال المشتق «الأعلى» في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.^(٤٥) ومثال المؤول بالمشتق «يَيْسًا» في قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُم مَّطَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾.^(٤٦) فهو مصدر: يَيْسَ يَيْسُ، اسْتَعْمَلَ هنا بمعنى اسم الفاعل: اليابس. ومن الجامد المؤول بالمشتق قولهم: مَرَّتْ بِرَجُلٍ أَسَدٍ، أي شجاع. فهو اسم ذات اسْتَعْمَلَ بمعنى الصفة المشبهة.

والنعت يُطابق المنعوت في علامة الإعراب، والعامل فيه هو العامل في المنعوت،^(٤٧) لذلك فالنعت يجيء مرفوعًا إذا كان نعتًا للفاعل أو نائبه، ويجيء منصوبًا إذا كان نعتًا لأحد منصوبات الفعل. ونظرًا إلى أن النعت هو المنعوت في المعنى، لذلك يجوز حذف المنعوت، وإقامة النعت مقامه، وتسليط الفعل عليه مباشرة.

ويُشترط في النعوت، التي تقوم مقام المنعوت، فتعبر عنه وتؤدي معناه، أن تكون من الصفات الخاصة به، التي يدل إطلاقها، عليه دون غيره، قال المبرد: حَقَّ النَّعْتِ أَنْ يَأْتِيَ بَعْدَ الْمُنْعُوتِ، وَلَا يَقَعُ مَوْقِعَهُ حَتَّى يَدُلَّ عَلَيْهِ، فيكون خاصًا به دون غيره، تقول: جَاءَنِي إِنْسَانٌ طَوِيلٌ. فَإِنْ قُلْتَ: «جَاءَنِي طَوِيلٌ» لَمْ يَجْزِ، لِأَنَّ طَوِيلًا أَعْمٌ مِنْ إِنْسَانٍ، فَلَا يَدُلُّ عَلَيْهِ. فَإِنْ قُلْتَ: جَاءَنِي إِنْسَانٌ مُتَكَلِّمٌ، ثُمَّ قُلْتَ: «جَاءَنِي مُتَكَلِّمٌ» جَارَ، لِأَنَّكَ تَدُلُّ بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ.^(٤٨) والنعت يُخَصِّصُ الفعل، كما يَخَصِّصُهُ المنعوت.

يتضح مما سبق أن متعلقات الفعل تُؤثِّرُ في معناه، ويتجلى تأثيرها إما في

(٤٥) الآية ١ من سورة الأعلى.

(٤٦) الآية ٧٧ من سورة طه؛ والزمخشري: الكشاف ٣: ٧٧.

(٤٧) سيبويه ١: ١٠٩؛ والعكبري: اللباب ١: ٤٠٦؛ والأسترابادي: شرح الكافية، القسم ١،

ص ٩٦٣.

(٤٨) المبرد: الكامل ص ١٣٨٢.

تخصيص حدوثه، وهذه الوظيفة تؤدّيها عامة المتعلقات، وإما في حرفه عن معناه الأصلي، وإكسابه دلالات جديدة، وهذه الوظيفة يؤدّيها الفاعل والمفعول به، كما ظهر سابقاً، والجارّ والمجرور كما سيظهر فيما يأتي.

دور الجارّ والمجرور في توجيه معنى الفعل:

يُظهر الواقع اللغوي أن الجار والمجرور يؤثّران في معنى الفعل. وهذا التأثير يتجلى في تخصيص حدوثه، كما هو شأن عامة متعلقاته، أو حرفه عن معناه الأصلي، كما هو شأن الفاعل والمفعول به.

١- أثر الجار والمجرور في تخصيص حدوث الفعل:

يكثر استعمال الجار والمجرور في التراكيب، بحيث يؤدّيان وظيفة الظرف أو المفعول لأجله أو المفعول معه أو الحال أو التمييز. وفي مثل هذه الحالات تنحصر وظيفة الجار والمجرور في تخصيص حدوث الفعل، دون تغيير معناه الأصلي، لأن وظائف الأسماء السابقة تصبّ في تخصيص حدوث الفعل بزمان أو مكان أو سبب أو مصاحب أو هيئة لفاعله أو مفعوله أو تفسير لمبهم. وجميعها لا تُخرج الفعل عن معناه الأصلي، كما ظهر سابقاً.

نقل البغدادي في خزانته أن الفعل: قد يتعدى بعدة من حروف الجر، على مقدار المعنى المراد من وقوع الفعل، لأن هذه المعاني كامنة في الفعل، وإنما يُظهرها حروف الجر، فإنك إذا قلت: « خرجتُ » فأردت أن تبين ابتداء خروجك قلت: خرجتُ من الدار. فإن أردت أن تُبيّن انتهاءه قلت: إلى المسجد. وإن أردت أن تبين ظرفه قلت: في ثيابي. وإن أردت أن تبين أنه مقارن للاستعلاء قلت: على الفرس. وإن أردت أن تبين الملابس والصحبة قلت: بحسامي. ويجوز أن يكون بعض هذه

المجمرات في موضع الحال. (٤٩)

ويُشار إلى أن تخصيص حدوث الفعل بالمتعلقات المذكورة - وإن كان لا يُخرجه عن معناه الأصلي - يُكسبه دلالات خاصة بينها فروق، بحسب ما تُضيفه تلك المتعلقات على الفعل من خصوصية. فالخروج في مثل: خَرَجَ للحرب، وخرَجَ للعمل، وخرج رياءً، وخرَجَ مسرعاً، وخرَجَ مُبَطِّئاً، وخرج في الليل، وخرَجَ في النهار، وخرَجَ إلى البادية، وخرَجَ إلى السوق - وإن لم يجاوز معناه الأصلي - إلا أنه قد اكتسب في كل عبارة تخصيصاً جعله جنساً متميِّزاً عن غيره في العبارات الأخرى. وفيما يلي عرض موجز لاستعمال الجار والمجرور في تخصيص حدوث الفعل. وذلك حين يُؤدِّيان وظائف الأسماء التي تُخصِّص حدوث الفعل.

فالظرف وظيفته، كما مرّ، بيان زمان حدوث الفعل كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾،^(٥٠) أو مكانه كما في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾.^(٥١) ومن الواضح أن الظرف لا يؤثّر في المعنى الأصلي للفعل، بل هو وعاء له. ولذلك فالجار والمجرور حين يُؤدِّيان وظيفته لا يُؤثّران أيضاً في معنى الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾،^(٥٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُمُهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾.^(٥٣)

(٤٩) البغدادي، عبد القادر: خزنة الأدب ٩: ١٢٥.

(٥٠) الآية ٤٢ من سورة الزمر.

(٥١) الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

(٥٢) الآية ١٨ من سورة إبراهيم.

(٥٣) الآية ١٢٣ من سورة الأعراف.

والمفعول لأجله وظيفته، كما تقدّم، بيان سبب حدوث الفعل، دون تغيير معناه. فإذا استعمل الجارّ والمجرور لأداء هذه الوظيفة لم يُعَيَّرَا معنى الفعل، كقول امرئ القيس: (٥٤)

* فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَتِ لِنَوْمٍ نِيَابَهَا *

ومن أمثلة استعمال الجار والمجرور، لأداء وظيفة المفعول معه، قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ﴾، (٥٥) أي: مع أمم. وهذا الاستعمال لم يُعَيَّرْ معنى الدخول، وإنما قيَّده بمُصَاحِبٍ فحسب.

ومن مجيء الجار والمجرور، في موضع الحال، قوله تعالى: ﴿فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِرَ﴾. (٥٦) فالجار والمجرور أديا وظيفه الحال، ولم يُعَيَّرَا معنى الفعل.

ومن أمثلة أدائهما وظيفة التمييز قوله تعالى: ﴿أساورٍ من ذهبٍ، ويلبسون ثيابًا خضراءٍ من سندسٍ وإستبرقٍ﴾. (٥٧) ف «من» في الموضعين مع مجرورها بيّنت جنس الأساور والثياب. وهي وظيفة التمييز.

ويُشار إلى أن استعمال الجارّ والمجرور، في الوظائف السابقة، قد يتساوى هو واستعمال الأسماء المخصصة لأدائها، كقولنا: سافرتُ طلبا للعلم، وسافرتُ لطلب العلم، إذ يستوي المفعول لأجله والجارّ والمجرور في التعبير عن سبب السفر، في التركيب السابق. لكن أحيانا لا يجوز التعبير عن تلك الوظائف بالأسماء، لأن كلاً منها لا يُستعمل إلا بشروط. وفي هذه الحالات لا بدّ من استعمال الجار والمجرور، دون الأسماء، للتعبير عن الوظائف

(٥٤) التبريزي: شرح المعلقات العشر ص ٤٩.

(٥٥) الآية ٣٨ من سورة الأعراف. وذهب بعضهم إلى أن «في» على باجها من الظرفية، على تقدير مضاف محذوف، أي: ادخلوا في جملة أمم... ابن هشام: مغني اللبيب ص ٢٢٣.

(٥٦) الآية ١٢ من سورة القمر؛ والعكبري: التبيان في إعراب القرآن ص ١١٩٣.

(٥٧) الآية ٣١ من سورة الكهف.

السابقة. فيقال مثلاً: جلسْتُ للكتابة، ولا يُقال: جلسْتُ كتابةً، لأن أحد شروط المفعول لأجله، وهو كونه مصدرًا قلبياً، غير متحقق.

فالجارّ والمجرور، حين يُستعملان لتقييد حدوث الفعل، إما أن يُؤدّي وظيفة يُمكن أن تُؤدّيها الأسماء، وإما أن يُؤدّي وظيفة تلك الأسماء حين تعجز الأسماء عن أدائها، بما يُلايسها من شروط. وفي كلتا الحالتين تنحصر وظيفتهما في تخصيص حدوث الفعل، وما يجري مجراه، دون إخراجها عن معناه الأصلي.

٢- أثر الجار والمجرور في تغيير معنى الفعل:

لا يقتصر دور الجار والمجرور على تقييد حدوث الفعل، بزمان أو مكان أو سبب أو غير ذلك، بل يتعدّى هذه الوظائف إلى نوع من الاندماج بالفعل وما يجري مجراه، بحيث يؤثر الجار والمجرور في معنى الفعل، فيخرجانه عن دلالة الأصلية، ويكسبانه دلالات متنوعة، وتوجيهات خاصة.

وهذا الأثر قد يستبدّ به حرف الجرّ، فيكون هو المتحكم في دلالة الفعل، وقد يرتبط بنوع الاسم المجرور، فيكون الأثر لهذا الأخير، وقد يكون الأثر لكليهما معاً. وفيما يلي تفصيل ذلك.

أ- أثر حروف الجرّ في معنى الفعل:

لحروف الجرّ أثر واضح في إكساب الفعل دلالات متنوعة، لأن «الفعل المعدّى بالحروف المتعدّدة لا بدّ أن يكون له مع كلّ حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر».^(٥٨) وليبيان هذا الأثر أتناول مجموعة من الأفعال مبيّناً ما يحصل لمعانيها، بحسب حرف الجرّ الذي تقترن به.

(٥٨) ابن القيم: بدائع الفوائد ١: ٢٦١.

فالفعل «رَغِبَ» يكتسب دلالات متنوعة بحسب حرف الجر الذي يقترن به في التركيب، من ذلك: (٥٩)

- رَغِبَ فِي الشَّيْءِ: إِذَا أَحَبَّهُ وَأَرَادَهُ وَمَالَ إِلَيْهِ.
- وَرَغِبَ عَنِ الشَّيْءِ: تَرَكَهُ مَتَعَمِّدًا وَزَهَدًا فِيهِ.

فالفعل «رَغِبَ» اكتسب معنى باقترانه بحرف الجرّ «في»، يختلف عن معناه حين اقترن بحرف الجرّ «عن». ونظرًا إلى أن الفعل والاسم المحرور ثابتان في التركيبين، فهذا يعني أن حرف الجرّ هو المسؤول عن اختلاف معنى الفعل.

أما قولنا: رَغِبْتُ إِلَى اللَّهِ، فمعناه: ابْتَهَلْتُ إِلَيْهِ وَتَضَرَّعْتُ. فهنا تَغَيَّرَ معنى الرغبة أيضًا. ولكن تَغْيِيرُهُ ليس عائدًا إلى نوع حرف الجرّ وحده، بل إلى نوع الحرف وطبيعة الاسم المحرور معًا. لأن فعل الرغبة لا يُسْتَعْمَلُ مع «إلى»، ما لم يكن الاسم المحرور ذا طبيعة تجعله صالحًا ليكون محطًا للابتهاال والتضرُّع.

والفعل «صَبَرَ» يشيع اقترانه بحرفي الجرّ «عَلَى» و«عَنْ» على النحو: (٦٠)
 صَبَرْتُ عَلَى الشَّيْءِ: اِحْتَمَلْتُهُ وَلَمْ أَجْزَعْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾. (٦١)
 وَصَبَرْتُ عَنِ الشَّيْءِ: حَبَسْتُ النَّفْسَ عَنْهُ، قَالَ مَجْنُونٌ لَيْلَى: (٦٢)
 وَمَا صَبَرْتُ عَنْ ذِكْرِكَ النَّفْسُ سَاعَةً وَإِنْ كُنْتُ أَحْيَانًا كَثِيرًا أَلْوَمُهَا

فالفعل «صَبَرَ» لم يُطابق معناه في التركيب الأوّل معناه في التركيب الثاني. وهذا عائد إلى تَغْيِيرِ حرف الجرّ الذي اقترن به.

والفعل «سَهَا» أصل معناه: الغفلة. لكنه بتأثير حروف الجر يكتسب مجموعة

(٥٩) ابن فارس: المقاييس، والزنجشيري: أساس البلاغة، وابن منظور: لسان العرب (رغب).

(٦٠) الزنجشيري: أساس البلاغة، وابن منظور: لسان العرب (صبر).

(٦١) الآية ١٧ من سورة لقمان.

(٦٢) مجنون ليلى: ديوانه ص ٢٥٣.

من المعاني، تبعاً للحرف الذي يقترن به، على النحو: (٦٣)

سَهَا عن الشيء: عَقَلَ عنه وتركه عن علم. وسَهَا في الشيء: تركه عن غير علم.
 وسَهَا إلى الشيء: نظَرَ إليه ساكن الطَّرْف. وسَهَا بالشيء: اشتغل به عن غيره.
 والفعل «قَالَ» أصل معناه: النطق. لكنه حين يقترن بحروف الجر يكتسب
 مجموعة من المعاني، تبعاً للحرف الذي يقترن به، على النحو: (٦٤)

قُلْتُ له: خَاطَبْتُهُ. وقُلْتُ عنه: أَخْبَرْتُ. وقُلْتُ عليه: افْتَرَيْتُ. وقُلْتُ فيه: اجْتَهَدْتُ.
 والفعل «حَنَّ» أصل معناه: ترجيع الناقه صوتها شوقاً إلى ولدها. لكنه حين يقترن
 بحروف الجر يكتسب عدة معانٍ، بحسب الحرف الذي يقترن به، على النحو: (٦٥)

حَنَّ عَلَيْهِ: عَطَفَ. وحَنَّ إِلَيْهِ: نَزَعَ واشتاق. وحَنَّ عَنْهُ: صَدَّ.
 والفعل «خَلَا» يكون مع حروف الجر كما يلي: (٦٦)

خَلَا بالشيء: انفَرَدَ به. وخَلَا للشيء: فَرَعَ له، بمعنى اشتغل به دون سواه. وخَلَا
 إلى الشيء: مَضَى إليه وقصده. وخَلَا على الشيء: اقْتَصَرَ. وخَلَا عن الشيء: أَرْسَلَهُ، تبرأً
 منه. خَلَا من الشيء: اسْتَرَاخَ منه.

مما سبق يتضح أن لحروف الجر أثراً واضحاً في توجيه معنى الفعل. وهذا الأثر
 يتمثل في إخراج الفعل عن معناه الأصلي، وإدخاله في علاقات لغوية جديدة،
 يكتسبُ بها دلالات متنوعة. وكل ذلك يقود إلى الاتساع في استعمال الفعل، الذي
 يُعدُّ سبباً من أسباب الاتساع في اللغة.

(٦٣) ابن فارس: المقاييس، والزخشي: أساس البلاغة، وابن منظور: لسان العرب (سهو).

(٦٤) ابن منظور: لسان العرب (قول).

(٦٥) ابن منظور (حنن).

(٦٦) نفسه (خلو).

ومن مراجعة الأمثلة السابقة يظهر بلا ريب أن الدلالات التي يكتسبها الفعل، باقترانه بحروف الجر، إنما هي محصلة للتفاعل بين معناه الأصلي والمعاني الأصلية التي تدلّ عليها تلك الحروف.

ففي أمثلة الفعل «خَلَا» نجد أن الانفراد بالشيء، في المثال الأول، مؤلف من الخلوّ، بمعنى الفراغ وهو المعنى الأصلي للفعل «خَلَا»، والاتصاق الذي هو المعنى الأصلي للباء،^(٦٧) أي أن معنى الانفراد بالشيء هو: الاتصاق المجازي به في الخلاء، أو الاتصاق به دون غيره.

وفي المثال الثاني: الفراغ للشيء بمعنى الاشتغال به دون سواه، مؤلف من الخلوّ بمعنى الفراغ، والاختصاص الذي هو المعنى الأصلي للام،^(٦٨) أي أن معنى الفراغ للشيء هو: الاختصاص به في الخلاء، أو الاختصاص به دون غيره.

والمضَيّ إلى الشيء الذي فسّر به الخلوّ إلى الشيء، في المثال الثالث، هو محصلة لمعنى الخلوّ، ومعنى الانتهاء الذي تختص به «إلى»،^(٦٩) إذ يمكن التعبير عن المضَيّ إلى الشيء بأنه: الانتهاء إليه في الخلاء، أو الانتهاء إليه دون غيره.

وخَلَا على الشيء، بمعنى اقتصر عليه، يُعبّر عنه بالقول: استعلى الشيء دون غيره، لأن المعنى الأصلي لـ«على» هو الاستعلاء.^(٧٠) وخَلَا عن الشيء، بمعنى أرسله

(٦٧) ينظر سيويه: الكتاب ٢: ٣٠٤؛ والمبرد: المقتضب ٤: ١٤٢.

(٦٨) ينظر الزمخشري: المفصل في علم العربية ص ٢٨٦؛ والمرادي: الجنى الداني ص ٩٦.

(٦٩) المبرد: المقتضب ٤: ١٣٩؛ وابن يعيش: شرح المفصل ٨: ١٤؛ والأسترابادي: شرح الكافية، القسم ٢، المجلد ٢ ص ١١٤٨؛ وأبو حيان: ارتشاف الضرب ص ١٧٣٠؛ وابن هشام: مغني اللبيب ص ١٠٤.

(٧٠) العكبري: اللباب في علل البناء والإعراب ١: ٣٥٩؛ وابن يعيش: شرح المفصل ٨: ٣٧؛

أو تبرأ منه، يُعبّر عنه بالقول: تجاوزَ الشيءَ فخلا منه، لأن المعنى الأصلي لـ«عن» هو المجاوزة،^(٧١) وخلا من الشيء، بمعنى استراح منه، يُعبّر عنه بالقول: ابتداءً خلوهُ بالشيء، لأن المعنى الأصلي لـ«من» هو الابتداء،^(٧٢) ومثل ذلك يُقال في الأمثلة الأخرى.

ب- أثر الاسم المجرور في معنى الفعل:

للاسم المجرور أيضاً أثر واضح في تحديد معنى الفعل. وليبيان هذا الأثر أتناول مجموعة من التراكيب الفعلية مبيّناً ما يحصل فيها لمعنى الفعل، بحسب طبيعة الاسم المجرور الذي يقترن به.

فالفعل «حَمَلَ» يكتسب مجموعة من المعاني والتوجيهات المختلفة، تبعاً لطبيعة الاسم المجرور، على النحو:^(٧٣)

حَمَلَ عَلَى زَيْدٍ: حَقَّدَ. وَحَمَلَ عَلَى عُدُوِّهِ وَقِزْنِهِ: كَرَّ وَهَجَمَ. وَحَمَلَ عَلَى نَفْسِهِ: أَجْهَدَهَا. وَحَمَلَ عَلَى بَنِي فُلَانٍ: أَرَشَ وَأَفْسَدَ بَيْنَهُمْ.

فالفعل «حَمَلَ» اختلف معناه، كما هو واضح، بين تركيب وآخر. ولأن الفعل وحرف الجر ثابتان في التراكيب السابقة، فهذا يعني أن تنوع الاسم المجرور هو المسؤول عن تغيير دلالة الفعل.

والفعل «ارْتَبَكَ» تتنوع دلالاته تبعاً لتنوع الاسم المجرور على النحو:^(٧٤)

والمالقي: رصف المباني ص ٣٧١؛ وأبو حيان: ارتشاف الضرب ص ١٧٣٢؛ والمرادي: الجنى

الداي ص ٤٧٠؛ وابن هشام: مغني اللبيب ص ١٨٩.

(٧١) المرادي: الجنى الداين ص ٢٤٥.

(٧٢) المبرد: المتقضب ٤: ١٣٦؛ والهروي: الأزهية ص ٢٣٢؛ والعكبري: اللباب في علل البناء والإعراب

١: ٣٥٣؛ وابن يعيش: شرح المفصل ٨: ١٠؛ والمالقي: رصف المباني ص ٣٢٢.

(٧٣) ابن منظور: لسان العرب (حمل).

ارْتَبَكَ فِي الْوَحْلِ: سَقَطَ. وَارْتَبَكَ فِي الْأَمْرِ: انشَعَلَ بِهِ وَلَمْ يَكِدْ يَتَخَلَّصْ مِنْهُ. وَارْتَبَكَ فِي كَلَامِهِ: تَتَعَمَّقُ فِيهِ. وَارْتَبَكَ فِي الْحِبَالَةِ: عَثَرَ وَاضْطَرَبَ. وَالْفِعْلُ «رَتَعَ» يَتَحَكَّمُ فِي دَلَالَاتِهِ الْأَسْمُ الْمَجْرُورِ عَلَى النُّحُو: (٧٥)

رَتَعَ فُلَانٌ فِي الْمَكَانِ: أَقَامَ وَتَنَمَّ وَأَكَلَ فِيهِ وَشَرِبَ مَا شَاءَ فِي خِصْبٍ وَسَعَةٍ. وَيَتَوَلَّدُ قِيَاسًا عَلَى هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرٌ مِنَ الْمَعَانِي الْمَجَازِيَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُ، الَّتِي يَعُودُ نَشُوءُهَا إِلَى اخْتِلَافِ طَبِيعَةِ الْأَسْمِ الْمَجْرُورِ مِثْلَ: رَتَعَ فُلَانٌ فِي رِيَاضِ الْهُوَى: إِذَا أُطْلِقَ لِنَفْسِهِ الْعِنَانُ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ. وَرَتَعَ فِي حَطَامِ الشَّهَوَاتِ وَفِي الْمَعَاصِي: إِذَا انْحَرَفَ فَخَاضَ فِيهَا وَتَلَدَّدَ بِهَا. وَرَتَعَ فِي رِيَاضِ الْعِلْمِ: إِذَا سَارَ فِي طَلَبِهِ. وَرَتَعَ فِي جَمِيمٍ وَهَشِيمٍ: إِذَا ذَاقَ النِّعِيمَ وَالشَّقَاءَ، لِأَنَّ الْجَمِيمَ: النَّبْتَ الْكَثِيرَ الَّذِي يَغْطِي وَجْهَ الْأَرْضِ، وَالْهَشِيمَ: النَّبْتَ الْيَابِسَ. وَرَتَعَ فُلَانٌ فِي مَالِ فُلَانٍ: تَقَلَّبَ فِيهِ أَكْلًا وَشُرْبًا. وَرَتَعَ فُلَانٌ فِي جِمَى فُلَانٍ: اغْتَابَهُ.

وَالْفِعْلُ «رَمَى» أَيْضًا يَكْتَسِبُ عِدَّةَ دَلَالَاتٍ بِحَسَبِ الْأَسْمِ الْمَجْرُورِ عَلَى النُّحُو الْآتِي: (٧٦)

رَمَى فُلَانًا بِسَهْمٍ: أَصَابَهُ. وَرَمَى فُلَانًا بِعَيْنَيْهِ: نَظَرَ إِلَيْهِ. وَرَمَى فُلَانًا بِفَاحِشَةٍ: اتَّهَمَهُ بِهَا. وَرَمَى فُلَانًا بِحَرْبٍ: أَذَاقَهُ وَبَالَهَا وَحَارَبَهُ.

وَالْفِعْلُ «ظَفَرَ» تَنَوَّعَ دَلَالَاتُهُ أَيْضًا، تَبَعًا لَطَبِيعَةِ الْأَسْمِ الْمَجْرُورِ عَلَى النُّحُو: (٧٧)

ظَفَرَ بَزِيدٍ: لَحِقَهُ. وَظَفَرَ بَعْدُوهُ: غَلَبَهُ. وَظَفَرَ بِالضَّالَّةِ: وَجَدَهَا. وَأَرَادَ كَذَا فَظَفَرَ بِهِ، أَيْ نَالَهُ.

(٧٤) الزمخشري: أساس البلاغة، وابن منظور: لسان العرب (ربك).

(٧٥) السابقة (رتع).

(٧٦) الزمخشري: أساس البلاغة، وابن منظور: لسان العرب (رمي).

(٧٧) السابقة (ظفر).

يَتَّضِحُ من الأمثلة السابقة أن للاسم المجرور أثرًا واضحًا في توجيه معنى الفعل. وهذا الأثر يتمثل في إخراج الفعل عن معناه الأصلي، وإدخاله في علاقات لغوية جديدة، يكتسبُ بها دلالات متنوعة. وكل ذلك يقود إلى الاتساع في استعمال الفعل، الذي يُعدُّ سببًا من أسباب الاتساع، ونشوء المجاز في اللغة.

* * * * *

والخلاصة أن لمتعلقات الفعل عامة تأثيرًا في معناه، يتجلى في تخصيصه أو حرفة عن معناه الأصلي وإكسابه معاني متنوعة، تبعًا لتنوع متعلقاته. وفي ضوء هذه الحقيقة يُمكن فهم بعض الأسباب التي تجعل الفعل يدلّ على معاني متنوعة في التراكيب التعبيرية.

المصادر والمراجع

- الأسترابادي، رضي الدين (ت ٦٨٦هـ): شرح الرضي لكافية ابن الحاجب. دراسة وتحقيق: الدكتور يحيى بشير مصري، ط ١، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض ١٩٩٦.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ): خزانة الأدب ولبّ لسان العرب. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٩.
- التبريزي: أبو زكرياء يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ): شرح المعلقات العشر. تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة، ط ١، دار الفكر، دمشق ١٩٩٧.
- الجرجاني، عبد القاهر (ت ٤٧١هـ): دلائل الإعجاز. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٤.
- ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): فتح الباري. بيت الأفكار الدولية، الرياض، دون تاريخ.
- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ): ارتشاف الضرب من لسان العرب. تحقيق: الدكتور رجب عثمان محمد، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨.

- ذو الرمة (ت ١١٧هـ): ديوانه. تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٣.
- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (ت ٥٢٨هـ):
- أساس البلاغة. بيروت ١٩٦٥.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ترتيب وضبط وتصحيح: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، دون تاريخ.
- المفصل في علم العربية. دار الجليل، بيروت، دون تاريخ.
- ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل (ت ٣١٦هـ): الأصول في النحو. تحقيق: الدكتور عبد الحسين الفتلي، ط ٤، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٩.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٥٨١هـ): نتائج الفكر في النحو. تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢.
- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ): الكتاب. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (ت ٦١٦هـ):
- اللباب في علل البناء والإعراب. تحقيق: غازي طليمات وعبد الإله نبهان، ط ١، دار الفكر، دمشق ١٩٩٥.
- التبيان في إعراب القرآن. تحقيق: علي محمد الجاوي، ط ٢، دار الجليل، بيروت ١٩٨٧.
- عمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ): ديوانه. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨.
- عنتر بن شداد (ت ٣٢ق.هـ): ديوانه. صححه: أمين سعيد، المكتبة التجارية، القاهرة، دون تاريخ.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد (ت ٣٩٥هـ): المقاييس في اللغة. تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، ط ٢، دار الفكر، بيروت ١٩٩٨.
- الفرزدق، همام بن غالب (ت ١١٠هـ): ديوانه. عني به: عبد الله إسماعيل الصاوي، ط ١، مطبعة الصاوي، مصر ١٩٣٦.

- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت ٧٥١هـ): **بدائع الفوائد**. ط ١، دار البيان، دمشق وبيروت ١٩٩٤.
- المالقي، أحمد بن عبد النور (٧٠٢هـ): **رصف المباني في شرح حروف المعاني**. تحقيق: محمد أحمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٥.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ):
- **الكمال في اللغة والأدب**. تحقيق: الدكتور محمد أحمد الدالي، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٧.
- **المقتضب**. تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، عالم الكتب، دون تاريخ.
- المتني، أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤هـ): **ديوانه** بشرح عبد الرحمن البرقوقي. مكتبة السعادة، مصر، دون تاريخ.
- مجنون ليلى (ت ٧٨هـ): **ديوانه**. تحقيق وشرح: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، دون تاريخ.
- المرادي، بدر الدين الحسن بن قاسم (ت ٧٤٩هـ): **الجنّي الداني في حروف المعاني**. تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل، ط ٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٣.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ): **صحيح مسلم**. بيت الأفكار الدولية، الرياض، دون تاريخ.
- ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ): **ديوانه**. دراسة وتحقيق: الدكتور محمد بدیع الشریف، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨.
- ابن منظور، محمد بن مكرم المصري (ت ٧١١هـ): **لسان العرب**. ط ١، دار صادر، بيروت ١٩٩٢.
- الهروي، علي بن محمد (ت ٤١٥هـ): **كتاب الأزهية في علم الحروف**. تحقيق: عبد المعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١.
- ابن هشام، جمال الدين بن يوسف الأنصاري (ت ٧٦١هـ):

- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٨، دار إحياء التراث، بيروت ١٩٨٦.
- شرح شذور الذهب. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، لم تُذكر دار النشر وتاريخه.
- شرح قطر الندى وبل الصدى. تحقيق وشرح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت ١٩٩٢.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب. تحقيق: الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط ٣، ١٩٧٢.
- أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ): ديوان المعاني. مكتبة القدسي، القاهرة، دون تاريخ.
- ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي (ت ٦٤٣هـ): شرح المفصل. مكتبة المتنبّي، القاهرة، دون تاريخ.

المقالات والآراء

صفحة لغة

١ - النكرة القريبة من المعرفة:

(النكرة الموصوفة، والنكرة التي تخصصت بالإضافة)

د. مكي الحسني (*)

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

● قال الإمام العكبري (ت ٦١٦ هـ) في كتابه (إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن) ١ / ٥٠:
«وقرى (مصداقاً) شاذاً بالنصب على الحال. وفي صاحب الحال وجهان:

أحدهما الكتاب، لأنه قد وُصِفَ قَرُبَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ.^(١) والثاني: الضمير المستقر في الظرف.»^(٢)

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

- (١) يبدو أن مذهب الإمام هو أن صاحب الحال يجب أن يكون معرفة، أو في الأقل قريباً منها، مع أن صاحب الحال يكون معرفة ويكون نكرة، وهذا مذهب سيويه (بلا قيدا!) نحو: جاءني صديق مستعجلاً. وقد جَوَزَ العكبري انتصاب الحال عن النكرة، كما سنرى في إعرابه الآية ٢١٦!
- (٢) والتقدير: كتابٌ نزل من عند الله؛ فحذف الفعل وانتقل الضمير (هو) واستتر في الظرف (عند الله).

وقال العكبري (١ / ٩٢) في إعراب الآية ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]:

(وهو خير لكم) جملة في موضع نصب، فيجوز أن تكون صفة ل (شيئًا). وساغ دخول الواو لما كانت صورة الجملة هنا كصورتها إذا كانت حالاً؛ ويجوز أن تكون حالاً من النكرة (شيئًا) لأن المعنى يقتضيه.

* * *

• وقَبَّله قال الإمام الزمخشري (ت ٥٥٢٨) في الكشاف (١ / ١٦٤):

إذا وُصِفَ النكرة تخصص، فصَحَّ انتصاب الحال عنه.^(١)

• ومن هذا القبيل قوله تعالى في سورة الهُمزة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ...﴾. فالتقدير: ويلٌ لكل إنسانٍ همزة لمزة. [الهَمْزُ فِي الْأَصْلِ: الْكَسْرُ، وَاللَّمْزُ: الطَّعْنُ الْحَسِّيَانِ، ثُمَّ خُصَّ بِالْكَسْرِ مِنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ، وَالْعَضُّ مِنْهُمْ، وَاجْتِيَاحُهم وَالطَّعْنُ فِيهِمْ. وَالتَّاءُ لِلْمَبَالَعَةِ فِي الْوَصْفِ.

(١) يفهم من كلام الإمام الزمخشري أنه لا يصح انتصاب الحال عن النكرة ما لم تخصص، ولذلك قال في الكشاف في تفسير الآية ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]:

«جملة (ولها كتاب) واقعة صفة لقريّة، وتوسّطت الواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف.» وكذلك فعل العكبري عند إعراب هذه الآية.

ولكن مُعْرِبين آخرين أعربوا الجملة المذكورة حالاً صاحبها نكرة: قريّة! انظر «الكشاف» لبيوسف الصيداوي، ٢٠٧.

وانظر «إعراب القرآن الكريم» إعداد: أ. د. محمد الطيب الإبراهيم، دار النفائس، بيروت/ ٢٠٠٦، ط ٣.

أقول: تتخصص النكرة أيضاً - في حالة الإضافة المحضة - بإضافتها إلى نكرة، نحو: مررتُ برجلٍ ذينٍ خطيئاً!

وأُطرد بناء (فُعَلَّة) بضم الفاء وفتح العين، لمبالغة اسم الفاعل، أي المكثر من الفعل. [ما يهْمُنَا هنا هو مجيء الاسم الموصول (الذي) - وهو معرفة - صفةً للنكرة (إنسان). وتعليل ذلك أن (إنسان) هنا قد وُصِفَ بأنه (هُمَزَةٌ لَمَزَةٌ) فتخصَّص، وبذا قُرِبَ من المعرفة فصَحَّ مجيء الاسم الموصول بعده.

● ومن هذا القبيل أيضاً ما جاء في الحديث الشريف، وهو أن يدعُو المسلمُ الله تعالى، حين يسمع نداء المؤذِّن للصلاة، بقوله:

«اللهم رَبِّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آتِ مُحَمَّدًا الوسيلةَ والفضيلةَ، وابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ.» رواه الإمام البخاري.

فقد جاء الاسم الموصول (المعرفة) ليَصِفَ مقامًا (النكرة)؛ ذلك أن (مقامًا) وُصِفَ بأنه محمودٌ، فَقُرِبَ بذلك من المعرفة، وصَحَّ وصفه بالاسم الموصول.

الخلاصة: النكرة الموصوفة في حكم المعرفة.

٢- عن الظروف: هنا، هنالك، حيث، إذ

- جاء في الكشاف للزمخشري (٤/ ١٣٠)، في تفسير الآية:

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩].
المكانة بمعنى المكان، «فاستُعيرت عن العين^(١) للمعنى^(٢)، كما يستعار (هنا، وحيث) للزمان وهما للمكان.»

- وجاء فيه (٤/ ١٨٣): «... وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥] (هنالك) مكانٌ مستعارٌ للزمان، أي: وخسروا وقتَ رؤيةِ البأس. وكذلك قوله ﴿وَخَسِرَ

(١) يريد (المكان).

(٢) أي: اعملوا على حالكم.

هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ» [غافر: ٧٨] بعد قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٧٨] أي: وخسروا وقت مجيء أمر الله، أو وقت القضاء بالحق.

- وجاء فيه (٣٠٩ / ٤): «﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. فإن قلت: بم انتصب (إذ كانوا يجحدون)؟ قلت: بقوله تعالى (فما أغنى). فإن قلت: لم جرى مجرى التعليل؟ قلت: لاستواء مؤدَى التعليل والظرف في قولك:

ضربته لإساءته، وضربته إذ أساء؛ لأنك إذا ضربته في وقت إساءته: فإنما ضربته فيه، لوجود إساءته فيه. إلا أن (إذ، وحيث) غلبتا دون سائر الظروف في ذلك. «أي تؤديان معنى التعليل، كما تؤدي (حيث) معنى ظرف المكان والزمان، وتؤدي (إذ) معنى ظرف الزمان.

● فيما يلي نماذج من استعمال الزمخشري لكلمة (حيث)، مع أنه عرّفها بقوله:

(الكشاف: ٢ / ٥٨٤) «حيث: ظرف مبهم في الأمكنة.»

(الكشاف: ١ / ١٧٥): ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا.

(الكشاف: ١ / ١٨٣): ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١] حيث اشتروا

الضلالة بالهدى.

(الكشاف: ١ / ١٩٠): ... فقد بالغ في إذالة (إهانة) نفسه، حيث خالف...

(الكشاف: ١ / ٢٠٨): ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] لطريق

الصواب حيث استرجعوا...

(الكشاف: ١ / ٢٣٢): ... وهو يشبه العبث، حيث لا يفهم منه المراد، إذ ليس...

صفحة منسيّة من تاريخ المعارض في دمشق

بمناسبة الاحتفال بدمشق

عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٨

د. مازن المبارك^(*)

لم تكن المعارض في أول نشأتها سوى أسواق تجارية كبيرة تُقام كل سنة أو سنتين، ويفد إليها التجار من كل حدب وصوب لبيعوا فيها البضائع، ولتبادلوا فيها المنافع، وما سميت السوق سوقًا إلا لأن الناس يسوقون إليها بضائعهم بائعين ويسوقونها منها مشترين.

وما زالت تلك الأسواق تتطوّر في انتقالها من بلد إلى بلد، ومن سنة بل من قرن إلى قرن حتى أصبحت على الشكل الذي نعرفه اليوم، وغدا لكل من هذه المعارض أثره الاقتصادي بما يُعقد فيه من صفقات تجارية وبما يوقّره من دخل مادّي يجلبه السياح، وأثره الإعلامي بما ينشره في العالم من دعاية للمادّة موضوع المعرض وللدولة أو الشركة العارضة، ولقد بلغ من آثار المعارض الاقتصادية والسياحية أن أصبحت الدول تقيم معارضها في غير أرضها وفي دول أخرى كثيرة ينتقل إليها المعرض شهرًا بعد شهر.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

وقد يكون المعرض محلياً أو وطنياً، أو عالمياً دولياً، وقد يقتصر على نوع واحد من المعارضات كالسيارات أو الطائرات أو الأدوات الطبية أو الكتب، وقد يكون عاماً لكل أنواع المصنوعات. وتعددت المعارض فكانت للصناعة وما تنتجه، وللزراعة وثمارها، وللثقافة وما يتصل بها من كتب وفنون.

وقد قرأت فيما وقف عنده علمي من موسوعات ومجالات أن أقدم المعارض هو معرض لندن الذي أُقيم في سنة ١٧٥٦م ثم لحق به معرض باريس بعد أربعين سنة تقريباً وهو المعرض الذي افتتحه نابليون بونابرت، كما افتتحت الملكة فكتوريا معرضاً آخر في لندن عام ١٨٥١م ولحق به بعد ذلك معرض نيويورك. واحتفلت العاصمة الفرنسية بمرور مئة سنة على الثورة فأقامت معرضاً بنت من أجله في ذكرى الثورة برج إيفل سنة ١٨٨٩م وتتابع بعد ذلك المعارض في بروكسل ومونتريال وطوكيو.

وكان لدمشق معرضها الدولي سنة ١٩٥٤م وكان حدثاً اقتصادياً ومناسبة اجتماعية وترفيهية لا ينساها ولا ينسى أثرها من حضرها. وقد حقق نجاحاً دعا إلى الاستمرار في إقامته عاماً بعد عام حتى بلغ عمره اليوم أربعاً وخمسين سنة.

وإذا كان موضوع محاضرتي يفرض عليّ الآن أن أنشر بين أيديكم صفحة منسية من تاريخ المعارض، فإن تاريخ العرب يفرض عليّ أيضاً أن أنشر صفحة جديدة بالنشر:

- المعارض العربية:

ما دامت المعارض كما رأينا أسواقاً تجارية موسمية للعرض أو للبيع فما الذي ينقص أسواق العرب منذ الجاهلية حتى تكون معارض كمعارضنا؟!

إنها أسواق تُقام في أماكن محدّدة وأزمان معيّنة، فيها عرض وبيع وشراء، منها

المحلّي لقبيلة ومن يجاورها، ومنها العامّ كسوق عُمان الذي كان يجتمع فيه أهل اليمن والحجاز والشام وفارس والحبشة والهند، وسوق حُباشة، ولعل اسمه يشير إلى قاصديه، فالْحُبْش في اللغة والتحبّيش هو الجمع والتجميع، وهو السوق الذي قصده محمد ﷺ بمال السيدة خديجة حين أرسلته بتجارتهما قبل النبوة.

ولنأخذ مثلاً واحداً من تلك الأسواق التي بلغت في جزيرة العرب نيفاً وعشرين سوقاً هو سوق عكاظ، بل قل «معرض عكاظ» إنه معرض بكل ما تدلّ عليه كلمة معرض، فهو سوق يقام في زمن معيّن هو شهر ذي القعدة، من منتصفه إلى نهايته، وفي مكان محدّد هو الواقع بين مكة والطائف، إلى الجنوب الشرقي من مكة، ويقصده أهل هجر واليمن والجزيرة والعراق وغزة وبصرى، تعرض فيه السلع والبضائع ويباع فيه ويشترى؛ وفيه الحرير والبرود والطيب والجلود والمعادن والسلاح، وفيه السمن والزيت والخمر والزبيب والرقيق.

وهو كمعارضنا التي تقام في رحابها اليوم اللقاءات الثقافية، تجري فيه المناظرات والخطب والمنافسات الشعرية وجلسات التحكيم، مما طار صيته وغلب ذكره حتى لم نعد نذكر عن عكاظ إلا أنه سوق لغة وأدب وشعر !!

بل لقد زاد على ذلك فكان مركزاً إعلامياً تعلن القبائل فيه بياناتها من خلع لمن تخلعه القبيلة أي تتخلّى عنه وعن حمايته، ومن إلحاق لمن تُلحقه بنسبها، ومن مطالبة بتأرٍ لرفع الحماية عمّن تطلبه، ومن إجارة لمن تجيره.

أفليس سوق عكاظ وأمثاله معرضاً كمعارضنا اليوم يمثلها بمعانيه ووظائفه وإن لم يكن يماثلها بمظهره.

- معارض دمشق:

في يوم الاثنين الثاني عشر من تشرين الثاني من عام ١٩٢٧م افتُتح في دمشق معرض زراعي للشمار والفواكه، رعته وزارة الزراعة والتجارة التي كان وزيرها آنذاك السيد نصوحي البخاري. استمرّ المعرض خمسة أيام، وتجاوز عدد زائريه أحد عشر ألفاً من الرجال والنساء، وشارك فيه ألف وخمسمئة (١٥٠٠) عارض من جميع المدن السورية، وكان تجربة ناجحة استقبلها الشعب السوري بالترحاب وكان صداها طيباً لدى الجميع، فرح به المزارعون والتجار والمواطنون، لأنهم وجدوا فيه فرصة تطلعهم على الإنتاج الزراعي في جميع المدن وأريافها، وفاز عدد من المشاركين بجوائز وزّعتها عليهم إدارة المعرض.

وقد ذكر هذا المعرض أستاذنا سعيد الأفغاني فقال: كان أثر هذا المعرض في نهضة الزراعة وانتعاشها مباركاً محموداً؛ علّم الزرّاع ما لم يكونوا يعلمون، وحمل إلى الناس ما تنتج أرض الوطن في مختلف البقاع من ثمار تتشابه في النوع وتباين في الصفة، فأغنى الناس عن رحلة زراعية واسعة في المدن السورية، ووفّر عليهم زمناً ومشقة وأموالاً، وخطا في تعليم الجمهور خطوة ميمونة العاقبة، ورأى فيه المزارعون من يُعنى بهم ويريد لهم الخير واطّراد الرقيّ، وتسابق فيه العارضون وفاز المعني بثماره منهم بجوائز المعرض.

وأما المعرض الدمشقي الثاني فهو معرض الصناعات الشرقية، الذي أُقيم في مجمع اللغة العربية في سنة ١٩٢٨م. كان معرضاً خاصاً بالصناعات الشرقية من معدنية وحشيشية وزجاجية ونسيجية، وكان معرضاً وطنياً محلياً بل غلب عليه الطابع الدمشقي، لأن قِصر مدّته ومدّة الاستعداد له لم تسمح لأكثر المدن السورية أن تشارك فيه؛ فلقد عزمت السلطات السورية على إقامة هذا المعرض، وراحت تتردّد في اختيار المكان المناسب له، وكان وزير المعارف يومئذ الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي

- كما كان يسمّى - فاقترح أن يُقام المعرض في مبنى المجمع في المدرسة العادلية بباب البريد، وتم ذلك وافتتح المعرض في اليوم الثامن من شهر حزيران عام ١٩٢٨م بحضور ممثلي السلطة المستعمرة والمسؤولين السوريين، وألقى وزير المعارف رئيس المجمع كلمة الافتتاح، وقد تحدّث عن ذلك المعرض وافتتاحه، فذكر أنه تمّ افتتاحه تحت رعاية الحكومة ورعاية المجمع العلمي العربي وبرئاسته بوصفه وزيراً للمعارف يوم ٨ حزيران سنة ١٩٢٨م، وأنه معرض للصنائع الشرقية، خصّصت ردهة محاضرات المجمع لعرض الآثار الشرقية الإسلامية القديمة، وخصّصت قاعتان كبيرتان لعرض الصنائع الشرقية الحديثة. وعرض في القاعات الثلاث السجاد والنحاس والأخشاب والزجاج والأسلحة والجلود والمخطوطات والصور والأقمشة، وكل ما هو من الفنون الجميلة. وقال إن لجنة المعرض دعت أرباب تلك الصناعات وغوّأها في جميع المدن السورية والدول المشمولة بالانتداب الفرنسي والبلاد المجاورة، فلبّي بعضهم الطلب مثل مديرية أوقاف دمشق والجاليات الأجنبية وبعض أعيان دمشق وتجارها، فكان مجموع من اشتركوا في هذا المعرض ٨٦ عارضاً، وعُرض فيه ٦٢٧ قطعة منوّعة.. وقال: كان الإقبال على معرض الصنائع فوق ما كان يرجى، وذلك لتعطش الجمهور لمثل هذه المظاهر الفنيّة والصناعية واهتمامه بالنهضة الاقتصادية، وقد زار المعرض نيّف وأربعون ألفاً خلال ثمانية الأيام (من ٨ - ١٥ حزيران) التي ظلت أبوابه مفتوحة فيها، منهم ثلاثة عشر ألف سيّدة. وألقى الأستاذ كرد علي كلمة باللغتين العربية والفرنسية، بيّن فيها الغرض من تنظيم المعرض، وأثنى على من أقاموه ونظّموه، وخصّ بالشكر الأمير جعفر الحسيني وثلاثة آخرين اثنان منهم فرنسيان.

وختم حديثه بقوله: «كانت نتائج المعرض مرضية محسوسة، شعر بها من عرضوا مصنوعاتهم في القاعتين الخاصّتين بالنفائس والأعلاق الحديثة. وبفضل عناية القائمين بالمعرض وشدة احتياطهم أُعيدت جميع الأشياء المعروضة لأصحابها دون أن يفقد

منها شيء أو يلحق بها ضرر. ومنحت هيئة التحكيم أوسمة الاستحقاق الذهبي إلى أربعة من المعارضين، وإلى ستة آخرين أوسمة فضيَّة، وإلى أحد عشر عارضاً أوسمة نحاسية، فكان هذا المعرض فرداً في بابه في هذه الديار لم يسبق له مثيل» وتمتَّ على الحكومة أن تحدث معارض مماثلة نافعة أخرى. ولعل ما لفت النظر في هذا المعرض الجمعي أنه كان شاملاً لأنواع كثيرة مختلفة من المعروضات كالصناعات المعدنية والخشبية والزجاجية والجلدية والسجاد والأسلحة، إلى جانب المخطوطات والحليِّ وما عبَّر عنه الأستاذ كرد علي بأنواع الفنون الجميلة.

وأما المعرض الثالث فهو معرض الصناعات الوطنية في الجامعة السورية عام ١٩٢٩م ولست أدري أكانت قلَّة استجابة البلاد التي دُعيت إلى المشاركة في المعرض السابق، معرض الصناعات الشرقية، هي التي دعت إلى جعل هذا المعرض معرضاً وطنياً محلياً مقصوراً على الصناعات الوطنية، يظهر ذلك من قول الأستاذ كرد علي عن المعرض السابق إنهم دعوا إليه البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسي والدول المجاورة، ثم قال: فلبيَّ بعضهم، وحين عدَّد الذين لبوا قال: مثل مديرية أوقاف دمشق والجاليات الأجنبية وبعض أعيان دمشق!!..

ومهما يكن فقد افتتح المعرض الثالث معرض الصناعات الوطنية بدمشق في الجامعة السورية وهو الاسم القديم لجامعة دمشق لأنها كانت الجامعة الوحيدة في سورية. وكان افتتاحه في شهر آب ١٩٢٩م، وعُرض فيه أرقى ما وصلت إليه الصناعات الشامية حتى ذلك التاريخ، وكان شاملاً لصناعات النسيج والجلود والدباغة والطباعة وصناعة الزجاج والخشب والحليِّ والمصنوعات، وصناعة الزيوت والصابون، وصناعة السكاكر والملبَّس والمرئيات والفواكه المحفَّفة. وامتاز هذا المعرض بمشاركة كثيفة من جميع المدن والمحافظات السورية، كما امتاز بشدَّة الإقبال عليه، وقد ظهر في هذا

المعرض المبكر الوجه الصناعي الراقي لدمشق والمدن السورية كافة. ولعل ذلك كان من أبرز الحوافز التي دعت المسؤولين إلى اعتماد فكرة الاستمرار في إقامة المعارض، فلقد كان ذلك المعرض ذا جدوى بعيدة الأثر في السمعة الجيدة للصناعة السورية، وفي حث الصناعيين على مزيد من الجودة والإتقان والإبداع في صناعاتهم.

- وكان معرض دمشق الرابع سنة ١٩٣٦م في مدرسة التجهيز الأولى. والجدير بالذكر أن نربط بين مدرسة التجهيز والمعرض لنبيّن سبب إقامته فيها. كان الشيخ تاج الدين الحسيني رئيس الجمهورية أمر ببناء مدرسة التجهيز، فأشرف على بنائها وزارة الأشغال العامة ممثلة برئيس مهندسيها سليمان أبو شعر؛ وكان متعهد البناء والتنفيذ المهندس اللبناني يوسف افتموس - على ما أذكر - واستغرق بناؤها ثلاث سنوات وبلغت تكاليف البناء ستة ملايين ليرة سورية، وتسلمتها وزارة المعارف في الشهر الحادي عشر سنة ١٩٣٣م، وبقي البناء شاغراً ريثما أنجز صنع الأثاث اللازم للمكاتب الإدارية وقاعات التدريس، واحتاج تهيئة نقل مكتب عنبر إليها إلى مدة أخرى، فاغتتمت الحكومة هذه الفرصة وأقامت فيها معرض عام ١٩٣٦م الذي افتتح يوم الأحد الواقع في ٣١ حزيران عام ١٩٣٦م، وكان رابع معرض يقام في دمشق، وانتقل مكتب عنبر إلى مبنى التجهيز الأولى في العام الدراسي ١٩٣٦/١٩٣٧م. ولما كان المعرض قد أُقيم فيها أخذت اسم المعرض حتى غلب عليها، وكنا إذا سئلنا عن المدرسة التي نتسبب إليها نجيب: المعرض أو تجهيز المعرض، وبقي هذا الاسم ملازماً لها حتى حملت اسم ثانوية جودة الهاشمي، وهو من أصل جزائري كان أستاذاً للرياضيات في مكتب عنبر، ثم أصبح مديراً لمدرسة التجهيز التي حملت اسمه. أما معرض سنة ١٩٣٦م. فكان مديره الأمير مصطفى الشهابي، الذي صدر في ذلك العام مرسوم رئاسي بمنحه وسام الاستحقاق السوري، تقديراً لجهوده في إدارة المعرض

وتنظيمه (الجريدة الرسمية السنة ١٨ العدد ٣ ص ١١). كما صدر في ١٣ آب من سنة ١٩٣٦ نفسها مرسوم ينظم ممارسة عمل الدليل السياحي بمناسبة إقامة معرض دمشق لذلك العام.

وأحتتم حديثي عن تلك المعارض بما عثرت عليه من أخبارها، أما الخبر الأول فهو أنه أقيم في عام ١٩٣٦م معرض في دير الزور أطلقوا عليه اسم «معرض عيد الربيع» وصدر في ٢١ آذار من ذلك العام مرسوم برقم ١٨٤ بمنح إعانة مالية لمديرية معرض عيد الربيع قدرها (١٠٠) مئة ليرة سورية!!

وأما الخبر الثاني فعن المرسوم ذي الرقم ٩٦٣ الصادر في ٢٢ تشرين الأول عام ١٩٣٦ وهو ينص على تأليف لجنة من الأمير مصطفى الشهابي مدير المعرض، والأستاذ عارف النكدي وكيل مدير المعرض، والسيد خالد العظم رئيس غرفة الصناعة، والأمير جعفر الحسني محافظ المتحف، وذلك لتأمين اشتراك الجمهورية السورية في معرض باريس لعام ١٩٣٧م.

وبعد، فتلك هي أخبار أربعة معارض دمشقية تحكي لنا وللتاريخ قصة كفاح شعب مستعمر، استطاع أن يرفع رأسه وسط جوّ من القهر والعسف ليقيم الدليل على أصالته في الحضارة وعلى قدرته على العودة إلى المشاركة في صنعها.

إنها أربعة معارض، ولعل هناك غيرها مما لم أقف عليه، كان كمعرض عيد الربيع في مدينة دير الزور، قامت بأيدٍ عربية سورية، ونظمتها إدارة سورية، وعرضت فيها صناعة عربية سورية، ولم يشغل الشعب العربي في سورية عن القيام بها ما كان يمرّ به من محن، ولا ما كان يقوم به من كفاح ومقاومة للمستعمر. لقد انبثقت أنوار تلك المعارض في وسط الظلمات التي خيّمت، والإضرابات التي استمرت، والمظاهرات الطلابية والشعبية التي عمّت.. لقد وقفت طويلاً أفكر في باحات المدارس التي كانت

في وقت واحد منابر علم ووطنية، وساحات نضال تقذف النار، وباحات عرض ومعارض تشعّ الأمل والنور وتجدد الحياة!!، كذلك كانت مدارسنا مصانع للرجال في مكتب عنبر والجامعة السورية والتجهيز الأولى.

أفليس جديرًا بنا اليوم أن نعود إلى صفحاتها المنسية ننشرها ونحيي ذكرها وذكرى رجال كانوا ضمائر أمة، حممًا من النار على الأعداء، ومشاعل نور وهداية للأبناء، أضأؤوا طريق العلم والحريّة، وكانوا وما زالوا جديرين بحق أن يمثلوا ثقافة دمشق عاصمة الثقافة العربية.

ولعل مما يلفت النظر حقًا تلك الظاهرة التي وقفتني في أخبار تلك المعارض الدمشقية، وهي أنها قامت في رحاب دور العلم!!

احتضن أحدها مجمع اللغة العربية، وأباح قاعاته لمعرضاته، وافتتحه رئيس المجمع نفسه. واحتضن الثاني جامعة دمشق، وأقيم الثالث في مدرسة التجهيز الأولى.. إنها إشارة ما أظنها مقصودة، ولكنها المصادفة التي تأتي خيرًا من الأمر المقصود! تلك التي كانت تعبّر بوضوح عن النجاح والازدهار في الحياة حين يكون الانسجام والتنسيق والتعاون فيما بين العقل واليد؛ العقل الذي يخطط ويفكر واليد التي ترزع وتصنع وتنقذ، وقد رأيت أستاذي الأفغاني رحمه الله يقول: من غريب الاتفاق أن تقوم معارض دمشق الثلاثة في المجمع العلمي والجامعة السورية ومدرسة التجهيز، أكبر المعاهد العلمية وأعوذها بالخير على البلاد، لتثير في الناس أثرين مزدوجين يرتبطان أشدّ الارتباط، ولا ينفكّان مرتبطين أبدًا أو يفنيا معًا: عبقرية الفكر وعبقرية اليد. لا تقوم حضارة على علم وحده، ولا على صناعة وحدها، ولا بدّ من الاثنين معًا.

وقد لفتت نظري في هذه المعارض ظاهرة أخرى، وليس غريبًا أن أقف عند ما

توحي به أخبار التاريخ من ظواهر وعبر، فالتاريخ لولاها لأصبح حكايات وطُرفاً قد تُمتنع ولكنها لا تفيد.

تلك الظاهرة هي أن عدداً من أعلام الثقافة ورجال الفكر، وممن نسّمع أنهم مجمعون قيل عنهم إنهم يعيشون منعزلين عن المجتمع في أبراجهم العاجية، هم الذين ظهروا في ساحات العمل الاجتماعي والاقتصادي؛ فتيبى مجمعهم - مجمع اللغة العربية - في عصرهم فكرة المعرض، وأقامه في بنائه، وسخر له باحته وقاعاته، وافتتحه رئيسه! وكان مجمعي آخر مديراً للمعرض ثان، وكان مجمعي ثالث معاوناً ووكيلاً لمدير المعرض، وكان نصف أعضاء اللجنة المكلفة بالاشتراك في معرض باريس من المجمعين! لقد كان الأستاذ محمد كرد علي رئيساً للمجمع، وكذلك كان الأمير مصطفى الشهابي والأستاذ عارف النكدي عضوين في المجمع حين كانوا يتولون إدارة المعرض ويشاركون في نشاطه.

وما دمنا نحتفل بدمشق عاصمة للثقافة العربية لسنة ٢٠٠٨، ودمشق عندنا ليست عاصمة للثقافة في عام واحد، ولكنها عاصمة للثقافة على مدى العصور، إنها عاصمة للثقافة سابقاً وحاضرًا ومستقبلاً، وأقول مقلداً لشوقي:

وكل ثقافة في الأرض طالت لها من وردها العلو عرق

ما دمنا نحتفل بدمشق ثقافةً فجدير بنا أن نحبي ذكرى علم من أعلام الثقافة، وأن ننشر سيرته وهو الذي كان شعلة نشاط قل أن يكون بين الناس مثله، كان فكراً نيراً، وقلباً صافياً، وعملاً دائماً، استوعب ثقافة عصره وتاريخ أمته، أتقن اللغة التركية، وأجاد الفرنسية فكتب بها وترجم منها، وأما العربية فقد عشقها ونشر روائعها. وإذا كنت أختار الحديث عنه اليوم فلأنه وجه أنظار أرباب الصناعة إلى أرباب القلم، وعبر بلسان الحال لا بلسان المقال عن أثر الصلة بين العلماء ورجال المال والأعمال،

حين جعل المجمع العلمي اللغوي قبلة أنظارهم يعتادون التردد عليه ليلبّوا دعوته يوم يدعوهم. واخترت الحديث عن الكرد علي لأنه مثال رائع لصفة من صفات دمشق لا أمل الحديث عنها، وهي الخاصة التي آتاها الله هذه المدينة، وهي قدرتها على أن تصهر من يعيش فيها بصفاء وحبّ ونقاء حتى يصبح واحداً من أبنائها، أيّاً كان عرقه أو نسبه أو دينه أو مذهبه. إنه القانون الدمشقي الذي يقول: كلٌّ من عاش في دمشق بصفاء ووفاء أحبّها وأحبّته، وعلق بها وقدرته، كل من فتح لها قلبه فتحت له ذراعيها وقلبها. وكل من عاش فيها ثم تنكّر لها بقول أو عمل فليس له من الإخلاص والوفاء نصيب.

أرأيتم إلى رجل كردي من شمال العراق يهاجر إلى دمشق ويتزوج ابنه امرأة شركسية من ففقسيا ويرزق الأبوان الكرديّ والقفقاسية أولاداً ثلاثة تتسلّمهم دمشق، ويتسلّم واحداً منهم شيوخ دمشق فإذا هو علم من أعلام دمشق ثقافةً وعروبةً وعشقاً للغة العربية ودفاعاً عن تاريخ العرب والإسلام وحضارتهم؟ ذلكم هو محمد كرد علي الذي ولد في دمشق عام ١٨٧٦م من أب كرديّ أبوه من السليمانية في شمال العراق، ومن أم شركسية من القوقاز، يموت أبوه وهو ابن اثني عشرة سنة ويلزم أساتذة ومرشدين من شيوخ دمشق التي أحبها وأحبهم، وهم الشيخ طاهر الجزائري والشيخ محمد المبارك، والشيخ سليم البخاري، أما المبارك فيقول كرد علي إنه أخذ عنه اللغة والإنشاء، ووجهه إلى ترك النظم والتخلّي عن الإنشاد، وأما الشيخ طاهر فيسميه الأستاذ الأكبر وصدر الحكماء، ويقول إنه هو الذي أشرب روحه حبّ العرب وحثّه على إحياء تراثهم.

لقد جعلت دمشق بما في جوّها من عراقة ونبيل وأصالة وتكافل وحبّ، وبمن فيها من شيوخ قامت مشيختهم على التقوى والعلم والإخلاص، جعلت الأستاذ كرد علي واحداً من أعلام مثقفيها وكبار عاشقيها، يتبوأ فيها أرفع المناصب كرئاسة المجمع

العلمي العربي الدمشقي طوال حياته من سنة إنشائه (١٩١٩م إلى سنة ١٩٥٣م) سنة وفاة الأستاذ كرد علي، وكوزارة المعارف، ورئاسة تحرير عدة صحف ومجلات عربية في دمشق والقاهرة.. وتجعل منه واحدًا من الأوائل المبرزين في غير ما ميدان من ميادين الحياة الثقافية:

فهو أول من أصدر جريدة يومية في دمشق باسم «المقتبس» بعد أن كانت المقتبس قد صدرت في القاهرة قبل ثلاث سنوات على شكل مجلة. ولعل ما كتبه الأستاذ كرد علي تحت عنوان مجلته «المقتبس» يدلّ على سعة اهتمامه واستيعاب أهدافه لأسباب النهضة وصالح المجتمع، لقد كتب على صفحة عنوان مجلة المقتبس «مجلة تبحث في التربية والتعليم والاجتماع والاقتصاد والأدب والتاريخ والآثار واللغة وتدير المنزل والصحة والكتب وحضارة العرب وحضارة الغرب، تصدر في كل شهر عربي بدمشق لمنشئها محمد كرد علي.».

وهو أول من أسس مجمعًا علميًا للغة العربية في الوطن العربيّ كلّه، وكان ذلك في حزيران سنة ١٩١٩م.

لقد عاش محمد كرد علي سبعا وسبعين سنة ومات في نيسان من سنة ١٩٥٣م وترك لنا تراثًا فكريًا وإنتاجًا ثقافيًا يرفع رأس دمشق عاليًا. لقد ترك نحوًا من خمسة وثلاثين كتابًا ما بين مؤلّف ومحقق و مترجم وترك مئات المقالات.

وخلّد دمشق في كتبه: «دمشق مدينة السحر والشعر»، و«غوطة دمشق»، و«خطط الشام». وخلّد حضارة أمتنا في كتابه «الإسلام والحضارة العربية»، وخلّد القانون الدمشقي الذي ذكرته، وبيّن أثر اللغة العربية في تعريف الأفكار والأشخاص، وكشف عن حقيقة لو أدركتها الأمة اليوم لآهت كل من يقف أو يعرقل مسيرة التمكين للغة العربية، وقال ما لو أنصف اليوم ساكنو العراق والشام وبلاد العرب

كلّهما لأدركوا ما أدركه من أثر الدّين واللغة العربية في وحدة الأمة وصهر أعراقها؛ قال: «أنا كرديّ عربيّ مسلم، فوالدي وأجدادي من الأكراد، فأنا كرديّ العرق، عربيّ الفكر والقلب واللسان، مسلم العقيدة، وليس لأيّ لغوي متعمّق في لغة الضاد، دارس مؤرخ راسخ في دراسة التاريخ الحضاري لهذه الأمة إلاّ أن يكون عربي القلب والفكر والهوى، مهما كان محتده، ومهما كانت عقيدته.».

وإني لأتركّ للسامعين الكرام وللقرّاء أن يحكموا في ضوء هذا القول وعلى هداه على كلّ من يعوق التمكين للعربيّة، وعلى كل من يزاومها بالعامية أو بالأجنبيّة في داخل البلاد وخارجها، لأيّ سبب من الأسباب وأيّاً كان عمله أو منصبه.

إن الأستاذ كرد علي ألّف عنه كتب، وكتب عنه مقالات، وعقدت للحديث عنه ندوات ومؤتمرات، ولن تنفيه حقّه كلمات ولكني أقول إنني عرفته عن قرب، وعرفت كثيرين من رجال الفكر وأعلام الثقافة، وما رأيت من عرف حقيقة ما يريد وأدرك طبيعة عمله معرفته وإدراكه؛ لقد كان يجعل كل عمل يتسلّمه بحر نشاطٍ يموج من حوله، وشعاع نورٍ يهدي من معه؛ لقد أدار المجمع العلمي العربي فجعله محور نشاط اجتماعي، لم يكن نشاط المجمع في عهده نشاط أفراد يعملون ولكنه كان نشاطاً لغويّاً وأدبيّاً وثقافياً يموج المجتمع من حوله، ويتردد صده في جنباته، وتتم به كل طبقاته؛ لقد كنت أرى النشاط في المجتمع شاملاً للشباب والشيوخ وللرجال والنساء، شاملاً كل أنواع النشاط الثقافي والقومي بمحاضراته وندواته ومؤتمراته، وبإصدار المجلة وتأليف الكتب وتحقيق المخطوطات وإحياء التراث.. وكل ذلك كان الأستاذ كرد علي محوره ومحركه والدافع إليه. لقد كنت أرى الكرد علي وحده مجمعاً أنشط من مجامع اليوم، ولست أدري أكان المجمع قطعة من الكرد علي أم كان الكرد علي قطعة من المجمع؟!.

إن من يعرف العلامة المصلح الشيخ طاهر الجزائري معرفتي به يدرك مدى أثر هذا الشيخ في صنع الرجال. لقد تخرّج به نفرٌ من الشبان لم يلبثوا أن أصبحوا زعماء الشام في الوطنية والثقافة والإصلاح، وحسبه أن تلميذه الكرد علي حين أراد أن ينشر كتابه «كنوز الأجداد» وكان قد مضى على وفاة أستاذه الشيخ طاهر ثلاثون سنة لم يسعه إلا أن يقدّمه إليه فقال في إهدائه «إلى روح من أشرب قلبي حبّ العرب، وهداني إلى البحث في كتبهم، إلى صدر الحكماء سيّدي وأستاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري.»

رحم الله التلميذ ورحم شيخه، ورحم في دمشق جيلاً ربط العلم بين شبابه وشيوخه، وأحكم الصلّة بينهم الوفاء والإخلاص.

وحياً لله دمشق عاصمةً للثقافة، وصانعةً للوحدة، ومدينة لتألف والمحبة.

استدراك على الأصمعيات للأصمعي «عبد الملك بن قريب المتوفى ٢١٦هـ»

أ. ناصر توفيق الجباعي (*)

مقدمة:

الأصمعيات: مجموع شعري من اختيار الإمام عبد الملك بن قريب الأصمعي المتوفى (٢١٦ هـ).

نُشرت في المرة الأولى: بتحقيق المستشرق وليم بن آلود البروسي، وطبعت في مدينة (ليبنغ) في ألمانيا سنة (١٩٠٢م)، ضمن الجزء الأول من مجموع أشعار العرب. وتضم سبعاً وسبعين قصيدة لخمسة وخمسين شاعرًا، وقصائدها مرتبة حسب القوافي ترتيباً ألف بائياً حيث بدأت بالأسعر الجعفي، ثم عدي بن رعاء، وانتهت بقصيدة ثمر بن عمرو الحنفي.

وفي المرة الثانية: بتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون.

وتضم اثنتين وتسعين قصيدة لواحد وسبعين شاعرًا.

وتبدأ هذه الطبعة بقصيدة سحيم بن وثيل الرياحي، وبعده خفاف بن ندبة السلمي، وآخر قصائدها للمتلمس الضُّبعي.

وخرج من هذا التحقيق خمس طبعات الأولى منها كانت عام (١٣٧٥هـ-

١٩٥٥م).

(*) باحث في الأدب والنقد من سورية.

وهي غير مرتبة على نحو معين. ويقول المحققان في وصف المخطوطة التي اعتمدا عليها في التحقيق:

«فهي غير مرتبة على قاعدة معينة شأنها كشأن المفضليات، قصيدة بعد قصيدة، وفيها شروح لبعض الغريب، وفيها قصص لحوادث كانت سبباً لبعض القصائد»^(١).

وهذا دليل على أنها خرجت على النحو الذي وجدت عليه.

المرة الثالثة: قام بتحقيقها عمر فاروق الطباع. وتضم - كسابقتها - اثنتين وتسعين قصيدة لواحد وسبعين شاعرًا، وصدرت عام (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م).

المرة الرابعة: قام بتحقيقها قصي الحسين. وهي كسابقتها من حيث عدد الشعراء والقصائد، وصدرت عام (١٩٩٨م).

وبمراجعة كتب اللغة والأدب وجدت نصوصًا وإشارات قديمة ترجع إلى عصور الأئمة الأولين، تدل على أن بعض القصائد هي من اختيار الأصمعي أو وجدت في اختياره الموسوم بالأصمعيات، وبمراجعة الأصمعيات المنشورة لم ترد فيها النصوص التي توفرت بين يدي.

فرتبت تلك القصائد ترتيبًا ألف بائيًا حسب أسماء شعرائها مشيرًا إلى مصادر تراجم الشعراء.

أما ما رأيت أنه يحتاج إلى شرح من الأبيات مثل قصائد المفضليات، فقد نقلت شروح الأئمة مراعيًا أسهلها على الدارس، ورجعت في بعضها إلى المعاجم.

كما أشرت إلى اختلاف الرواية فيما ورد فيه اختلاف رواية من الأبيات.

(١) المفضليات: المفضل بن محمد بن يعلى الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر/ عبد السلام محمد

قصيدة إسحاق بن سويد العدوي

ورد في البيان والتبيين أن الأصمعي:

«قال: أنشدني المعتمر بن سليمان لإسحاق بن سويد العدوي^(٢)» ثم ذكر الأبيات.

وقال المبرد عنها:

«فأما ما وضعه الأصمعي في كتاب الاختيار فعلى غلط وضع. وذكر الأصمعي

أن الشعر لإسحاق بن سويد الفقيه، وهو لأعرابي لا يعرف المقالات التي يميل إليها أهل الأهواء، أنشد الأصمعي:

- ١- بَرِئْتُ مِنَ الْخَوَارِجِ لَسْتُ مِنْهُمْ مِنْ الْعَزَالِ مِنْهُمْ وَابْنِ بَابِ^(٣)
 ٢- وَمَنْ قَوْمٌ إِذَا دَكَّرُوا عَلَيَّا يَرُدُّونَ السَّلَامَ عَلَى السَّحَابِ
 ٣- وَلَكِنِّي أَحِبُّ بِكُلِّ قَلْبِي وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَاكَ مِنَ الصَّوَابِ
 ٤- رَسُولَ اللَّهِ وَالصَّدِيقَ حُبًّا بِهِ أَرْجُو غَدًا حُسْنَ الثَّوَابِ

فإن قوله: (من العزّال منهم) فهو يعني واصل بن عطاء وكان يكنى أبا حذيفة، وكان معتزلياً، ولم يكن عزّالاً ولكنه كان يُلقب بذلك، لأنّه كان يلزم العزّالين ليُعرف المعتقدات من النساء فيجعل صدقته هن^(٤).

علماً بأنه لا يوجد لهذا الشاعر ذكر في الأصمعيات التي بين أيدينا.

(٢) البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط ١، نشر مكتبة الخانجي،

القاهرة، مكتبة الهلال، بيروت، ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م. ج ١ ص ٢٣.

(٣) ابن باب: هو أبو عثمان عمرو بن عبيد من شيوخ المعتزلة، وأحد الزهاد المشهورين توفي بمران سنة ١٤٤هـ ورثاه المنصور. قالوا ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه - وفيات الأعيان:

ابن خلكان: ج ٣ ص ٩٢١.

(٤) الكامل: المبرد، ج ٣ ص ٩٢١ تحقيق: أحمد شاكر، ط ١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي،

١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.

قصيدة امرئ القيس بن عابس الكندي^(٥)

قال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في حديثه عن الشعر^(٦):

«وقد يُحفظ ويُختار على خِفةِ الرّويِّ كقولِ الشاعر:

١- يا تَمَلِّكُ يا تَمَلِّي صِلِينِي وَدَرِي عَدْلِي

قوله: تَمَلِّكُ اسمُ امرأةٍ، وتَمَل: مُرَحِّمٌ. والعَدْلُ: اللُّومُ.

٢- دَرِينِي وَسِلَاحِي تُمُّ شُدِّي الكَفِّ بِالْعَزْلِ

قوله: العَزْلُ: جمعُ أعزَلُ وهو الذي لا سلاح معه، يقول: أصْرِنِي هَمَّكَ إلى من هو قَاعِدٌ عن الحرب والرَّمِيَةِ ولا تفارِقِيهِ، وشُدِّي كَفِّكَ به.

٣- وَتَبَلِي وَفَقَاهَاكَ عِرَاقِيْبِ قَطًّا طَحْلِي

قوله: فُقُوهُ السهم: فَوْقُهُ والجمع فَعَاءٌ. والطَّحْلُ: لونٌ يُشْبَهُ الطَّحَالَ شَبَّهَ بِهَا رِيْشَ السهم. وقوله: كَعِرَاقِيْبِ قَطًّا طَحْلِي: شَبَّهَ أَفْوَاقَ النبلِ أَي الحُمْرَةَ التي تَكُونُ في الفُوقِ بعِرَاقِيْبِ القَطَا.

٤- وَمِيَّي نَظْرَةَ بَعْدِي وَمِيَّي نَظْرَةَ قَبْلِي

أَي: أَفْهَمُ ما حَصَرَ وَغَاب.

٥- وَتَوْبَاي جَدِيدَانِ وَأُزْحِي شُرُكَ النَّعْلِ

٦- فِيمَا مُتُّ يا تَمَلِّي فَمَوِي حُرَّةً مِثْلِي

[المثبت رواية اللسان ورواية الشعر والشعراء: فكوني حُرَّةً مثلي].

وهذا الشعرُ مما اختاره الأصمعي بِخِفةِ رَوِيِّهِ.

(٥) انظر: المؤلف والمختلف: الآمدي: ٩، والخزانة: ج ١ ص ٣٣٥.

(٦) الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.

وقد أورد السيرافي (ت ٣٦٨هـ) الأبيات بسندٍ عن الأصمعي «عن أبي عمرو ابن العلاء، لرجلٍ من اليمن، وقد سماه غيره، فقال: امرؤ القيس بن عابس». وزاد «قال أبو عمرو: وزادني فيها الجمحي^(٧)»:

٧- وَقَدْ أَسْبَأُ لِلنُّدْمَا نِ بِالنَّاقَةِ وَالرَّحْلِ

٨- وَقَدْ أَخْتَلِسُ الطَّعْمَ نَةً تَنْفِي سَنَنَ الرَّحْلِ

يقولُ: يخرجُ منها من الدَّمِ ما يَمْنَعُ الرَّجُلَ من الطَّرِيقِ

٩- وَقَدْ أَخْتَلِسُ الطَّعْمَ نَةً لَا يَدْمَى لَهَا نَضْلِي

ورواية اللسان [...] وقد أختلس الضربة...]. أي من السرعة والحذق.

١٠- كَجَيْبِ الدَّفْنِسِ الْوَزْهَا ءِ رِيْعَتْ وَهِيَ تَسْتَقْلِي

قولُهُ: الدَّفْنِسُ: بالكسر المرأة الحمقاء. والوَزْهَاءُ: المِسْتَرْخِيَةُ.

(٧) أخبار النحويين البصريين: أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، تحقيق: طه محمد الزيني / محمد عبد المنعم خفاجي، ط١، مكتبة مصطفى الباوي الحلبي، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م ص ٢٣.

- وفي لسان العرب (فقا) أورد الأبيات وذكر أنّ أبا عمرو بن العلاء قال: أنشدني هذه الأبيات الأصمعي لرجل من اليمن ... فخالف بهذا السند السابق علماً بأنّ أبا عمرو من شيوخ الأصمعي.

- وفي مادة (دفسن) قال: أنشد أبو عمرو بن العلاء للفند الزماني، ويروى لامرئ القيس ابن عابس الكندي وأورد الأبيات: ١، ٢، ٣، ٨، ٩، ١٠. وقدم البيت رقم: ١٠ على البيت رقم: ٩.

قصيدة ثعلبة بن عمرو العبدي^(*)

ورد في الحديث عن هذه القصيدة في المفضليات أنّ الأنباري رواها «مقيدة القافية. أمّا إطلاق قافيتها كما ثبت في نسخة التبريزي، ونسختي المفضليات بكبرل، والمتحف البريطاني فهو عن الأصمعي^(٨)».

وفي اللسان: «وجاحِلَةٌ عَيْنُهُ إِذَا عَارَتْ، قَالَ: ثَعْلَبُ بْنُ عَمْرٍو الْعَبْدِيُّ:
وَأَهْلَكَ مُهْرَ أَيْبِكَ الدَّوَا ءَ لَيْسَ لَهُ مِنْ طَعَامٍ نَصِيبُ
فَتُصْبِحُ جَاحِلَةٌ عَيْنُهُ لِحْنُو اسْتِهِ وَصَلَاهُ غُيُوبُ

والقصيدة في الجزء الأول من الأصمعيات^(٩)»

ولا يوجد لهذا الشاعر ذكر في الأصمعيات المنشورة والقصيدة في المفضليات: مع

ترجمة الشاعر ثعلبة بن عمرو:

١- أَأَسْمَاءُ لَمْ تَسْأَلِي عَنِ أَيِّبِ لِكِ وَالْقَوْمِ قَدْ كَانَ فِيهِمْ خُطُوبُ
[خُطُوبٌ: أُمُورٌ، جَمْعُ خَطْبٍ.]

٢- إِنَّ عَرِيْبًا وَإِنْ سَاءَ بِي أَحَبُّ حَبِيْبٍ وَأَدْنَى قَرِيْبِ

قيل: عَرِيْبٌ فَرَسُهُ. وقال المرزوقي: عَرِيْبٌ: اسْمُ رَجُلٍ.

٣- سَأَجْعَلُ نَفْسِي لَهُ جُنَّةً بِشَاكِي السَّلَاحِ هَيْبِكِ أَرِيْبِ

جُنَّةٌ: وَاقِيَةٌ. وَالنَّهْيُكُ: الشَّجَاعُ بَيِّنُ النَّهَاكَةِ، يَنْهَكُ فِي الْعَدُوِّ، أَيِ يَبَالِغُ فِيهِمْ. وَأَرِيْبٌ: أَيِ ذُو إِزْبِ، أَيِ ذَهَبِي. وَشَاكِي السَّلَاحِ: أَيِ سِلَاحِهِ ذُو شَوْكَةٍ.

(*) هو ثعلبة بن عمرو العبدي من بني سليمة في عبد القيس، وقال الأصمعي: هي لرجل من بني شيبان حليف في عبد القيس. انظر المفضليات شرح التبريزي: ج ١ ص ٩١٧. وتبع الأصمعي في هذا صاحب السمط: ٥٢. والمفضليات: تحقيق: شاکر وهارون: ص ٢٥٣.

(٨) شرح اختيارات المفضل: التبريزي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م. ج ٣ ص ١١٢٩.

(٩) لسان العرب: (جَحَلٌ). و(حَجَلٌ). أورد البيت الثاني منسوبًا لثعلبة بن عمرو.

٤- وَأَهْلَكَ مُهْرَ أَبِيكَ الدَّوَا ۚ لَيْسَ لَهُ مِنْ طَعَامٍ نَصِيبٌ

الدَّوَاءُ: مَا يُدَاوَى بِهِ الْفَرَسُ لِلضُّمْرِ.

أراد أهلك مُهْرَ أَبِيكَ تَرَكُ الدَّوَاءِ. وَكُلُّ مَا عَاجَلْتَهُ بِهِ وَأَصْلَحْتَهُ فَهُوَ دَوَاءٌ.

٥- خَلَا أَنَّهُمْ كُلَّمَا أَوْرَدُوا يُضَيِّحُ قَعْبًا عَلَيْهِ ذُنُوبٌ

أَي دَلُّوْ مَاءٍ، أَي هُو ضَائِعٌ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَلِمَا أَوْرَدُوا إِبْلَهُمْ سَفُوهُ قَعْبًا مِنْ لَبَنِ مَزْجٍ بِالمَاءِ.

وقوله: يُضَيِّحُ: أَي يُسْقَى الضِّيَاخَ، وَالضِّيَاخُ: المَمْدُوقُ مِنَ اللَّبَنِ.

٦- فَتُصْبِحُ حَاجِلَةً عَيْنُهُ لِحْنُوِ اسْتِيهِ وَصَلَاةِ غُيُوبِ

الحَاجِلَةُ: العَائِرَةُ الدَّاحِلَةُ فِي القَفَا. وَالصَّلَوَانِ: مَا حَوَلَ الدَّنْبِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلثَّانِي فِي السَّبِقِ: مُصَلِّ، لِأَنَّ رَأْسَهُ عِنْدَ صَلَا السَّابِقِ.

٧- فَأَعَدَّدْتُ عَجَلَى حُسْنِ الدَّوَا ۚ لَمْ يَتَلَمَّسْنَ حَشَاهَا طَيِّبٌ

عَجَلَى: اسْمُ فَرَسِهِ، أَي قَمْتُ بِخِدْمَتِهِ، فَضَمَّرْتُهُ، وَأَحْسَنْتُ صَنَعَتَهُ، وَهِيَ سَلِيمَةٌ لَا عَيْبَ فِيهَا، فَيُحْتَاجُ إِلَى مَعَالِجَتِهَا، وَالاسْتِعَانَةَ بِطَيِّبٍ يُدَاوِيهَا.

ومعنى: لَمْ يَتَلَمَّسْنَ: لَمْ يَتَطَلَّبْنَ: وَقِيلَ: لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا عَالِمٌ بِهَا وَبَأْمَرِهَا، أَجْهًا

حَمَلٌ أَمْ لَا؟

٨- أَحْيَى وَأَخْوَكُ بِبَطْنِ النُّسَا ۚ حَيْرٌ لَيْسَ بِهِ مِنْ مَعَدِّ عَرِيبِ

قوله: بَطْنُ النُّسَيْرِ: مَوْضِعٌ. وَيُقَالُ: مَا بِهَا عَرِيبٌ، أَي أَحَدٌ، وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي النِّفْيِ.

٩- فَأَقْسَمَ بِاللَّهِ لَا يَأْتَلِي وَأَقْسَمْتُ إِنَّ نَلْتُهُ لَا يَأُوبُ

لَا يَأْتَلِي: لَا يُفْصِرُ. وَيَأُوبُ: يَرْجِعُ.

رواية السمطِ [لأقسم يندُرُ نُدْرًا دمي...]

١٠- فَأَقْبَلَ نَحْوِي عَلَى فُذْرَةٍ فَلَمَّا دَنَا صَدَّقْتُهُ الْكَذُوبُ

قوله: على فُذْرَةٍ: موضعه نُصبٌ على الحال، أي أَقْبَلَ نَحْوِي مَقْتَدِرًا عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ، فلما دَنَا مِنِّي صَدَّقْتُهُ نَفْسُهُ، وَكَانَتْ كَذَبْتُهُ إِذْ أَطْمَعْتُهُ فِي دَمِي فَنَدَرْتُهُ.

١١- أَحَالَ بِهَا كَفَّهُ مُدْبِرًا وَهَلْ يُنَجِّنِكَ شَدُّ وَعَيْبُ

قوله: بها: أي فَرَسَهُ، أي وَلى هَارِيًّا. وَأَرَادَ بِكَفِّهِ هُنَا الشِّمَالَ، لِأَنَّ الْعِنَانَ فِيهَا. وَالْوَعَيْبُ: الرَّغِيبُ الْكَثِيرُ.

١٢- فَتَبَعْتُهُ طَعْنَةً ثَرَّةً يَسِيلُ عَلَى الْوَجْهِ مِنْهَا صَيْبُ

قوله: طَعْنَةً ثَرَّةً، أي وَاسِعَةً مَخْرَجِ الدَّمِ، وَكَانَ الْأَصْمَعِيُّ يُرَدُّ هَذِهِ الرَّوَايَةَ، وَيُرْوَى: يَسِيلُ عَلَى الْمِزْنِ مِنْهَا صَيْبُ

ويقول: طَعْنَهُ وَهُوَ مُوَلٌّ فَكَيْفَ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ، وَإِنَّمَا يَسِيلُ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الضَّرْبَةِ.

١٣- فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَلَمْ أَلَهُ وَإِنْ يَنْجُ مِنْهَا فَجُرْحُ رَغِيبُ

أي لَمْ أَدْعُ جَهْدًا فِي أَمْرِهِ، قَدْ طَلَبْتُ قَتْلَهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَذَاكَ أَرَدْتُ، وَإِنْ صَحَّ مِنْهَا فَقَدْ تَرَكْتُ بِهِ جُرْحًا رَغِيبًا، أَي وَاسِعًا.

١٤- وَإِنْ يَلْقَانِي بَعْدَهَا يَلْقَانِي عَلَيْهِ مِنَ الدُّلِّ ثَوْبُ قَشِيبُ

أي يَلْقَانِي وَقَدْ أَلْبَسْتُهُ مَدْلَةً، لَا تَبْلَى مُتَجَدِّدَةً أَبَدًا.

قصيدة الحادرة^(١٠)

روى الأصفهاني في أغانيه قال:

«حدثني محمد بن العباس الزيدي قال: حدثنا عبد الرحمن بن أخي الأصمعي قال: حدثني عمي قال: سمعت شيخًا من بني كنانة من أهل المدينة يقول: كان حسان بن ثابت إذا قيل تنوشدت الأشعار في موضع كذا وكذا يقول: فهل أنشدت كلمة الحويدرة:

بَكَرَتْ سُمَيْةً فَتَمَّتَع

قال أبو عبيدة وهي من مختار الشعر أصمعية مفضلية^(١١)»

وليس للحادرة قصيدة في الأصمعيات، وقد وردت في المفضليات، ووردت في كتاب الاختيارين أيضًا.

وهي في الديوان على النحو الآتي:

١- بَكَرَتْ سُمَيْةً عُذْوَةً فَتَمَّتَعِ وَعَدَتْ، عُذْوٌ مُفَارِقٌ لَمْ يَرْجِعِ

أي: فَأَذْرِكُهَا، فَتَمَّتَعِ مِنْهَا بِسَلَامٍ، أَوْ حَدِيثٍ.

٢- وَتَزَوَّدَتْ عَيْنِي غَدَاةً لَقِيْتُهَا يَلِسُ عُنَيْزَةَ نَظْرَةً لَمْ تَنْفَعِ

قوله: اللَّوَى: مُنْعَرَجُ الرَّمْلِ. وَعُنَيْزَةُ: اسْمُ مَوْضِعٍ.

(١٠) هو قطبة بن أوس بن محصن من بني ذبيان والحويدرة لقبه، جعله ابن سلام في الطبقة التاسعة. انظر: طبقات ابن سلام: ج ١ ص ١٨٦ شرح المفضليات: التبريزي: ج ١ ص ١١١. الاختيارين: ٦٣. الموشح: ٧٣.

(١١) الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة. ج ٣ ص ٢٧١. وورد الخبر في الأغاني: ج ٣ ص ٢٨٠. دون ذكر الشطر وما بعده. وكذلك في شرح اختيارات المفضل: تحقيق: د. فخر الدين قباوة: ج ١ ص ٢٠٩.

٣- وَتَصَدَّفَتْ حَتَّى اسْتَبْتِكَ بِوَأْضِحٍ صَلَّتْ كُمْتَصِبِ الْعَزَالِ الْأَتْلَعِ

قوله: تَصَدَّفَتْ: أَعْرَضَتْ. وَاسْتَبْتِكَ: غَلَبْتِكَ عَلَى عَقْلِكَ صُرْتَ كَأَنَّكَ سَيِّئٌ فِي يَدَيْهَا. وَبِوَأْضِحٍ: يَعْنِي وَجْهَهَا. وَالصَّلْتُ: الْمَشْرِقُ الْجَمِيلُ. وَالْأَتْلَعُ: الطَّوِيلُ الْعُنُقِيُّ.

٤- وَبِمُقَلَّتِي حَوْرَاءَ تَحْسِبُ طَرْفَهَا وَسَنَانَ، حُرَّةَ مُسْتَهَلَّ الْأَذْمَعِ

قوله: بِمُقَلَّتِي: الْمُقَلَّةُ: حَشْوُ الْعَيْنِ بَيَاضُهَا وَسَوَادُهَا. وَالْحَوْرُ: شِدَّةُ سَوَادِ الْعَيْنِ مَعَ شِدَّةِ بَيَاضِهَا. وَسَنَانٌ: كَأَنَّ بِهِ سِنَّةً: يَعْنِي فَاتِرَةٌ. وَالسَّنَّةُ: النَّعَاسُ. وَحُرَّةٌ: عَتِيقَةٌ كَرِيمَةٌ، أَي هِيَ عَتِيقَةُ مَجْرَى الدَّمْعِ. وَالْمُسْتَهَلُّ: مَجْرَى الدَّمْعِ.

٥- وَإِذَا تُنَازَعَكَ الْحَدِيثَ رَأَيْتَهَا حَسَنًا تَبَسُّمُهَا، لَدِيدَ الْمَكْرَعِ

قوله: تُنَازَعَكَ الْحَدِيثَ: تُحَادِثُكَ، تُجَادِثُكَ إِيَّاهُ. الْمَكْرَعُ: مَا يُكْرَعُ مِنْ رِبْقِهَا، أَي يُرْتَشَفُ.

٦- كَعْرِضِ سَارِيَةٍ، أَدْرَتْهُ الصَّبَا مِنْ مَاءِ أَسْجَرَ طَيْبِ الْمِسْتَنْقَعِ

قوله: الْعَرِيضُ: الْمَاءُ الطَّرِيقِيُّ مِنْ سَارِيَةٍ سَرَتْ بِاللَّيْلِ. وَأَدْرَتْهُ: اسْتَحْرَجَتْهُ. وَالْأَسْجَرُ: وَادٍ لَمْ يَصْنَفْ مَأْوَهُ. الْمِسْتَنْقَعُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي اسْتَنْقَعَ فِيهِ الْمَاءُ.

٧- ظَلَمَ الْبِطَاحَ بِهِ انْهَالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النَّطَافُ بِهَا بُعِيدَ الْمُقْلَعِ

قوله: ظَلَمَ الْبِطَاحَ: جَاءَ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ. وَالْحَرِيصَةُ: الْمَطْرَةُ تَحْرُصُ وَجْهَ الْأَرْضِ، أَي تَقْشُرُهُ. وَانْهَالُهَا: تَدْفُقُهَا. النَّطَافُ: الْمِيَاءُ. وَالْمُقْلَعُ: أَي الْكَفُّ. أَي: فَصَفَا مَاءُ هَذِهِ السَّحَابَةِ بَعْدَ أَنْ أَقْلَعَتْ.

٨- لَعِبَ السُّيُولُ بِهِ فَأَصْبَحَ مَأْوُهُ غَلَلًا تَقَطَّعَ فِي أَصُولِ الْخِرْوَعِ

قوله: لَعِبَ السُّيُولُ بِهِ: أَي جَاءَتْهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، كَأَنَّهُمْ يَلْعَبُونَ. وَالغَلَلُ: الْمَاءُ الْجَارِي فِي أَصُولِ الشَّجَرِ، وَالْخِرْوَعُ: نَبْتُ مَعْرُوفٍ، لَيْتٌ حَوَارِ.

٩- فَسَمِيَّ وَجُحِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بَعْدَرَةَ زُفْعَ اللِّوَاءِ بِهَا لَنَا فِي جَمْعِ

قوله: سَمِيَّ: ترخيمُ سمية. كانوا في الجاهلية إذا عَدَرَ الرَّجُلُ رَفَعُوا لَهُ بِسَوْقِ عَكَازِ لَوَاءٍ لِيَعْرِفَهُ النَّاسُ.

١٠- إِنَّا نَعِفُّ فَلَا نُرِيبُ حَلِيفَنَا وَنُكْفُ شُحَّ نُفُوسِنَا فِي الْمَطْمَعِ

قوله: لَا نُرِيبُ حَلِيفَنَا: لَا نَعْدُرُ بِهِ، وَلَا تَأْتِيهِ مِنَّا رِيْبَةٌ.

١١- وَتَقِي بِأَمْنٍ مَالِنَا أَحْسَابِنَا وَجُرِّ فِي الْهَيْجَاءِ الرَّمَاحِ، وَنَدَّعِي

قوله: آمَنَ مَالِنَا: بَفَتْحِ الْمِيمِ: أَوْثَقَهُ فِي نُفُوسِهِمْ. وَأَمْنَهُ، بِكَسْرِهَا: مَا قَدْ آمَنَ لِنَفْسَتِهِ أَنْ يُنْحَرَ، أَوْ خَالِصَ الْمَالِ وَشَرِيفِهِ. أَي: بِنُجُودِ بَأَفْضَلِ أَمْوَالِنَا نَقِي بِهَا أَعْرَاضَنَا. وَالْإِجْرَارُ: أَنْ تَطْعَنَ الرَّجُلَ وَتَتْرَكَ الرُّمْحَ فِيهِ. وَنَدَّعِي: نَنْتَسِبُ: نَقُولُ: لِحْنِ بَنُو فَلَانٍ.

١٢- وَخَوْضُ عَمْرَةَ كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٌ تُرْدِي النُّفُوسَ وَعُنْمُهَا لِلْأَشْجَعِ

قوله: الْعَمْرَةُ: الشَّدَّةُ. وَتُرْدِي: تُهْلِكُ. يَقُولُ: هِيَ ذَاتُ رَدَى. وَلِلْأَشْجَعِ: لِأَهْلِ الشَّجَاعَةِ وَالْبَأْسِ. أَي الْغَنِيمَةُ لِلَّذِي هُوَ أَقْوَى.

١٣- وَتُقِيمُ فِي دَارِ الْحِفَاطِ بِيُوتِنَا زَمْنَا، وَيَطْعَنُ غَيْرِنَا لِلْأَمْرِعِ

قوله: دَارِ الْحِفَاطِ: الَّتِي لَا يُقِيمُ بِهَا إِلَّا مَنْ حَافِظٌ عَلَى حَسْبِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يُحَافِظُ عَلَى نَسْبِهِ إِلَّا الشَّرِيفُ. وَالْأَمْرِعُ: الْأَرْضُ الْخِصْبَةُ. وَيَطْعَنُ: يَرْحَلُ.

١٤- بِسَبِيلِ نَعْرِ، لَا يُسْرِّحُ أَهْلُهُ سَقِيمٍ، يُشَارُ لِقَاؤَهُ، بِالْإِصْبَعِ

قوله: الثَّعْرُ: الْمَوْضِعُ الْمَخُوفُ. وَلَا يُسْرِّحُ أَهْلُهُ، مِنَ الْخَوْفِ لِقُرْبِهِمْ مِنَ الْعَدُوِّ. وَالسَّقِيمُ: الْمَخُوفُ. وَيُشَارُ لِقَاؤَهُ: أَي بِلِقَائِهِ، يُقَالُ: هَذِهِ أَحَبُّ بُتْعَةٍ فِي الْأَرْضِ.

١٥- فَسَمِيَّ، مَا يُدْرِيكَ أَنْ رَبَّ قَتْبَةٍ بَاكَرْتُ لَدَتَّهُمْ، بِأَدَكْنِ، مُثْرِعِ

قوله: الأَدَكُنُّ: ما لو نُه إلى السَّوَادِ، وهو هنا الرِّقُّ. ومُتَرَعٌ: مَمْلُوءٌ.

١٦- مُحْمَرَةٌ، عَقَبَ الصَّبُوحَ، عُيُونُهُمْ بِمَرَى هُنَاكَ، مِنَ الْحَيَاةِ، وَمَسْمَعٌ

قوله: عَقَبَ الصَّبُوحَ: أَي بَعَدَ الصَّبُوحَ، وَبِمَرَى: أَسْلُهُ الْهَمْزُ: بِمَرَى، فَتَرَكَ الْهَمْزَ. يَقُولُ: بِمَنْظَرٍ مِنَ الْحَيَاةِ، حَسَنٌ، وَمَسْمَعٌ حَسَنٌ، أَي: يَرُونَ مَا يَشْتَهُونَهُ وَيَسْمَعُونَهُ.

١٧- مُتَبَطِّحِينَ عَلَى الْكَيْفِ كَأَنَّهُمْ يَبْكُونَ حَوْلَ جَنَازَةٍ لَمْ تُرْفَعِ

قوله: مُتَبَطِّحِينَ: مُسْتَلْقِينَ عَلَى وَجُوهِهِمْ. وَالْكَيفُ: حَظِيرَةٌ مِنْ خَشَبٍ أَوْ شَجَرٍ تُتَّخَذُ لِلإِبِلِ لِتَقِيهَا الرِّيحَ وَالْبَرْدَ.

١٨- بَكَرُوا عَلَيَّ، بِسُحْرَةٍ، فَصَبَحْتُهُمْ مِنْ عَاتِقِي، كَدَمَ الدَّبِيحِ، مُشْعَشَعٌ

قوله: السُّحْرَةُ: الْوَقْتُ قَبْلَ الْفَجْرِ. وَصَبَحْتُهُمْ: سَقَيْتُهُمُ الصَّبُوحَ. وَالْعَاتِقُ: الْخَمْرُ الْعَتِقَةُ الْقَدِيمَةُ. وَالْمُشْعَشَعُ: الْمَرِيقُ بِالْمَاءِ.

١٩- وَمُعَرَّضٌ، تَغْلِي الْمَرَاجِلُ تَحْتَهُ عَجَلْتُ طَبَخْتَهُ، لِرَهْطٍ، جُوعٌ

قوله: الْمُعَرَّضُ: اللَّحْمُ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْ نُضْجَهُ. وَالْمَرَاجِلُ: جَمْعُ مَرَجَلٍ، وَهُوَ مَا يُطْبَخُ فِيهِ.

٢٠- وَلَدَيَّ أَشَعْتُ بِأَذْلِ لِيَمِينِهِ فَسَمًا، لَقَدْ أَنْضَجْتَ، لَمْ يَتَوَرَّعِ

قوله: الْأَشَعْتُ: الْمَضْرُوبُ الْمَحْتَاجُ، أَصْلُهُ مِنْ شَعَتِ الرَّأْسَ. يَبْذُلُ يَمِينَهُ: يَخْلِفُ. وَلَمْ يَتَوَرَّعِ: لَمْ يَكْفَ عَنِ الْيَمِينِ، مَضَى عَلَيْهَا. يَقُولُ: قَدْ أَنْضَجْتَ، وَلَمْ يَنْضَجْ.

٢١- وَمُسَهَّادِينَ، مِنَ الْكِلَالِ بَعَثْتُهُمْ بَعْدَ الرُّقَادِ، إِلَى سَوَاهِمِ ظُلَعِ

قوله: الْمُسَهَّادُ: الْمَنْوَعُ مِنَ التَّوْمِ. يَقُولُ: جَاءُوا كَالْبَيْرِ فَلَمْ أَدْعُهُمْ أَنْ يَنَامُوا، فَبَعَثْتُهُمْ إِلَى إِبِلِ كَالَةِ. وَالسَّاهِمُ: الضَّامِرُ الْمَتَّعِرُ. وَالظَّلْعُ: الَّتِي قَدْ حَفِيَتْ مِنَ التَّعَبِ، وَاحِدُهَا ظَالِعٌ.

٢٢- أَوْدَى السَّفَارُ، بِرِمِّهَا فَتَحَاهَا هَيْمًا مُقَطَّعَةً جِبَالَ الْأُدْرَعِ

قوله: أَوْدَى به: دَهَبَ به. والرَّمُّ: الشَّحْمُ. والهَيْمُ: دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ شَبِيهًا بِالْحَمَى، من شَهْوَتِهَا الْمَاءِ، تَشْرَبُ فَلَا تَرْوَى، فِإِذَا أَصَابَهَا ذَلِكَ فُصِدَ لَهَا عِرْقٌ لِيُخَفَّ الدَّاءُ عَنْهَا، وَيَذْهَبُ وَيَبْرُدُ عَلَيَّهَا.

٢٣- نَحَّدُ الْقِيَابِي بِالرَّحَالِ، وَكُلَّهَا يَعْدُو، بِمُنْخَرِقِ الْقَمِيصِ سَمِيدَعِ

قوله: نَحَّدُ: من الْوَحْدَانِ، وَهُوَ أَنْ يَزِمِي الْبَعِيرُ بِقَوَائِمِهِ كَمَشِي النَّعَامِ. وَالْقِيَابِي: الْقَفَارُ. وَالسَّمِيدَعُ: الْجَمِيلُ الشُّجَاعُ، وَجَعَلَهُ مُنْخَرِقَ الْقَمِيصِ لِمَعَالَجَتِهِ السَّنْفَرِ وَابْتِدَالِهِ فِيهِ نَفْسَهُ.

٢٤- وَمَطِيَّةٍ، حَمَلَتْ رَحْلَ مَطِيَّةٍ حَرَجٍ، تُشَمُّ مِنَ الْعَثَارِ، بِدَعْدَعِ

يقول: سِرْتُ عَلَى إِبِلِي فَكَلِمَا انْحَسَرَ بَعِيرٌ، أَوْ مَاتَ أَوْ قَامَ حَوَّلْتُ رَحْلَهُ عَلَى بَعِيرٍ آخَرَ. وَالْحَرَجُ: النَّاقَةُ الظَّامِرَةُ أَوْ الطَّوِيلَةُ الْجَسِيمَةُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: كَانَتْ الْإِبِلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا عَثَرَتْ قِيلَ: دَعْدَعٌ لِتَنْمِي وَتَرْتَفَعُ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ كُرِهَ ذَلِكَ فَقَالُوا: اللَّهُمَّ ارْزُقْ وَأَنْقَعْ.

٢٥- وَمُنَاخٍ غَيْرِ تَيْيَّةٍ، عَرَّسْتُهُ فَمِنْ، مِنَ الْحَدَثَانِ، نَابِي الْمَضْجَعِ

قوله: وَمُنَاخٍ: الْمَنَاخُ: مَوْضِعُ إِنْآحَةِ الْإِبِلِ. وَالتَّيَّةُ: أَي الْمَكْتِ. وَالتَّعْرِيسُ: نَزْوُلُ الْقَوْمِ مِنَ السَّفَرِ لَيْلًا. وَقَمِينٌ: خَلِيقٌ وَجَدِيدٌ. وَالْحَدَثَانِ: نُوبُ الدَّهْرِ وَحَوَادِثُهُ. وَنَابِي الْمَضْجَعِ: لَا يُطْمَأَنُّ فِيهِ وَلَا يُقَامُ بِهِ.

٢٦- عَرَّسْتُهُ، وَوَسَادُ رَأْسِي سَاعِدٌ خَاطِي الْبَضِيعِ، عُرُوفُهُ لَمْ تُدْسَعِ

قوله: الْخَاطِي: الْمَمْتَلِئُ. وَالْبَضِيعُ: اللَّحْمُ. وَيُقَالُ: دَسَعَ الْبَعِيرُ بِجُرَّتِهِ إِذَا دَفَعَ بِهَا، وَقَدْ مَلَأَ فَمَهُ.

٢٧- فَرَفَعْتُ عَنْهُ، وهو أَحْمَرُ فَائِرٌ قَدْ بَانَ مِنِّي، غَيْرَ أَنْ لَمْ يُقْطَعْ

قوله: فَائِرٌ: أي: قَدْ خَدِرَ. وَأَحْمَرٌ: يَعْنِي سَاعِدَهُ. فَقَدْ رَفَعَهُ مِنْ تَحْتِ رَأْسِهِ، وَهُوَ أَحْمَرُ خَدِرٌ، كَأَنَّهُ مَقْطُوعٌ غَيْرَ أَنْ لَمْ يُقْطَعْ.

٢٨- فَتَرَى بَحِيثٌ تَوَكَّأَتْ ثِنَانُهَا أَنْزَا كَمُفْتَحِصِ الْقَطَا لِلْمَهْجَعِ^(١٢)

قوله: الثَّنَانَاتُ: مَوَاصِلُ الدَّرَاعِينَ وَالْعَضْدِينَ مِنْ بَاطِنٍ، وَثِنَانُ الْقَطَا: حَيْثُ يَفْحَصُ فِي الْأَرْضِ لِبَيْضِهِ. وَالْمَهْجَعُ: مَوْضِعُ الْمَجُوعِ. وَقِيلَ إِنَّمَا جَعَلَ ثِنَانُهَا كَأَفْحُوصِ الْقَطَا لَصِغَرِهَا، لِأَنَّ نَجَابَ الْإِبِلِ تَصْعُرُ ثِنَانُهَا وَكَرَاكِرُهَا وَتَبْسُطُ مَشَافِرُهَا.

٢٩- وَمَحَلٌّ مَجْدٍ لَا يُسْرَحُ أَهْلُهُ يَوْمَ الْإِقَامَةِ وَالْحُلُولِ لِمَرْتَعٍ

قوله: وَمَحَلٌّ مَجْدٍ: عَطْفٌ عَلَى دَارِ الْخِفَافِ فِي الْبَيْتِ (١٣). وَجَدَّتِ الْإِبِلُ إِذَا أَكَلَتْ نِصْفَ الشَّبَعِ يُرِيدُ أَهْمٌ إِذَا كَانُوا فِي جَدْبٍ لَمْ يَتْرَكُوا أَحْيَاءَهُمْ وَعَشَائِرَهُمْ وَيَرْحَلُوا فِي طَلَبِ الْخِصْبِ. وَهَذَا الْبَيْتُ زِيَادَةٌ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ وَحَدَّهُ.

٣٠- وَتَقِي إِذَا مَسَّتْ مَنَاسِمُهَا الْحَصَى وَجَعًا وَإِنْ تُرْجَرُ بِهِ تَتَرَفَّعُ

قوله: تَقِي: مِنَ الْوَقِيِّ، وَهُوَ الْخِفَا. وَالْمَنَاسِمُ: جَمْعُ مَنْسَمٍ، وَهُوَ خُفٌّ الْبَعِيرِ. وَتَتَرَفَّعُ: تَرْتَفِعُ فِي سِيرِهَا وَتُسْرَعُ.

هذا البيت رواه ابن الأعرابي بعد البيت (٢٤) ونص عليه الأنباري في آخر القصيدة، مع البيت الآتي:

٣١- وَمَتَاعٌ ذِعْلِبَةٌ تَحْبُ بَرَاقِبٍ مَاضٍ بِشِيعَتِهِ وَعَيْرٍ مُشَيِّعٍ

قوله: الذِعْلِبَةُ: النَّاقَةُ السَّرِيعَةُ. وَتَحْبُ: مِنَ الْحَبِّ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْعَدْوِ.

(١٢) هذا البيت آخر الأبيات في الديوان والأبيات الثلاثة اللاحقة في المفضليات تحقيق وشرح:

أحمد شاكر وعبد السلام هارون. وذكر محقق الاختيارين: البيتين الأخيرين في الهامش، وهما

قصيدة أبي دواد الإيادي (*)

ذكر الزخشي في المستقصى من أمثال العرب قول الشاعر:

«لا يُرْسِلُ السَّاقَ إِلَّا مُمَسِّكًا سَاقًا

من قول الحارث بن دؤسر:

أَلَى أُتَيْحَ لَهُ، حِرَاءٌ تَنْضِبَةٌ لا يُرْسِلُ السَّاقَ إِلَّا مُمَسِّكًا سَاقًا^(١٣)»

وفي هامش الصفحة ذاتها:

«قال الصنعاني هو لأبي دواد الإيادي، ورواه الأصمعي في اختياراته لقيس بن الحداية، وهي أمه، واسم أبيه منقذ^(١٤)».

وليس في الأصمعيات شاعر بهذا الاسم. أما أبو دؤاد الإيادي فقد وردت له قصيدتان في الأصمعيات غير هذه. والقصيدة في ديوانه على النحو الآتي^(١٥):

قال أبو دواد الإيادي:

١- زُمُوا بِبَيْلِ جِمَالِ الْحَيِّ وَأَجْدَبُوا لم يَنْظُرُوا بِاحْتِمَالِ الْحَيِّ إِشْرَاقًا
لم يَنْظُرُوا: لم يَنْتَظِرُوا. احتمال الحي: ارتحاله.

٢- يَحْتَهُمْ نَطْسٌ ذُو بَجْدَةٍ شَرِسٌ أَوْصَى لِيُزَعَجَهُمْ بِالطَّعْنِ سَوَاقًا

(*) هو جارية بن الحجاج من حي من إياد، شاعر جاهلي من وصف الخيل المجيدين. انظر

المؤتلف والمختلف: ١١٥، والسمط: ٨٧٩.

(١٣) المستقصى من أمثال العرب: أبو القاسم جاز الله محمود بن عمر الزخشي، ط ٢،

١٣٩٧هـ-١٩٧٧م. ج ٢ ص ٢٦٩.

(١٤) المصدر السابق: ج ٢ ص ٢٦٩.

(١٥) شعر أبي دواد الإيادي: غوستاف غرناوم، ترجمة: د. إحسان عباس وآخرين، مكتبة الحياة،

بيروت، ١٩٥٩م. ص ٣٢٦.

النَّطْسُ: الحاذقُ بالأُمور.

٣- أَنَّى أُنِيحُ لَهَا، حِرْبَاءُ تَنْضُبَةٌ لا يُرْسِلُ السَّاقَ إِلَّا مُمَسِّكًا سَاقًا

٤- مُفَرَّقًا بَيْنَ أَلْفٍ مُلْسَعَةٍ قَدِ جَانَبَ النَّاسَ تَرْقُحًا وَإِشْفَاقًا

مُلْسَعَةٌ: مقيمةٌ لا تبرح.

٥- تَعْتَاذُهُ زَفَرَاتٌ حِينَ يَذْكُرُهَا سَقَيْنَهُ بِكُؤُوسِ الْمَوْتِ أَفْوَاقًا

٦- حَلَّتْ عَلَيْهِ إِيَاءُ الشَّمْسِ أَوْرَاقًا

إِيَاءُ الشَّمْسِ: نُورُهَا وَحُسْنُهَا.

وفي الاختيارين ورد ذكر قيس بن الحدادية الخزاعي^(١٦)، ونسب له البيت السابق في المقطوعة السابعة والثلاثين.

قال قيس بن الحدادية^(١٧):

١- بَانَتْ سُعَادُ، وَأَمْسَى الْقَلْبُ مُشْتَاقًا وَأَقْلَقَتْهَا نَوَى الْإِزْمَاعِ، إِقْلَاقًا

قَوْلُهُ: بَانَتْ: فَارَقَتْ. وَالْإِزْمَاعُ: أَزْمَعُ عَلَى الْأَمْرِ ثَبَّتَ عَلَيْهِ عَزْمَهُ.

٢- وَهَاجَ بِالْبَيْنِ، مِنْهَا، مِهْجَسٌ فَجَعٌ قَدِ كَانَ، قِدْمًا، بِفَجْعِ الْبَيْنِ نَعَاقًا

قَوْلُهُ: مِهْجَسٌ: هَجَسَ الشَّيْءُ فِي صَدْرِهِ يَهْجَسُ: خَطَرَ بِبَالِهِ.

٣- أَضَحَّتْ مَنَازِلُهَا، بِالْقَاعِ، دَارِسَةً إِلَّا نُيْمًا، كَوَشْمِ الْجَفْنِ، أَخْلَاقًا

قَوْلُهُ: النُّيْمِيُّ: جَمْعُ النَّوْمِ، وَهُوَ الْحَفِيرَةُ حَوْلَ الْحَيْمَةِ تَمْنَعُ عَنْهَا مَاءَ الْمَطْرِ. وَالْجَفْنُ: غَمْدُ

(١٦) هو قيس بن منقذ بن عمرو من بني سلول بن كعب من خزاعة، شاعر جاهلي كان كثير الغارات، شجاعاً فاتكاً تبرات منه خزاعة في سوق عكاظ. والحدادية أمه. انظر: الاختيارين

ص ٢١٦. الأغاني: ج ١٣ ص ٢. معجم الشعراء: ص ٣٢٥.

(١٧) الاختيارين: الأخفش الأصغر، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ط ٢ مؤسسة الرسالة، بيروت،

١٩٨٤م. ص ٢١٦.

السيف. والأخلاق: البالية.

٤- أَدْنَى الإِمَاءِ جِمَالَاتٍ، فُرَاسِيَّةٍ كُومَ الدُّرَى، مُوَزَّ الأَعْضَادِ، أَفْنَاقًا

قوله: الفُرَاسِيَّةُ: الضَّخْمَةُ الشَّدِيدَةُ. والكُومُ: جَمْعُ أَكُومٍ، وهو البعيرُ العَظِيمُ السَّنَامِ. ومُوزَّ: جَمْعُ مَائِرٍ، وهو المَائِحُ السَّرِيعُ الحَرَكَةِ. والأفْنَاقُ: الفُحُولُ المَكْرَمَةُ.

٥- أَلَى أُتِيحَ لَهَا، حِرْبَاءٌ تَنْضُبَةٌ لَا يُرْسَلُ السَّاقَ إِلَّا مُمَسِّكًا سَاقًا

قوله: تَنْضُبَةٌ: شَجَرَةٌ تَأْلُفُهَا الحَرَابِيُّ، والحِرْبَاءُ إِذَا مَا لَجَأَ إِلَى شَجَرَةٍ، فَزَالَتِ الشَّمْسُ عَنْهَا تَحَوَّلَ إِلَى أُخْرَى أَعَدَّهَا لِنَفْسِهِ، وَهَذَا مِثْلُ يُضْرَبُ لِلْمُلْحِفِ: أَي لَا يَدَعُ حَاجَةَ إِلَّا سَأَلَ أُخْرَى.

قصيدة أبي دؤاد الرواسي(*)

جاء في لسان العرب في مادة (ودع):

«ويقال للأحمق يمدد الودعة يشبه بالصبي قال الشاعر:

والحلمُ حلمٌ صبيٌّ يَمْرُثُ الودَعَةَ

قال ابن بري أنشد الأصمعي هذا البيت في الأصمعيات لرجل من تميم

بكماله:

السُّنُّ مِنْ جِلْفَرِيَزٍ عَوَزِمٍ خَلَقِ وَالْعَقْلُ عَقْلُ صَبِيٍّ يَمْرُثُ الودَعَةَ^(١٩)»

(*) هو أبو دؤاد الرواسي رؤاس كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، شاعر فارس. انظر: طبقات

فحول الشعراء الطبقات: ص ٧٦٩. والمؤتلف والم(١٨) لسان العرب: (ودع). و(جلفنز).

ودَّعَ الصَّبِيَّ: وَضَعَ فِي عُنُقِهِ الودَعُ.

ختلف: ص ١١٥.

وقد ورد البيت كاملاً عند ابن دريد في الجمهرة منسوباً لأبي دؤاد الرواسي، وليس له ذكر في الأصمعيات المنشورة:

قال: «رجل ممزّت: صبور على الخصام، والجمع ممارث قال الشاعر:

السُّنُّ من جَلْفَرِيْزٍ عَوْرَمٍ خَلَقِ والحلم حلم صَبِيٍّ يَمْرُثُ الْوَدْعَةَ»^(٢٠)

وقد ورد في لسان العرب أبياتٌ منسوبةٌ لأبي دؤاد الرواسي - على الوزن والروي وهي قوله: - ولعلها تكون من الأصمعيات -:

هَلَا سَأَلْتِ، جَزَاكَ اللهُ سَيِّئَةً إِذْ أَصْبَحْتَ لَيْسَ فِي حَافَاتِهَا قَرْعَهُ

قوله: قَرْعَهُ: الْقَرْعُ قَطْعُ السَّحَابِ، الْوَاحِدَةُ قَرْعَةٌ.

وَرَاخَتِ الشُّوْلُ كَالشَّنَاتِ شَائِسَةً لَا يَرْتَجِي رِسْلَهَا رَاعٍ وَلَا رُبْعَهُ

قوله: الشُّوْلُ: الشُّوْلُ مِنَ النُّوقِ الَّتِي خَفَّ لَبْنُهَا وَارْتَفَعَ صَرَعُهَا. الشَّائِسُ: الْيَابِسُ مِنَ الضَّمْرِ وَالْهَزَالِ، وَقَدْ شَسَفَ الْبَعِيرُ يَشْسُفُ شُسُوفًا. وَشَنَّ الْجَمْلُ مِنَ الْعَطَشِ: إِذَا يَبَسَ. قوله: رُبْعَهُ: الرُّبْعُ: الَّذِي يُنْتَجِ فِي الرَّبِيعِ، وَهُوَ أَوَّلُ النَّتَاجِ.

وَاعْرَوْرَتِ الْعُلْطُ الْعُرْضِيُّ، تَرَكُّضُهُ أُمَّ الْقَوَارِسِ بِالذُّدَاءِ وَالرُّبْعَهُ^(٢١)

قوله: الْعُلْطُ: الَّذِي لَا حِطَامَ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ: بَعِيرٌ عُلطٌ مُلْطٌ: إِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ وَسْمٌ. وَالْعُلْطُ: الطَّوَالُ مِنَ النُّوقِ.

(١٩) لسان العرب: (ودع). و(جلفز). ودَعَّ الصبي: وُضِعَ فِي عُنُقِهِ الْوَدْعُ.

(٢٠) جمهرة اللغة: (مرث) و(دعو). الْجَلْفَرُ وَالْجَلْفَرِيُّ: الصَّلْبُ، وَنَاقَةٌ جَلْفَرِيٌّ: صَلْبَةٌ غَلِيظَةٌ، وَالْجَلْفَرِيٌّ: الْعَجُوزُ الْمَشْتَجَةُ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ عَمُولٌ. يَصِفُ امْرَأَةً أَسْنَتْ وَهِيَ مَعَ سِنَّهَا ضَعِيفَةُ الْعَقْلِ.

(٢١) لسان العرب: (علط) و(الجمهرة: دأدا).

قوله: الرَّبَعَةُ: الرَّبَعَةُ: شدة العدو وقيل هي أشدُّ عدو البعير.

يقول: رَكِبْتُ هذه المرأة التي لها بنونٌ فوارسٌ بعيراً صَعَباً عُرِيّاً من شدة الجذب، وكان البعيرُ لا خطام له، وهذا يضربُ مثلاً في شدة الأمر، فإذا كانت أمُّ الفوارسِ قد بَلَغَ بها هذا الجهدُ فكيف غيرها؟

قصيدة عبد الله سليمة الغامدي (*)

قال البطليوسي في شرح أدب الكتاب:

«وأشده ابن قتيبة:

مُتَقَارِبِ التَّفَنَاتِ صَيَّقِي صَدْرُهُ رَحْبِ اللَّبَانِ شَدِيدِ طَيِّ صَرِيرِ

الشعر لعبد الله بن سليمة بن الحارث أنشده الأصمعي في اختياراته وقبله:

ولقد عَدَوْتُ على الفَنَيْصِ بِشَيْظِمٍ كالجِدْعِ وَسَطَ الجَنَّةِ المَعْرُوسِ (٢٢)»

ولا يوجد لهذا الشاعر اسم في الأصمعيات المنشورة. والبيتان في المفضليات، وبالترتيب الذي ذكره البطليوسي دون تغيير. وتبلغ القصيدة أربعة عشر بيتاً في المفضليات وهي:

١- لمن الدِّيَارُ بتولَعِ فيئوسِ فَبَيَاضِ رِيْطَةَ عَيْرُ دَاتِ أَنَيْسِ

ويروى: بتولَعِ، وهذه مواضعٌ في أرضِ شَنْوَةَ.

(*) اختلف في اسم أبيه، فقيل سلمة، وقيل سليمة، وقيل سليم. وهو عبد الله بن سليمة بن

الحارث بن عوف بن ثعلبة. والغامدي نسبة إلى جده الأعلى. عمرو بن كعب: انظر:

المفضليات: تحقيق: شاكر/ هارون ص ١٠٢. الموشح: ٧٦.

(٢٢) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب: ابن السيد البطليوسي، طبع ومراجعة: عبد الله أفندي

البستاني، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩٥١، ص ٣٢٩.

٢- أَمَسَتْ مُمَسَّنٌ الرِّيحِ مُفِيلَةً كَالْوَشْمِ، رُجِّعَ فِي الْيَدِ الْمُنْكَوسِ

يقال: أَفَالَ عَيْنِي طُولُ الْعَهْدِ، وفالتُ بِهَا عَيْنِي إِذَا لَمْ تَعْرِفْهَا، ومنه: فَالَ رَأْيِي فَلَانٍ.
وقوله: مُسَّنٌ الرِّيحِ: موضعُ اسْتِنَانِهَا، أَي جَرِيهَا وَإِسْرَاعِهَا. ومُفِيلَةٌ: مَطْمُوسَةٌ خَفِيَتْ مَعَالِمُهَا. والْوَشْمُ المنكوسُ: الذي أُعيدَ عليه الوَشْمُ.

٣- وكَأَمَّا جَرُّ الرِّوَامِسِ ذَيْلِهَا فِي صَحْنِهَا الْمَعْفُوفِ ذَيْلُ عَرُوسٍ

الرِّوَامِسُ: الدَّوَانِ يُعْنِي الرِّيحَ. وَذَيْلُ الرِّيحِ: مَا خَيْرُهَا. والمَعْفُوفُ: المدروسُ. يقول: كَأَنَّ ذَيْلَ عَرُوسٍ مَرَّ بِهَا بِمَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ.

٤- فَتَعَدَّ عَنْهَا إِذْ نَأَتْ بِشِمْلَةٍ حَرْفٍ كَعُودِ الْقَوْسِ غَيْرِ ضَرُوسٍ

فَتَعَدَّ عَنْهَا، أَي انصرفت عنها. وَشِمْلَةٌ: نَاقَةٌ خَفِيفَةٌ. والنَاقَةُ الضَّرُوسُ: السَّيِّئَةُ الخُلُقِ، وَأَرَادَ صَلَابَتَهَا. وقوله: كَعُودِ الْقَوْسِ، لِأَنَّهَا تُعْمَلُ مِنْ أَصْلَبِ الشَّجَرِ.

٥- وَلَقَدْ عَدَوْتُ عَلَى الْفَنَيْصِ بِشَيْظَمٍ كَالْجَذَعِ وَسَطِ الْجَنَّةِ الْمَعْرُوسِ

الشَّيْظَمُ: الطَّوِيلُ، وَأَرَادَ كَالْجَذَعِ الْمَعْرُوسِ وَسَطِ الْجَنَّةِ. وَالْجَنَّةُ: البُسْتَانُ.

٦- مُتَقَارِبِ الثَّفَنَاتِ ضَيْقِ زَوْرُهُ رَحْبِ اللَّبَانِ شَدِيدِ طَيِّ ضَرِيْسِ

قوله: الثَّفَنَاتِ: مَوَاصِلُ الدَّرَاعِينَ فِي الْعَضْدِينَ وَالسَّاقِينَ فِي الْفَحْدِينَ، وَإِنَّمَا الثَّفَنَاتُ لِلْبَعِيرِ، وَهِيَ هُنَا مُسْتَعَارَةٌ.

والمعنى: أَنَّ مِرْفَقِيهِ أَحَدُهُمَا قَرِيبٌ مِنَ الْآخَرِ. وَرَحْبٌ: وَاسِعٌ. وَاللَّبَانُ: الصَّدْرُ.
وقوله: شَدِيدِ طَيِّ ضَرِيْسِ: أَي شَدِيدُ طَيِّ الْفَقَارِ، يُقَالُ لِلصَّلْبِ الشَّدِيدِ الْفَقَارِ:
ضَرِيْسٌ ضَرَسًا، وَأَصْلُهُ فِي الْبَعْرِ إِذَا طُوِيَتْ بِحِجَارَةٍ - قِيلَ: ضَرَسَتْ ضَرَسًا، وَضَرَسْتُهَا أَنَا.

٧- يُعْلَى عَلَيْهِ مَسَائِحٌ مِنْ فِضَّةٍ وَثَرَى حَبَابِ الْمَاءِ غَيْرُ يَبِيْسِ

أرادَ صفاءَ شعْرتهِ وقصرَها، فيقولُ: إذا عَرِقَ فهو كذا. والثرى: أولُ ما يَبْدُو من العَرِقِ. والمسيخُ والمسيحةُ: قِطْعَةٌ من الفضةِ، جمعُها مَسَائِحٌ. أي كأنه أليسَ صَفَائِحَ من فِضَّةٍ من حُسْنِ لونهِ وبريقه.

٨- فَتَرَاهُ كَالْمَشْعُوفِ أَعْلَى مَرْقَبٍ كَصَفَائِحٍ مِنْ حُبْلَةٍ وَسُلُوسٍ

قوله: المشعوفُ: الذي قَدْ فَرَعَ فَذَهَبَ فُوْادُهُ. يقول: شُعِفَ فُوْادُهُ فهو في أعلى موضعٍ يكون فيه لِشِدَّةِ خَوْفه. وَصَفَائِحٌ: طَرَائِقُ. وَحُبْلَةٌ: ثَمَرُ الطَّلْحِ. وَسُلُوسٌ: نِظَامٌ من فَرِيدٍ وَلُؤْلُؤٍ، الواحدُ سَلْسٌ.

٩- فِي مُرْبَلَاتٍ رَوَّحَتْ صَفْرِيَّةٍ بِنَوَاضِحٍ يَفْطُرْنَ غَيْرَ وَرَيْسٍ

إِذَا تَطَطَّرَ الشَّجَرُ فِي قُبُلِ الْبَرْدِ قِيلَ: قَدْ أَرِيلَ، وَهُوَ الرِّئِلُ، وَجَمْعُهُ رُيُولٌ. وَيُقَالُ: لِلرِّمْتِ إِذَا أَدْرَكَ جِدًّا فَاصْفَرَ: قَدْ أَوْرَسَ، فَهُوَ وَارِسٌ. وَمُرْبَلَاتٍ: رِيَاضٌ ذَاتُ رَيْلٍ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ يَبْدَأُ ظُهُورَ وَرِقِهِ فِي آخِرِ الْقَيْظِ.

١٠- فَنَزَعْتُهُ وَكَأَنَّ فَجَّ لَبَانِهِ وَسَوَاءَ جَبْهَتِهِ مَدَاكُ عُرُوسٍ

المدَاكُ: حَجَرٌ يُسْحَقُ عَلَيْهِ الطَّيْبُ. وَالْفَجُّ: الطَّرِيقُ الوَاسِعُ. وَأَرَادَ بِفَجِّ لَبَانِهِ: وَسَطَ صَدْرِهِ. وَنَزَعْتُهُ: كَفَفْتُهُ.

١١- وَلَقَدْ أَصَاحِبُ صَاحِبًا ذَا مَأَقَةٍ بِصَحَابٍ مُطَّلِعِ الْأَذَى نَقْرِيْسٍ

المَأَقَةُ: شِدَّةُ الحِدَّةِ وسُرْعَةُ العَضْبِ، وَيُقَالُ فِي مِثْلِ: (أَنَا تَتَّقُ) وَصَاحِبِي مَتَّقٌ فَكَيْفَ نَتَّفِقُ). وَالتَّتَّقُ: المَمْتَلِيُّ، إِنْ مُسَّ انْفَجَرَ. وَالمِتَّقُ: السَّرِيعُ العَضْبِ. وَنَقْرِيْسٌ: عَالِمٌ بِالْأُمُورِ.

١٢- وَلَقَدْ أَرَا حِمُّ ذَا الشَّدَاةِ بِمِرْزَحِمٍ صَعْبِ الْبُدَاهَةِ شَدَى وَشَرِيْسٍ

وَبُرُوسٍ: وَلَقَدْ أَرَا حِمُّ. يُقَالُ: فَلَانُ ذُو شَدَاةٍ عَلَى صَاحِبِهِ، أَيْ ذُو أَدَى. وَالمِرْزَحِمُ:

الشَّدِيدُ المِزَاحِةِ. وَصَعِبَ البُدَاهِةِ: شَدِيدُ البُدَاهِةِ، وَهِيَ المِفْجَاحَةُ إِذَا فُوجِيَ. وَشَرِيْسٌ: مِنَ الشَّرَاسَةِ وَهِيَ سُوءُ الخُلُقِ.

١٣- وَلَقَدْ أَلَيْنُ لِكُلِّ بَاغِي نِعْمَةٍ وَلَقَدْ أَجَازِي أَهْلَ كُلِّ حَوَيْسٍ

يُقَالُ لِلرَّجُلِ: إِنَّهُ لَذُو حَوَيْسٍ، إِذَا كَانَ ذَا عِدَاوَةٍ وَمُضَازَةٍ. وَمِنْهُ رَجُلٌ أَحْوَسٌ. يَقُولُ: أَنَا لَيْتُ الجَانِبِ لِمَنْ قَصَدَنِي لِئَائِلٍ وَفَضْلٍ، شَدِيدٌ عَلَى مَنْ التَّمَسَ شَرِيْسٍ.

١٤- وَلَقَدْ أَدَاوِي دَاءَ كُلِّ مُعَبَّدٍ بَعِيَّةٍ غَلَبَتْ عَلَى النَّطِّيسِ

المُعَبَّدُ: الَّذِي قَدِ جَرِبَ وَذَهَبَ وَبُرِّهَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ شَعْرٌ. وَالْعَيْيَةُ: أَبْوَالُ الإِبِلِ تُطْبِخُ مَعَ أَدْوِيَةٍ وَيُطَالُ إِنْقَاعُهَا وَحَبْسُهَا، فَيُعَالَجُ بِهَا الجَرْبُ الَّذِي قَدِ أَعْيَا. وَالنَّطِّيسُ: مِنَ التَّنَطُّسِ، وَهُوَ التَّنَوُّقُ وَالمِبَالَعَةُ فِي الأَشْيَاءِ.

للبحث صلة

+

(أنباء جمعية وثقافية)

حفل استقبال
الأستاذ الدكتور أنور الخطيب
عضوًا في مجمع اللغة العربية

في الساعة السادسة من مساء الأربعاء ١٤٣٠/١/٢٥ هـ - ٢٠٠٩/١/٢١ م
احتفل المجمع باستقبال الأستاذ الدكتور أنور الخطيب، عضوًا في مجمع اللغة العربية،
في جلسة علنية، حضرها نخبة من رجال السياسة والعلم والأدب وأصدقاء المحترفي
به وطلابه.

بدأ الحفلُ بكلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع، التي رحّب فيها
بالسادة الحضور، وهنّأ الزميل المجعي الجديد، بانضمامه إلى مجمع الخالدين، متمنيًا له
مسيرة طيبة حافلة بالعطاء.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور محمد مكي الحسيني الجزائري، أمين المجمع، كلمة
الترحيب بالزميل الجديد. فتحدث عن سيرته، ومكانته العلمية، وجهوده في خدمة
العلم والإنسانية.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور أنور الخطيب كلمته، التي تحدث فيها عن سلفه الراحل
الأستاذ الدكتور مختار هاشم.

وننشر فيما يلي كلمات الحفل:

كلمة الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع في حفل استقبال الدكتور أنور الخطيب

أيها الحفل الكريم

يسعدني أن أرحب بكم في مجمع اللغة العربية بهذه المناسبة الهامة والنادرة، وهي استقبال عضو جديد ينضم إلى العاملين في مجمعنا، القائمين على خدمة اللغة العربية. ولقد أصبحت خدمة اللغة العربية مهمةً صعبةً جدًّا في عصرنا هذا، إذ إننا نواجه هجومًا غير مسبوق من العامية على لغتنا الفصيحة، كما نواجه تحديات جسامًا منذ مطلع القرن الواحد والعشرين تهدد موقع اللغة العربية في عالم اليوم. أن تكون اللغة العربية إحدى اللغات الرئيسة المعتمدة في المنظمات الدولية شرفٌ يتطلب من مجامع اللغة العربية جهدًا كبيرًا لإبقائها في هذا الموقع. فإن اللغة العربية لا تتبوأ تلك المكانة الرفيعة بفضل ثروتها اللفظية الأسطورية واعتمادها نظام الاشتقاق في توليد الألفاظ فحسب، أو لتألق شعرائها وجمال أدبها، بل لأنها حاملةٌ لثقافة فلسفية وعلمية جعلت منها لغةً عالمية قرونًا عديدة، بعد أن تطابقت مع متطلبات معظم العلوم النقلية، وقام علماءها بتطوير ما وصل إليهم، والارتقاء بالعلم مستندين إلى تجاربهم وخبراتهم. إن خدمة اللغة العربية في عصرنا هذا لم تعد محصورةً في تسهيل تعليم النحو

لتمكين أبنائنا من لغتهم الأم، أو رصد الأخطاء الشائعة لتصحيحها، كما أن مهمة الجامع ليست مقصورةً على العوص في بطون المؤلفات التراثية الرائعة لاستخراج الألفاظ الجميلة منها، واستكمال الشروط البلاغية للخطاب السوي.

بل إن الحداثة التي تحيط بنا، وتحتل أجهزتها مكان الصدارة في بيوتنا، وتسيطر على حيز كبير من فكر شبابنا، تلك الحداثة التي يرافقها دفقٌ غزير من مفهومات جديدة وألفاظٍ مستحدثة تحمل إلينا نتاج الحضارة التي تسود عالمنا، تتطلب منا جهوداً ضخمةً لاستيعاب كل جديد وإعادة إخراج بلغة عربية سليمة.

إننا نواجه هجمةً حداثية قسرية عاتية، تلك التي تُرَوِّدنا بوسائلٍ لتخفيف أعباء الحياة والإعانة على تحمّل شظف العيش في المسكن والمعمل، إلا أنها تفرض علينا إيجاد الأسماء لما لم نشارك في صنعه، وقد نجهد الأسس التي اعتمدت في تركيبه.

إن الحداثة التي تتكسر أمامها على شطآننا، فاتحةً أمامنا آفاقاً جديدة نتجاوز فيها مع أمم استولت على مستقبل الجنس البشري ومقدراته بما توصلت إليه من علوم وإنجازات خارقة في جميع المجالات المعرفية، إنما هي نعمةٌ تُفيد من إسقاطاتها على حياتنا، ولكنها في أية حال تمثل تحدياً جذرياً حين محاولة الوصول إلى سُبُل اللحاق بركبها.

فإذا أردنا أن تدخل الحداثة إلى عقولنا، وألا نكتفي بحصاد ما زرَعته، كان لزاماً علينا تجهيز لغتنا العربية بالمستندات اللازمة لفهم الحداثة، ومن ثمّ المساهمة في تطويرها.

إنّ مجمع اللغة العربية قد آلى على نفسه الإصرار على تجهيز المقابلات العربية للمصطلحات التي تركز عليها العلوم العصرية، ليصل شبابنا إلى طرُق أبواب المعرفة بلغتهم الأم بعد أن تستقر المفاهيم في أذهانهم، فيستطيعون الدخول في الحداثة شركاء، لا تابعين يحارون في تفسير كل لفظة أجنبية تعترض طريق دراساتهم.

وهذا ما جعل مجمعنا يَدْخُلُ في مشروع واسع يهدف إلى توحيد المصطلحات المستعملة في تدريس العلوم في جامعات القطر، نظرًا لما طرأ عليها من اختلافات مردها إلى الخلفية الثقافية لكل أستاذ من الأساتذة. إنها مرحلة أولى تُرفع تلك الدراسة بعدها إلى اتحاد الجامعات العربية، الذي يتولّى إيصالها إلى الجامعات الأخرى، لتكون الأساس المعتمد في نقل العلوم إلى العربية، وقد تمَّ إنجاز معجم للكيمياء وآخر للفيزياء وهما في طور الطباعة.

إن مسار التعريب في سورية منذ مطلع القرن العشرين يؤكد لنا سداد هذا المسلك الذي أنتج أجيالاً من الشبان والشابات استطاعوا إثبات وجودهم ومقدرتهم العلمية في مختلف المعاهد العلمية في العالم. فلقد أثبتت الجامعات السورية أن تدريس العلوم باللغة العربية يمتاز على تعليمها بلغات أخرى من حيث استيعاب الطالب لما يُعرض عليه، وأن الإلحاح على طرح المقابلات الأجنبية بلُغتها في سياق التدريس يشكّل قاعدة متينة لمتابعة العلوم بعد التخرج.

ولذا فقد أخذ مجمعنا على عاتقه الالتفات إلى العلوم الحديثة، والاعتماد على أعضاء جدد ينتمون إلى تلك المجالات، كاللسانيات والمعلوماتية ومختلف فروع الهندسة، ليساهموا في إيجاد المقابلات للألفاظ الأجنبية الحديثة، بقصد تدعيم قواعدها باللغة العربية قبل أن تستقرّ المصطلحات الأجنبية في كتبنا وأذهاننا.

وسوف يترافق هذا بدراساتٍ مستفيضة للتراث العربي الإسلامي في العلوم، لكشف حقائق المسلك العلمي الذي اتبعه أسلافنا حين كانوا السباقين إلى ما يسمى المنهج العلمي. كما أن مجمعنا سوف يتعمّق في دراسة تراثنا اللغوي والأدبي والفلسفي، لإعادة إخراج أفضل تلك الكنوز ووضعها في تناول الدارسين.

أيها السيدات والسادة

إنني إذ أشكر لكم حضوركم هذه الجلسة العلنية لاستقبال زميل كريم نَعقد على علمه وشخصه آمالاً كبيرة، لا بد لي أن أوضّح المنطلقات الجديدة التي ستؤثر في عمل مجتمعنا في السنوات القادمة.

فإن السيد رئيس الجمهورية كان قد تكزّم بإصدار القانون ٣٨ عام ٢٠٠١ برفع عدد أعضاء المجمع من عشرين عضوًا إلى خمسة وعشرين. وحين تعثّرت السبل الموصلة إلى ملء الشواغر بأعضاء جدد لأسباب مختلفة عاد السيد الرئيس وتفضّل بإصدار المرسوم ٥٠ عام ٢٠٠٨ وهو يسمح باستكمال شواغر عضوية المجمع دفعةً واحدةً بمرسوم جمهوري دون انتظار الممدّد الزمنية وأساليب انتخاب الأعضاء إفراديًا. إنها لفئةٌ كريمةٌ من السيد الرئيس أعطت دفعةً جديدًا لإعادة المجمع إلى المكانة التي يستحقها.

وقد اجتمع مجلس المجمع إثر صدور القانون وسجل مقترحات أعضائه في تحديد المجالات التي يجب فتح أبواب الترشيح إليها، كما سجّل أسماء من يراهم أعضاء المجلس أهلاً لملء هذه الشواغر.

وقد جرى فرز هذه المقترحات بإشراف السيدة نائبة رئيس الجمهورية الدكتورة نجاح العطار، وبحضور وزير التعليم العالي الدكتور غياث بركات، وانتهى الفرزُ إلى تحديد أسماء الذين فازوا بأكثر الأصوات. وكان مجلس المجمع قد حرص على انتخاب المتخصصين الذين لهم إنجازات عملية في الحقول العلمية الحديثة المطلوبة، وذلك إضافةً إلى علماء اللغة العربية الذين سيرفدون مجهود المجمع في حقل صوغ المصطلحات، وإعادة الاعتبار إلى تراثنا اللغوي والأدبي.

وقد تفضل السيد الرئيس وأصدر المرسوم رقم /٣٩٨/ تاريخ ٣٠/١٠/٢٠٠٨ بضم الأعضاء الجدد الثمانية إلى المجمع دفعةً واحدةً وهم الذين حازوا ثقةً زملائهم، ليساهموا في تسريع تطور العمل الجمعي، ونأمل أن تحضروا حفل استقبال كلٍّ منهم في الأسابيع القادمة.

أيها السيدات والسادة

إن تشرفي من قبل زملائي بأن أكون في طليعتهم للسير بمجمعنا إلى المستوى الأعلى من الإنجاز، هو الذي أتاح لي فرصة الوقوف أمامكم في هذه المناسبة الواعدة للترحيب بالعضو الجديد.

إن الغاية من حفل الاستقبال هذا ليست التعريف بأساتذة قد أسدوا خدمات جُلّي في مجال التدريس والتأليف، وإنما القصد هو تحديد موقع كل منهم في الجهود الجماعي الذي يبذله مجمعنا لجعل اللغة العربية قادرةً على التطابق مع متطلبات الحركة العلمية الحديثة.

وقد درج مجمعنا أسوةً بالأكاديميات الكبرى على تكليف العضو الجديد إحياء ذكرى أحد أسلافه في المجمع، واستدكار مآثره، وإبراز الخطوط الفكرية التي سار عليها الجمعيون الأوائل.

ونحن إذ نستهلُّ استقبالنا للأعضاء الجدد يسرني أن يكون في طليعتهم عالم حقيقي هو الأستاذ الدكتور أنور الخطيب، وهو دارس ومحقق وباحث ميداني، قد تولى دراسة النبيت السوري بمجموعه، وتصنيف الأنواع النباتية الموجودة في بلادنا، وتحديد موقعها في التصانيف الدولية، وله نشاطات هامة في الحفاظ على البيئة، وسنستمع إليه بعد أن يقوم بتقديمه الأستاذ الدكتور مكي الحسيني أمين المجمع فليتفضل.

كلمة الدكتور مكّي الحسني أمين المجمع
في حفل استقبال
الدكتور أنور الخطيب

أيها السيد رئيس المجمع، الأستاذ الدكتور مروان المحاسني
أيها السادة الزملاء المجمعيون الأفاضل
أيها الحفل الكريم
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسعدني أن أشارككم في هذا الاحتفال الترحيبي الذي يقيمه مجمعنا لاستقبال
السيد الأستاذ الدكتور أنور الخطيب عضواً جديداً في هذا المجمع.
ويطيب لي أن أحدثكم عن سيرته وأعماله العلمية.

نشأ الدكتور أنور في أسرة عريقة معروفة بالعلم والتعليم، والخطابة وتحفيظ القرآن
الكريم في المدارس الشرعية. وبعد أن تشبع بآيات الله تعالى المقروءة، توجه لدراسة
آياته المنظورة، في عالم النبات خاصة.

حصل في عام ١٩٥٢ على إجازة في العلوم الطبيعية من جامعة دمشق. ولكن بدأت
خبرته الوظيفية عام ١٩٥١، أي قبل سنة من تخرجه. ذلك أن أستاذه الفرنسي هنري بابو
(الذي كان يعمل في كلية العلوم، ويدرس بالفرنسية مقرر «التصنيف النباتي») زكاه للعمل
محصراً رئيسياً ملازماً في المختبر، ودعم هذه التزكية عميد كلية العلوم آنذاك الأستاذ
توفيق المنجد رحمه الله. ثم عمل بعد تخرجه معيداً في قسم علم النبات ثلاث سنوات،

أوفد بعدها إلى فرنسا. وبعد حصوله على الدكتوراه بدرجةٍ مشرفٍ جداً في اختصاص «التصنيف والبيئة النباتية» عاد إلى الوطن في آخر عام ١٩٥٩ فُعِّين في الهيئة التدريسية في قسم علم النبات بكلية العلوم. وتدرج في هذه الهيئة من مدرس إلى أستاذ مساعد إلى أستاذ. وبعد إحالته على التقاعد عام ١٩٩٣ تعاقدت جامعة دمشق معه تحت عنوان «الخبرة النادرة»، واستمر التعاقد حتى عام ٢٠٠٢م.

وفي خلال المدة الطويلة جداً من العمل في الجامعة، مارس الدكتور أنور الخطيب مناشط مختلفة ألخصها بالآتي:

أولاً: ألف سبعة كتب جامعية طبعت في مطبعة جامعة دمشق منها:

- التكاثر في الزمر النباتية.
- الفصائل النباتية.
- أطلس العمل المخبري للنبات في ثلاثة أجزاء: الخلية، النُسج، التشريح...

ثانياً: أعد خمساً وسبعين مقالاً ونشرةً وتقريراً في مجالات التصنيف والبيئة النباتية، والتكاثر النباتي والفصائل النباتية، والتلوث ودراسة المحيط الحيوي، ودراسة التصحر والمناطق الجافة، والاستفادة من النباتات الطبية، وتوسيع مساحة الحراج وما يقال عن علاقته بزيادة الأمطار، وفي مجال الترجمة والتعريب العلمي، ومنهج بناء المصطلح العلمي، إلخ....

وقد نُشر بعضُ هذه الدراسات - وفق مجالاتها - في مجالات سورية وأجنبية متخصصة، وقُدِّم بعضُ آخر إلى جهات مهتمة بالبيئة، بغية تبصير الناس بأهمية حمايتها، وقُدِّمت لبرنامج الأمم المتحدة للإئماء UNDP (مرفق البيئة العالمي) دراسة علمية مرجعية بيئية عن الجينوم (المجموع المورثي) في الجبال السورية الساحلية وجبل العرب.

ثالثاً: شارك د. الخطيب في ٢٧ مؤتمراً وندوة واجتماعاً في مجالات البيئة النباتية، والتنمية المستدامة، وبرنامج الإنسان والمحيط الحيوي، وإقامة المحميات والمتاحف

الطبيعية وإدارتها، وفي تقييس المصطلح العلمي العربي، وفي مجال عمل المنظمات غير الحكومية، وذلك في بغداد والكويت وبيروت والقاهرة وتونس والرباط وكينيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية.

رابعاً: تعاون د. الخطيب مع ثماني عشرة جمعية وهيئة علمية، من أهمها:

لجنة تعيين النباتات الطبية في الجمهورية العربية السورية، وكان رئيساً لها بموجب

قرار من وزير الصناعة عام ١٩٧٧.

● لجنة تنسيق المصطلحات النباتية في مجمع اللغة العربية بدمشق (١٩٩٧).

● لجنة حماية مدينة دمشق في جمعية أصدقاء دمشق (١٩٩٨) وكان رئيساً لهذه

اللجنة.

● وهو عضو مؤسس لجمعية حماية البيئة السورية (١٩٩٩).

وأبرز هذه الأعمال تعاونه مع الأستاذ هنري بابو من جامعة ليون في فرنسا، والأب بول موتيرد من جامعة القديس يوسف في بيروت، وذلك لجمع النباتات الطبيعية السورية، وإقامة أول معشَب (هرباريوم) في الجمهورية العربية السورية، تجاوزت عيناته ٢٠٠٠٠ عشيرين ألف ورقة عشبية، سُجِّل لكل منها مكان الجمع وتاريخه والاسم العلمي للنبات. وهذه العينات محفوظة في قسم علم النبات في كلية العلوم بجامعة دمشق، وفي مركز البحوث في وزارة الزراعة.

خامساً: وفضلاً على ما ذكرت، ألقى د. الخطيب ونشر ٣١ إحدى وثلاثين

محاضرة في المراكز الثقافية بدمشق، وفي مجلة أصدقاء دمشق خاصة. وهذه المحاضرات

تعبر عن مدى تعلق د. الخطيب بمدينته وعن عشقه لها، وعن حماسه لتبصير المواطنين

بالأخطار المحيطة بمدينة دمشق القديمة خاصة.

وقد اهتم د. الخطيب بالتأثيل (أي التأصيل) اللغوي أيضاً من ذلك أنه تتبّع

كلمة (أيكة) العربية الأصيلة - التي تعني الشجر الكثيف الملتف، وتُجمع على أيك

— فوجد أنها دخلت قديماً في اليونانية، ثم في اللاتينية، ثم في فرنسية العصور الوسطى، ثم في الإنكليزية. فقد نشر البيولوجي الألماني إرنست هيغل سنة ١٨٨٦ بحوثه المتعلقة بتنظيم العلاقة بين الأرض والشجر، مبتدعاً علماً جديداً اسمه إيكولوجي أي (علم الأييك) أو الأيكيات.

وهكذا نرى أن اللفظ العربي الأصيل استغرب قديماً ثم عاد إلينا حديثاً على أنه بضاعة مستوردة! لذا رفض المتحمسون للعربية تعريب لفظ (إيكولوجي) حماية للعربية في رأيهم، مع أن تعريبه هو إعادة اللفظ إلى موطنه. فترجموا إيكولوجي بعلم البيئة، أو البيئات، وجرى بهذا خلط بين البيئة والمحيط (الكنف environment).
وتقديرًا لجهود الدكتور الخطيب العلمية المتميزة:

- حصل سنة ١٩٦٢ على جائزة المجلس الأعلى للعلوم لأفضل البحوث العلمية المحلية .
 - وفي سنة ١٩٧٩ سَجلت اسمه على لوح الشرف المنظمة العربية للتنمية الزراعية في جامعة الدول العربية.
 - وتلقى عام ١٩٨٥ كتاب شكر على مجموعته النباتية من العاملين في المركز الدولي للبحوث الزراعية في المناطق الجافة (إيكاردا).
 - وضمَّه مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق، سنة ٢٠٠٨ إلى عضويته.
- هذا هو الزميل العزيز الدكتور أنور الخطيب، الذي يسرني أن أرحب به مجددًا، وأن أتمنى له موفور الصحة ودوام العطاء.

أشكر لكم حسن استماعكم والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة الدكتور أنور الخطيب في حفل استقباله

السيدُ الأستاذُ الدكتور مروان المحاسني رئيسُ مجمعِ اللغةِ العربية.
السيدات والسادةُ أعضاء أسرةِ المجمع.
السيداتُ والسادةُ الحضور.
السلام عليكم ورحمة الله.

الحمدُ لله الذي أنعمَ علي بالحديثِ إليكم، في هذه الأُمسيةِ المباركة. ربي اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي!...
إنه لشرفٌ عظيمٌ، أن أكون أحدَ أفرادِ هذه الأسرةِ الكريمة، التي آلت على نفسها رعايةَ اللسانِ العربي المبين... وقد دَعَوْتُ الله أن أكون عند حسن الظنِّ وسمحوا لي أن أتقدم بالشكر لرئيس المجمع وأعضائه على الثقة التي منحتني شرف الزمالة، كما أخص بالشكر الزميل المحترم الذي تفضل واستقبلني. وبعد...
لما كان من تقاليد المجمع في العالم وصلُّ الحاضرِ بالماضي فإنني أتشرف بإحياء ذكرى سلفي الصديقِ العزيز الدكتور مختار هاشم رحمه الله. يُفَاخِرُ مجمع اللغة العربية بدمشق بثلاثة من رجالاته: الدكتور حِكْمَةُ هاشم رحمه الله رائدُ فلسفةٍ وحكمةٍ وثقافةٍ عالية، والأستاذ عبدُ الهادي هاشم اللغويُّ المتيمن والقاموسُ البحرُ العلميُّ العميق، والهاديُّ الدكتور مختار هاشم، نَطَّاسِيٌّ حاذقٌ علمه واسعٌ وهو على خلقٍ قويمٍ، وأدبٍ مختار. وحديثي الآن هو عن الدكتور مختار رحمه الله.

إذا كنت يوماً في غربيّ دمشق القديمة، وجعلت خلفك باب الجابية، وبمّمت وجهك شطرَ الباب الشرقي، كنت على رأس طريقٍ كان اسمه في غابر الأيام: الطريق المستقيم ثم أصبح اسمه: السوق الطويل وسوق مدحت باشا ترى في منتصف الطريق وإلى اليمين باب مسجد سيدي هشام ومذنته الجميلة. وقد حجبتها أبنية لم يُحطَط لها. وإن ولجت من الفتحة الضيقة التي تلي الجامع كنت في سوق الصوف. وفي جنوبه قوسُ نزلة طاحونة السجن، التي يحركها ماء كان ينصب من أحد فروع بردى تسرب نحوها متخفياً عبر الأسواق والبيوت.

(دَكَرَ الطاحونة ابنُ عساكر مؤرُخ دمشق الكبير المتوفى سنة إحدى وسبعين وخمسة للهجرة. مما يدل على أنها تسمية قديمة).

تتجاوز في هذه النزلة بيوت الفقراء وبيوت الأغنياء وإذا وصلت إلى الطاحونة وجدت على يسارها بيتاً دمشقياً عريقاً، يبعد خمسين ومئة متر عن سوق مدحت باشا، حيث تجارة والد المختار: عارف حسن هاشم العبي.

درج خشبي صاعدٌ إلى الطوابق العلوية وبجانبه دهليزٌ طويلٌ، ثم ساحةٌ سماويةٌ تتوسطها بحرةٌ يجري فيها الماء ليل نهار، تستمدُّ ماءها من بحرة قاعة البيت، وتدفعه إلى بحرة المطبخ، فبيوت الماء الذي يجري بصورة مستمرة، منظرًا الفضلات من دون صنبورٍ أو (ريغار) أو (سيفون) إنها منطقة الشاغور الجواني حيث شوغرة المياه في كل رقعة، وقد فُرِشت الساحة بالأحجار الملونة وبالرخام الناصع البياض، تتناثر فيها قصاعُ الزهور وأصائصُ الشمشير، تظللها أشجار من الكباد والنارج والليمون، ويتسلق حيطانها الليلك وأنواعٌ من الياسمين البلدي والأصفر والعراتلي، وعلى سطوح غرفها الشتوية نُصبت العرائشُ تمد أهل البيت بورق العنب في الربيع، وبالعنب من ثمارها في الصيف والخريف ويقول المثل الدمشقي: فاكهة الدار تطيل الأعمار.

أبصر فقيدنا المختار النور في هذه الدار، في الرابع والعشرين من رمضان سنة ثلاث

وثلاثين وثلاثمئة وألف للهجرة وهذا التاريخ يوافق الرابع من شهر آب سنة خمس عشرة وتسعمئة وألف للميلاد. وعلى رحاب سجاده حبا، وعلى بلاطه وبين الرياحين درج.

هذا التنوع الحيوي الزاخر داخل البيت منفتح على تنوع حيوي عامر آخر خارج البيت: تتلوى الدروب على جانبي الطريق، وتكتظ الأحياء بالسكان، وتتشعب فيها الأزقة والحارات، كما يتفرع منه العديد من أسواق المدينة. وتنتشر مواقع العبادة بين الأحياء والأسواق لتقول لصاحبنا: «اعمل لديناك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

ومن طريف الأقدارِ وأغربها ومعجزاتها، أن يبصر النور كاتب هذه السطور، المائل أمامكم، في البيت ذاته، في الثاني عشر من ربيع الأول سنة سبع وأربعين وثلاثمئة وألف للهجرة الموافق للخامس والعشرين من آب سنة ثمان وعشرين وتسعمئة وألف للميلاد. لقد ولدنا في بيت واحد، بفارق أربع عشرة سنة، وفي شهر ميلادي واحد.

لما يَفَع المختارُ حُجَل على الذهابِ إلى المدرسة، عابراً نزلة طاحونة السجن، مجتازاً سوقَ الصوفِ فسوقَ مدحت باشا، مروراً بسوق الخياطين فيلى (ما بين البحرتين) حيث (الكلية العلمية الوطنية) القائمة إلى اليوم، وتخليداً لذكرى مديرتها صممت هذه القاعة التي نحن فيها الآن.

تعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعد ختم القرآن في سنته الدراسية الثانية، كان تلميذاً للخليل، شاعرٍ دمشقي كبير، وفي أحد الأيام، تقدم المختار خجلاً ببعض أبيات الشعر، فأثار إعجاب أستاذه، كيف يقول مختار الشعر وهو صغير! فسأله: هل تكتب الكلام نثرًا، ثم تحوِّله إلى شعر؟ أجابه لا، إنما يزدحم القول في صدري، ولا أرتاح إلا إذا نطقْتُ به. قال الخليل في نفسه: إنه جوابُ شاعرٍ والتفت إليه يقول: سيد مختار، إذن أنت شاعرٌ. ويذكر شاعرنا مختار، رحمه الله، هذا الحوار بقصيدة

تجري على لسانه يقول فيها:

وكان أستاذنا فيها الخليلُ فهل
وَجِئْتُ يَوْمًا بِأَيِّاتٍ مُهْلَهَلَةٍ
فقال: مختارٌ أقبل، جئتُ سُدَّتَهُ
هل تَكْتُبُ القولَ نثرًا ثم تَنْظِمُهُ
فقلت: كلا، يجيشُ الشعرُ في خلدي
فقال: يُفْتَحُ ديوانٌ بِصَفِّ كُمْ
وهذه أولُ الأشعارِ فاتحةً
إلى أن يقول رحمه الله

وأين أستاذنا بل أين رَفَقْتُنَا من راحَ منهم ومَنْ ما زالَ منتظرًا

أتم المختارُ دراسته الثانوية في الكلية العلمية الوطنية، وحصل على البكالوريا الأولى، فكان الأول على جميع طلاب الجمهورية، وأهدي له ساعة، كُتِبَ عليها، هدية شكري القوتلي سنة إحدى وخمسين وثلاثمئة وألف للهجرة الموافقة لاثنتين وثلاثين وتسعمئة للميلاد، وهي محفوظة لدى ورثته.

وانتقل بعدها إلى المدرسة الأرثوذكسية، التي استهوتها فيها، درسَ مُديرها الراحل جميل صليبا، فأجادَ الفلسفةَ وأبدعَ فيها، فكان الأول من بين رفاقه في البكالوريا الثانية. حتى إذا ما أنهى تحصيله الثانويَّ محبًّا للفلسفة، ألحَّ عليه أهلهُ لدراسة الطبِّ فانتسب إلى المعهد الطبي العربي سنة أربع وثلاثين وتسعمئة وألف للميلاد. وكانَ على مقاعدِ السنة الثانية عندما أجازَ أساتذتهُ الطبَّ نَشَرَ مقالَ دَبَّجَهُ عن مصطلحات مُفترَحة اطلع عليها في مجلة مجمع القاهرة مع رأيٍ يراه في بعضها، وصدَّرته مجلة المعهد بقولها: «وردت علينا هذه الرسالة المفيدة من الطالب السيد مختار هاشم، فنشكر له عنايته بتتقياً لغة

الضاد العلمية من الشواذب». كان - رحمه الله - من خريجي معهد الطب العربي في الجامعة السورية سنة أربعين وتسعمئة وألف للميلاد وعَمِلَ بعدها في وزارة الصحة والإسعاف العام، وسافر إلى الغرب، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، في بعثة للتخصص في طب الأطفال. عاد إلى الوطن في أيلول سنة ثمان وأربعين وتسعمئة وألف للميلاد، وتطوع للخدمة في الجيش السوري سنة تسع وأربعين وتسعمئة وألف للميلاد برتبة رئيس وأنهى خدمته في القوات المسلحة سنة سبعين وتسعمئة وألف للميلاد برتبة عميد. لم تترك له خدمة الدولة بإخلاص واستقامة وقتاً للاهتمام بما يهواه من بحوث أو تحقيقات أو نشرات، حتى إذا ما أحيل على التقاعد بدأ يمارس هواياته.

نشر سنة أربع وثمانين وتسعمئة وألف للميلاد بحثاً عنوانه «الفاظ حائرة» عالج فيه ما قيل في تعريف ثلاث كلمات هي: المَعْدِنُ والفِلِزَّ والجوهر من (المعدنيات) وثلاث أخريات هي: الأشنّة والطحلب والحزاز من (النباتات). حاور الدكتور عدنان الخطيب - رحمه الله - المستقبل زميله المختار المستقبل حواراً جمعياً بحثاً قائلاً: (لقد قرأتُ البحث الذي عنوانه «الفاظ حائرة» وتمتعتُ بقرائه، كما أني أعدتُ قراءته، ابتغاءً تكوين فكرة واضحة محددة، فجزتُ كيف حارتِ الكلمات بين يديك؟ هل كانت حائرة لأنها: حارتِ حَوْرًا وحُوْرًا فرجعتُ من حال إلى حال، أم كانت حائرة لأنها حارتِ الحَيْرَةَ وتَحَيَّرتْ فكانت حَيْرَانَةً وحيرى، أم أن المعاني أثقلتها فتحيرت، كما تتحير الأرض إذا امتلأت بالماء، أو تحيرت مدلولاتها كما يتحير السحاب إذا لم تسفقه الريح إلى جهة ما، أو أنها كانت حائرة باثرة لا تدل على شيء) انتهى الحوار! لقد فرغتُ من هذا الحوار الجمعي عندما قرأته، وجزتُ في أمري، أو تحيرت أمري وقلت: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣] وانتقلتُ من حيرةِ ألفاظِ مختارِ هاشمٍ إلى حيرةِ كلماتِ المحاورِ الأمينِ الجمعيِّ عدنان

الخطيب إلى حيرة المطرب محمد عبد الوهاب في أغنيته سهران حيران إلى حيرة أم كلثوم: دليلي احتار، وحيرت قلبي معاك، إلى حيرة تسمية مجمع اللغة العربية والمجمع العلمي العربي فُعْشِيَّ عَلِي، ولم أهتدي لسبيلي فأنا حيرانٌ وحائرٌ وأنتم حيارى ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

نشر الدكتور المختار سنة ست وثمانين وتسعمئة وألف للميلاد بحثاً مستفيضاً عنوانه «أوزان الأطباء ومكايي يي هُم» في مجلة مجمع دمشق. موضعاً فيض الكلمات التي وردت في كتب الطب العربي للتعبير عن المقادير الطبية، في مداواة الأمراض المختلفة. ونقد ما بين أيدينا من مُعْجَمَات، في قصورها في تحديث أساليبها في التعريف بالمصطلحات، كما وجّه كلمة تقدير وإعجاب مُنْصَفَةً لأحد مجعينا القدامى الراحلين، قائلاً: «ويقتضي الإنصاف، أن أستشي من هذا الحكم، معجم مثنى اللغة، تأليف الشيخ أحمد رضا، فإن ظهوره كان خطوة مباركة، في طريق العمل الجمعي، ويكفيه فخراً أنه عرّف الأوزان، بلغة يفهمها أبناء هذا العصر وذلك بمقارنتها بالنظام المترى»

وقد نشر سنة ست وثمانين وتسعمئة وألف في مجلة التراث العربي تحقيقه لرسالة طبية مهمة، ولعثوره على تلك الرسالة قصة نوجزها: لقد اعتاد الطبيب الشاعر، إذا ما زار باريس، أن يمرّ بدار الكتب الوطنية للاطلاع على ما فيها من جديد، أو على ما في كنوزها من مجاهل المخطوطات. وفي زيارة غير بعيدة العهد عشر في فهارس الدار على اسم مخطوطة جاءت فيه كلمة غريبة (أبورية؟) متبوعة بإشارة استفهام تدل على جهل المفهرس معناها، وأحب طبيينا الاطلاع على المخطوطة فإذا بها رسالة تحمل هذا العنوان (العبورية في الأبحاث الوردية) فاستشعر على غموض هذا العنوان: بأن الرسالة قد تكون ذات قيمة طبية أو نباتية، فطلب نسخة مصورة عنها، وكان شديد

الأسف، لما وجدها (مخرومة) تفتقد صفحات من أولها، ولولا أن مصنفها اختتمها بقصيدة، أبان فيها عن نفسه، لظلت مجهولة النسب. لقد قام - رحمه الله - بتحقيق الرسالة ونشرها، بعد أن عثر على ترجمة وافية لمصنفها. بدأ التحقيق بالإجابة عن إشارة الاستفهام الموضوعية عقب كلمة (أبوريّة؟) فقال: إن المؤلف يشير إلى الهوة القائمة بين الناس، وتقطع أسباب الود بينهم، حتى أصبح كل فرد كوكباً يدور في مداره الخاص، هذا في عهد المؤلف حين كان عبور هذه الهوة ممكناً بطريق الورد والأزهار، أليس التعبير ضرورياً لسريان الود بين الناس؟ وتعبير الورد لا يقتصر على ما ينشر من عبير، فللأزهار لغةٌ تتجاوز الشم إلى النظر، وتتجاوز النظر إلى معانٍ أخرى، وهذا مَلْحَظٌ لطيف للمؤلف محمود بن يونس الخطيب في تسمية كتابه «العبورية الودية في الأبحاث الوردية» لقد كان المختار واضحاً وموفقاً إلى حد بعيد، في تحديث رسالة كتبت بلغة القرن العاشر الهجري الطبية إلى لغة القرن الخامس عشر، لغة يفهمها غير الأطباء غير المختصين، لقد كان موفقاً في التعريف بمؤلف العبورية، وفي عرض ما ورد فيها من أنواع النبات، وذكر الأسماء العلمية والشائعة لأصناف الزهور والورود التي وردت فيها صاغها في أبيات من قصيدة بكى فيها ما ضاع أو سرق من كنوز تراثنا، ومن مؤلفات علمائنا الأوائل، مع إشارة لطيفة، إلى ما يجب على علمائنا المعاصرين، بذله من جهود لإحياء ما في التراث من كنوز غالية. نشر سنة سبع وثمانين وتسعمئة وألف، بحثاً عنوانه «رحلة استكشافية في قانون ابن سينا» في مجلة مجمع دمشق. لاحظ فيه ما يلي:

- الاهتمام بالتراث الأدبي العربي وإهمال دراسة التراث العلمي، ويطالب العلماء العرب المعاصرين بإحياء هذا الأخير.
- احترام العلماء المسلمين أبقرًا وجالينوس وديسقوريدس، وتغيب علماء

الغرب الجهد العلمي التراثي العربي والإيمان بالمعجزة الإغريقية.

● تقديم بعض الملاحظات على مقالة نشرها الدكتور الفاضل أحمد عروة بعنوان (الوقاية وحفظ الصحة عند ابن سينا) ظهرت في المجلد الحادي والستين من مجلة هذا المجمع الموقر وعلى بعض تسميات المواد النباتية والحيوانية والأدوية المركبة. وقد أجز قبل وفاته، تحقيق المخطوطة المعنونة (قاموس الأطبّا وناموس الألبّا) المكتوبة في القرن الحادي عشر للهجرة، لمؤلفها: مَدِينِ بن عبد الرحمن القَوْصُونِي المصري، رئيس أطباء دار الشفاء بِمِصْرَ، والتي تجاوزت خمسمئة صفحة قدم تحقيقها كاملة ولده الدكتور غياث إلى الدكتور شاكر الفحام - رحمه الله - لنشرها. أرجو الله أن يساعدني على متابعة هذا الموضوع.

وفي سنة ألفين للميلاد كتب للموسوعة العربية بحثًا معقدًا بعيدًا عن موضوعات الطب، والشعر، والتحقيق اللغوي، عنوانه (الاستقلالية autonomy) التي تمثل قدرة المنظومات الحية (أي الأحياء) وبعض المنظومات غير الحية (أي الآلات) على إدارة ذاتها بمعزل عن شروط الوسط الخارجي. وشرح العلاقة بين الإدارة الذاتية والسبرينية cybernetics مُبَيِّنًا وجود استقلالية غريزية، واستقلالية فردية حقيقية، وبيّن أن المشابك العصبية هي التي تُوفّر الاختيار الأنسب ودعا إلى ضرورة دراسة: علم الأفكار والبيئات، وعلم الاجتماع وعلم النفس، كما دعا إلى الانطلاق والتوسع في دراسات اللسانيات (لانغوستيك) التي تُعالج الظواهر اللغوية، وتستنبط قوانينها المقارنة وبيّن في نهاية بحثه صعوبة كشف الاستقلالية المرتبطة بالسريرة وبالذاكرة وهما هبتان فرديتان لا تظهران إلا في المجتمعات.

تعرفتُ بالمختار في جمعية أصدقاء دمشق وفي محاضرات مجمع اللغة العربية، وفي الجولات التي كنا نقوم بها معًا في أحياء دمشق داخل السور، وفي قاعات المطالعة في المكتبة الوطنية صباحًا، والتجوال في حديقة الجاحظ مساءً وعلى ضفاف بردى. آمن

المختار بحرية الإنسان، التي منحها لنجله الأكبر غياث الذي أحب الرياضيات، مقدماً له كل متطلبات التقدم العلمي، وهو اليوم يشغل كرسى الرياضيات في جامعة تولوز الثالثة في فرنسا، وساعد نجله الثاني عارف على دراسة الهندسة الزراعية، وعلى إقامة مزرعة نموذجية لأشجار مثمرة، على ارتفاع ١٨٠٠ متر فوق سطح البحر في منطقة عسال الورد، وترك لابنته مي الوحيدة حرية الاختيار، فحصلت على شهادة الدكتوراه في الآداب من فرنسا، في أطروحة أعدتها عن: أبي خليل القباني، وهي اليوم مدرسة في قسم اللغة الفرنسية، في كلية الآداب في جامعة دمشق. كنت أشعر مع المختار بدفء صداقة العمر، وأجمل سويقات التقاعد، مقلبين صفحات أحداث اليوم متناولين خيوطاً وهمية من مستقبل أurdناه أن يكون غنياً مشرقاً، يستوعب طموحات شبابنا. وكثيراً ما وقفنا أمام بردى الذي كان يروي لنا قصة، لا تنتهي، عن تاريخ مقدس بدأ بمكة، وسار شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، كتب سطورهم رجال عظام أعلام تركوا لنا معالم شامخة على دروب الزمن. كان الصدق نبراساً، والواجب يدفع التطلع إلى غايات مثلى. وكم من مرة وقفنا حيارى متسائلين: لم هذا العدد الكبير من الربانة على هذه السفينة العربية الإسلامية؟ ووقف كل منا في صف ربان توسم فيه بعد النظر، وحسن الطوية، وصدق النية ولكن الطريق طالت ولا يزال الشاطئ بعيداً في الحلم، فالعالم يتحد ونحن نتفرق والقرش ينهش في مختلف جوانب السفينة عربية كانت أم إسلامية أو عالمية، غير عابئ بالأصوات المتخاذلة التي يمتزج فيها الأنين بالاستجداء ولا من مستحيب. وكم تساءلنا ولم نزل أين الاتجاه الصحيح نظرنا إلى الأعلى والأسفل، وإلى اليسار وإلى اليمين، ومضى العمر، والحلم الكبير يضيئ به الواقع.

ولكم كنت أستمع بهذا التلميذ الشيخ النشيط، حينما كان يطلب مني الاسم العلمي لبعض النباتات المحلية وخواصها الطبية.

لقد غادرت يا مختار، ولكن الحلم لا يزال يراودنا، وكثرت تساؤلاتنا ولكن ما من مجيب، واسودت الصورة في الذهن حتى لمعت بارقة أمل تقول: إن النهضة التي بدأت مسيرتها بتحطيم الأوثان لن تبعث ثانية إلا بتحطيم الأوثان: الجهل، الفرقة، النرجسية.

الأعباء كثيرة، والحمل ثقيل، والدرب طويل، والعمر قصير هل أستطيع أن أسير على دربك في خدمة العربية والذكر الحكيم؟ وعلى درب الأمين عدنان الخطيب، وعلى درب الأستاذ المعلم الكبير الأمير مصطفى الشهابي: إذا تطلعنا إلى الكبار أصبحنا كبارًا! باللغة والفكر والتاريخ. إن واجبنا لن ينتهي ما دمنا أوتينا المقدرة.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حفل استقبال
الأستاذ الدكتور ممدوح خسارة
عضوًا في مجمع اللغة العربية

في الساعة السادسة من مساء الأربعاء ١٤٣٠/٢/٢ هـ - ٢٠٠٩/١/٢٨ م
احتفل المجمع باستقبال الأستاذ الدكتور ممدوح خسارة، عضوًا في مجمع اللغة العربية،
في جلسة علنية، حضرها نخبة من رجال السياسة والعلم والأدب وأصدقاء المحتفى به
وطلابه.

بدأ الحفلُ بكلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع، التي رحّب فيها
بالسادة الحضور، وهنّأ الزميل الجمعي الجديد، بانضمامه إلى مجمع الخالدين، متمنيًا له
مسيرة طيبة حافلة بالعطاء.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص، كلمة الترحيب بالزميل الجديد.
فتحدث عن سيرته، ومؤلفاته، ومكانته العلمية.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور ممدوح خسارة كلمته، التي تحدث فيها عن سلفه الراحل
الأستاذ الدكتور شاكر الفحام.

وننشر فيما يلي كلمات الحفل:

كلمة الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع في حفل استقبال الدكتور ممدوح خسارة

أيها الحفل الكريم

يسرني أن أرى هذا الحشد المتميز من المثقفين يُقبلون على احتفالنا باستقبال أعضائنا الجدد، مؤكدين اهتمامهم بمستقبل هذا الصرح العلمي المؤتمن على التراث، والملتزم هدف إعادة اللغة العربية إلى موقع الصدارة في وجدان أبناء مجتمعا.

لقد طال أمد الفراق بين لغتنا ومجتمعنا، وغارت يناييع الاهتمام بمصيرها وبما تحتاج إليه لتجاوز المكائد التي تعترض طُرُق النهوض بها. فلقد برزت بوادر الانحطاط في استعمالها تحت طغيان عامية متسلطة على شؤون الحياة اليومية، تلك العامية التي بدأت تتمتع باستقلالية فُطرية وانتهت إلى لهجات تنفرد بها كل مدينة عربية.

وإذا أضفنا إلى ذلك التسيب جنوح بعض شبابنا إلى إدخال اللغة الأجنبية في خطابهم اليومي، تبدى لنا ما ترزح تحته لغتنا من ضغوط. ولو كان الأمر محصوراً في استعمال اللغة الأجنبية بديلاً عن اللغة الأم في مناسبات محدودة، لرحبنا بذلك وعددناه غوايةً تهدف إلى التمكن من لغة أجنبية لأغراض علمية. إلا أن ما نراه من تعاقب سخيف بين أجزاء عربية وأخرى أجنبية في حوار اجتماعي بين الشباب يجعلنا نتساءل عن الأسباب الموصلة إلى مثل هذا التصرف.

هل ما يُشاع عن صعوبة تعلّم اللغة العربية هو المسؤول عن عزوف الجمهور عن استعمالها إلا مضطراً؟

فهناك من يروّج لمقولة أن النحو العربي وقواعد الإملاء والإعراب طلاسّم لا يُحسّن فكّها إلا المختصون. وحقيقة الأمر أن النحو العربي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسار الفكري الذي انتهت إليه قواعد المنطق الصوري.

هذا ما تبين خلال مناظرة دارت بين أبي بشر، متى بن يونس الفيلسوف ممثل المناطقة، وبين أبي سعيد السيرافي النحوي في مجلس الوزير ابن الفرات سنة ٣٢٠هـ، وكان موضوع المناظرة «النحو والمنطق أيّهما أدقّ في معرفة صحيح الكلام من سقيمه» وقد استطاع السيرافي في ذلك المجلس أن يُفجّم خصمه بتوضيحه لحقيقة النحو. ذلك لأن اللغة العربية، بعد أن كانت تعتمد النظام المعرفيّ البياني القائم على الاستدلال «بالشاهد على الغائب»، أي على القياس، قد انتهت في القرن الثالث بتأثير من علم الكلام حين ملاحقة العلاقة بين اللفظ والمعنى، إلى إثبات قواعد النحو قواعد عقلية يمكن اعتمادها للوصول إلى التعبير الواضح، الموضّح للمعاني والمقاصد، وهذا هو غرض المنطق أصلاً، وبذلك أصبحت القواعد النحوية قواعد للفكر.

لقد تبين أن العلة لا تكمن في النحو، بل هي نابعة من أساليب عقيمة لتدريسه مازال بعض المدرسين ملتزماً بها.

وقد لا نكون منصفين لو حصرنا التقصير في أداء المدرسين، فإن معظمهم من المتميزين في مجالهم ويحملون شهادات عليا في علوم العربية.

بل إن العلة في ظاهرة واضحة هي هبوط المستوى الثقافي في مجتمعنا إلى مُنخَفَضٍ لا يُنذر إلا بمزيد من الانحدار. فقد خلّت معظم البيوت من الكتب، واستهوت المجالات المصوّرة مخيال شباننا، وتركزت مصادر الثقافة عندهم في البرامج

التَّلفُزِيَّة.

ولا يستطيع أحد امتداح لغة المشاركين فيما يسمى برامج على الهواء مباشرة، تُناقش فيها موضوعات اجتماعية هامة، إلا أن العَلبة فيها للغة العامية.

أما محتوى معظم هذه البرامج فلا أظن أنه يشكل إضافة ثقافية يمكن لها أن تُردف مجهودات التعليم، أو تحل محلّ التعلّم الذاتي الذي أصبح المرتكز الأساس في المجتمعات الغربية، حيث نرى القراءة في صميم اهتمامات الشباب أينما كانوا في حلّهم وترحالهم. إن البيوت الخالية من الكتب، والتي لا تعتمد التعليم محورًا لاهتمامات العائلة، لا يمكن أن تكون رديفًا لمدرسةٍ مقصّرة.

إن تعليم اللغة العربية ليس من اختصاصات مجمعنا، بل إننا مكلفون بتسهيل السبيل للوصول إلى تعليم سويّ، يُعيد إلى اللغة العربية مكانتها المركزية بين مكونات شخصية الإنسان العربي.

وهذا ما جعلنا نصبُ مجهودًا كبيرًا في مجال المصطلحات التي تسهّل تدريس العلوم باللغة العربية، حرصًا على إدخال الثقافة العلمية إلى أذهان طلابنا بيسرٍ ودقة. كما أن مجمعنا ما فتى، إلى جانب ذلك المجهود، يسلك كلّ السبيل التي تُبعد عن طلابنا مصيرًا لا يليق بتاريخنا، وهو أن تكون اللغة العربية وكأنها لغةٌ أجنبيةٌ يجري تعلّمها بالكثير من العناء، على أساس التلقين وليس على تفتّح السليقة.

فلقد عُني مجمعنا بدفع الذرائع التي تجعل من اللغة العربية حصنًا منيعًا لا يدخله إلا المختصون، إذ أقام ندوةً لتسهيل تعليم النحو عام ٢٠٠٢ كما درس في مؤتمره عام ٢٠٠٥ علاقة اللغة بالمجتمع، ثم درس لغة الطفل في مؤتمره لعام ٢٠٠٧، وكلّها محاولاتٌ لكشف موقع الخلل في حسن استعمال لغتنا الفصيحة.

وهناك من يشكو صعوبة الإفادة من معاجمنا التراثية لاستكمال ثروته اللفظية،

والتثبّت من انطباق الألفاظ على المقاصد. صحيحٌ أن الإنسان لا يتعلم اللغة من المعاجم، إلا أنها المستند الذي يُركن إليه في حلّ الإشكالات التي تعترض طريق الكتاب، وطريقَ جمهرة المثقفين.

لقد طرأ تعطلٌ على مجهودنا المعجمي اللغوي منذ بضع سنوات، إلا أن المعاجم مازالت في لب اهتماماتنا.

نحن لا نتطلع إلى إصدار معجم لغوي يضاها ما صنعه أمثال ابن منظور أو الفيروزبادي أو حتى البستاني في العصر الحديث. إلا أننا قد بدأنا نشارك في صناعة المعجم التاريخي للغة العربية الذي يقوم اتحاد المجمع على إصداره. وهو معجمٌ سوف يبيّن الفروق الدلالية والشكلية التي مرت بها الألفاظ في الحقب المتعاقبة من تاريخ ثقافتنا وصولاً إلى العصر الحديث.

كما أن مجمعنا يشارك المجمع الجزائري في مشروع لغوي كبير هو جمع الذخيرة اللغوية المتداولة في نصوصنا الأدبية، وهو عملٌ يمكن إتمامه في سنوات قليلة بالاعتماد على التسهيلات الحاسوبية.

هذا ومن أهدافنا كذلك إصدار معجم للمعاني تُدخل فيه ما استقر على ألسنة المثقفين في العصر الحديث من عبارات وأساليب لغوية، مع الإصرار على تأثيل كلِّ ما يرد فيه.

ونحن الآن نعمل في المراحل الأخيرة من معجم لألفاظ الحضارة يتناول أبواباً عديدة: باب المنزل ومستلزماته، باب الملابس، باب المهن والحرف، باب الأماكن والمباني، وسوف يصار إلى عرضه على مجلس المجمع لتمكّن من إصداره خلال عام ٢٠٠٩.

إن صناعة المعجم تخصصٌ حقيقي يحتاج إلى باعٍ طويل في المفردات والألفاظ

والتراكيب اللغوية، ولاشك بأن اعتماد الحاسوب أساسًا لتصنيف المفردات، ووسيلةً لربطها بجذورها، هو الذي سوف يسهّل عمل اللغويين.

وإننا إذ نستقبل في هذه الأمسية الدكتور ممدوح خسارة عضوًا جديدًا في مجمعنا وقد تولى تقديمه إليكم الأستاذ الدكتور إحسان النص، لابد لنا من الإشادة بما يتمتع به من معرفة لغوية نادرة، وأن نبدي إعجابنا بنفسه الطويل الذي أتاح له الخوض في أغوار معجم لسان العرب، ليستخرج منها الألفاظ التي يمكن استعمالها مصطلحات، وقد قام بتحديد كلِّ بابٍ يمكن استعمال المصطلح فيه.

وختامًا فإذا كان الأستاذ ممدوح يستحق المديح وهو أهل له، فإننا اعتبرنا أن كُنيتة يمكن أن تضاف إلى قائمة الأضداد في اللغة، إذ إن ممدوح خسارة كسب حقيقي لمجمعنا.

كلمة الدكتور إحسان النص عضو المجمع
في حفل استقبال
الدكتور ممدوح خسارة

الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية
سيداتي سادتي

سعد مجمع اللغة العربية بدمشق منذ أمد قريب بانضمام ثمانية من أعلام الباحثين إلى دوحته، ومن المحقق أنهم سوف يرفدون المجمع بخبراتهم ومعارفهم، وهم أهل لذلك. ومجمعنا يعوّل عليهم في تحقيق أهدافه، ومن أبرزها رعاية اللغة العربية التي تعاني اليوم من آفات الإهمال والعبث بمقوماتها وتنكّر أهلها لها.

إنّ ممّا يجزّ في نفس الغيورين على اللغة العربية ويثير غضبهم أنهم إذا مرّوا في أسواق دمشق يرون لافتات المحالّ التجارية والصناعية وغيرهما مكتوبة باللغة الأجنبية، حتى ليُخيّل إلى من يتجوّل في أسواقنا أنه في بلد أجنبيّ لا في دمشق التي كانت حصناً حصيناً للغة العربية.

وليست هذه الآفة المنكرة وفقاً على دمشق وحدها بل هي آفة تعاني منها معظم الأقطار العربية.

إنّ أولئك الذين يتخلّون عن لغتنا إنّما يتخلّون عن هُويّتهم وانتمائهم العربي، وهم حين يتوهمون أن استعمال اللغة الأجنبية في محالّهم ومصنوعاتهم يوفّر لهم رواج بضاعتهم

وإقبال الناس عليها إثمًا ينم عملهم على مركّب النقص الذي يعانون منه، والأمة التي تتخلى عن لغتها لا تكون جديرة بالبقاء.

حديثي في هذه الأمسيّة يدور حول باحث فاضل انضمّ منذ قريب إلى مجمعنا، هو الأستاذ الدكتور ممدوح محمد خسارة.

عرفت الزميل الفاضل منذ أن كان طالبًا في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، وأشهد أنه كان من خيرة طلاب القسم جدًّا ونشاطًا ومواظبة على حضور المحاضرات وكان متفوقًا في دراسته.

ولد الدكتور خسارة في بلدة قطنا عام واحد وأربعين وتسعمئة وألف، وتلقّى علومه في المدارس السورية، وبعد حصوله على الشهادة الثانوية التحق بقسم اللغة العربية بجامعة دمشق ونال الإجازة الجامعية في اللغة العربية بتفوق عام ستة وستين وتسعمئة وألف. ثم مارس التدريس حقبة من الزمن، وكان أثناء عمله التدريسي يُعدّ أطروحة الماجستير في مادة النحو، وقد حصل على درجة الماجستير عام تسعة وثمانين وتسعمئة وألف، ثم انصرف إلى إعداد أطروحة الدكتوراه في فقه اللغة العربية وحصل على شهادتها عام ثلاثة وتسعين وتسعمئة وألف.

وبعد حصوله على الدكتوراه عمل أستاذًا للغة العربية في جامعة الكويت طوال ثمان سنوات. وهو اليوم أستاذ جامعي يدرّس علوم العربية في الجامعة السورية كلية الآداب وفي كلية الفتح، وهو إلى ذلك عضو في اتحاد الكُتّاب العرب.

وقد اختير منذ أمد قريب خبيرًا في مجمعنا لرفد لجنة اللغة العربية وأصول النحو بخبرته اللغوية، وعُيّن أخيرًا عضوًا عاملاً في مجمعنا.

ومن المحقق أنه سيكون من أنشط أعضاء الجمع وأغزرهم إنتاجًا علميًا ويشهد بوفرة إنتاجه المتوقعة منه ما ألف من كتب وبحوث في شتى المجالات.

وهو معنيّ في مؤلفاته بأمرين: هما التعريب والمصطلح.

ففي مجال التعريب له المؤلفات الآتية:

١- التعريب والتنمية اللغوية، نُشر في دار الأهالي بدمشق عام أربعة وتسعين وتسعمئة وألف.

٢- منهجية تعريب الألفاظ، نشرته الشركة المتحدة للنشر بدمشق عام ثمانية وتسعين وتسعمئة وألف.

٣- التعريب، مؤسساته ووسائله، نشرته مؤسسة الرسالة عام تسعة وتسعين وتسعمئة وألف.

وفي مجال المصطلح والمعاجم له:

٤- معجم الكلمات المصطلحية في لسان العرب، وهو من مطبوعات مجمع اللغة العربية عام سبعة وألفين.

٥- علم المصطلح وطرائق وضع المصطلحات في العربية، نشرته دار الفكر بدمشق عام ثمانية وألفين.

٦- معجم فصاح العامية من لسان العرب، في قيد الإنجاز.

٧- قضايا لغوية معاصرة، نشرته الدار الوطنية الجديدة بدمشق عام ثلاثة وألفين. وإلى جانب هذه المؤلفات للباحث نشاط في التحقيق العلمي، فقد حَقَّق كتاب الفاخر في شرح جمل عبد القاهر في النحو، نشره المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت عام اثنين وألفين.

وفضلاً عن هذه المؤلفات نشر الدكتور خسارة عشرات من البحوث والدراسات في مختلف الدوريات والمجلات.

منها ما يتصل بالتعريب أذكر منها:

- التعريب رؤية واقعية.

- نظرات في كتب المعرب.

ومننا ما يتصل بالاشتقاق أذكر منها:

- الاشتقاق التقليبي، والاشتقاق النحوي، وأثر هذين الاشتقاقيين في وضع المصطلحات.

ومننا ما يتصل باللغة العربية عامة أذكر منها:

- جماليات الكلمة العربية، واللغة العربية والوفادون.

ويلفت النظر وفرة المجلات التي نشرت بحوثه ومنها: - مجلة العربي بالكويت، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلة التعريب بدمشق، مجلة البيان بالكويت، مجلة الكويت بالكويت، المجلة العربية بالرياض، مجلة اللسانيات بالجزائر.

ولم يقف نشاط الدكتور خسارة العلمي على تأليف الكتب ونشر البحوث، بل يُضاف إلى ذلك عشرات الندوات والمؤتمرات التي حضرها، وإلى ذلك ألقى محاضرات في موضوعات شتى.

وهذا النتاج العلمي الوفير يؤذن بأن انضمامه إلى أسرة مجمع اللغة العربية من شأنه أن يرفد المجمع بخبرات لغوية ونحوية تنمي العطاء العلمي للمجمع.

فأهلاً به عضوًا عاملاً في مجمعنا وزميلاً كريماً.

كلمة الدكتور ممدوح خسارة في حفل استقباله

الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

السادة العلماء الأفاضل

الحضور الكريم

سلام عليكم ورحمة من الله وبركات

لا بد لي أولاً من أن أتوجه بالشكر لأساتذتي أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق، الذين ارتَضَوْا أن أكون واحداً منهم، مرابطاً معهم على الثَّغْرِ اللغوي الذي هو الآن خندق الصدام الأول في المنازلة الثقافية المحتدمة في العالم، والإكبارِ للسيد رئيس الجمهورية الذي شَرَّفني بحمل المسؤولية اللغوية في جملة مَنْ انتدبهم لهذه المهمة النبيلة، والتقدير لكل مَنْ أسهم في تعليمي، بدءاً بِمَنْ لَقِني حروف الهجاء العربية، وانتهاءً بِمَنْ فتح لي مغاليق أسرارها، داعياً للراجلين منهم بالرحمة وحسن المثوبة، وللأحياء بطول العمر وصلاح العمل.

السادة الأجلاء:

ثمة مصادفتان لافتتان في موقعي هذا:

الأولى: أن يكون العالم الذي شَرَّفني بالتقدم، الأستاذ الدكتور إحسان النص أول من وجهني وحَفَظني إلى ميادين البحث اللغوي وجوائه، عندما قال لي قبل أربعين سنة في مقابلة لانتقاء المدرسين: «دَعُك من الوظيفة يا بني، وعليك بالدراسات العليا»، فكانت كلمته الطيبة تلك، كالبذرة الطيبة لاقت في نفسي أرضاً قابلة، احتضنتها نحو عشرين عاماً، إلى أن هُبِّي لها أن ترى النور وتنمو فَشُمر، والأمور مرهونة بأوقاتها، فيليك يا صاحب الكلمة الطيبة

عرفاني بجميلك الذي دفع بي لأكون باحثًا وخادمًا للعربية الخالدة. وإذا كان ما أسبغتموه عليّ، أنتم والأستاذ الدكتور رئيس المجمع، من ثناء أنا دونه، فإنه سيبقى مَطْمَحًا لا أُنِي في السَّعْيِ نحوه والتشوّفِ إليه.

والمصادفة الثانية: أن يكون المجمعُ السَّلْفُ الذي أتحدث عنه هو أستاذي وأستاذ الجيل الدكتور شاعر الفَحَّام، الذي صنعني على عينه، لا لأنه - رحمه الله - كان مشرفًا على رسالتي في الدكتوراه فحسب، فهو قد أشرف على كثير غيري من طلبة العربية الذين غدت بحوثهم ومؤلفاتهم مراجع في بابها، ولكن لأنني كُنْتُ أَحْسُ دائمًا أنه يَمْحَضُنِي من ثقته وتشجيعه واهتمامه أكثر مما يمكن أن يوجد به شيخ على تلميذه، فهل دار في خلده أن طالبه المكتهل هذا قد يكون خلقًا له في مقعده المجمع، وإن قصّر عن أن يكون خلقًا له في علمه.

أيها السادة:

اقتضت الأعراف المجمعية أن يتحدث العضو الجديد عن سلفه، ولو كان ذلك السلف بقامة الدكتور شاعر الفَحَّام، غنيًا عن التعريف مُسْتغْنِيًا عن التنويه، فماذا عساي أن أُضِيفَ جديدًا عن رَجُلٍ كان ملء السَّمْع والبصر في الثقافة العربية بعامّة، والحقل اللغوي بخاصّة، فما غادر الشعراء من مُتَرَدِّمٍ، وما ترك المكرّمون والمؤثّتون والباحثون للساني مقالًا، ولا لقلمي مصالًا، ولا لشهادتي الجروحة مجالًا.

وما أُراني إلا مدكّرًا بما يعرفه القاصي والداني عن العَلَمِ السَّلْفِ، الذي ولد في حمص سنة (١٩٢١)، ونال الإجازة في الآداب من جامعة القاهرة سنة (١٩٤٦)، ثم الماجستير سنة (١٩٦٠)، فالدكتوراه سنة (١٩٦٣).

عمل مدرسًا للمرحلة الثانوية، ثم مدرسًا بكلية الآداب، ثم وزيرًا للتربية، ثم سفيرًا لبلدنا في الجزائر الشقيقة، ثم رئيسًا لجامعة دمشق، ثم وزيرًا للتعليم العالي، ثم وزيرًا للتربية للمرة الثانية، فوزيرًا للتعليم العالي للمرة الثانية أيضًا.

انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٩٧١)، ثم نائباً لرئيس المجمع سنة (١٩٧٧)، عُيِّنَ مديراً عاماً للموسوعة العربية بدمشق، ثم انتخب رئيساً لمجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٩٩٣)، إلى وفاته سنة (٢٠٠٨).

كان الدكتور الفحّام شخصيّة علميّة عربية مرموقة، حَرَصَتْ عليه معظم الجامعات اللغوية العربية، فكان عضواً في المجمع العلمي العراقي، والمجمع الأردني، ومجمع القاهرة، والمجمع العلمي الهندي بعليكرة. حاز جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي سنة (١٩٨٨)، تقديراً لجهوده المتلّبة في خدمة العربية وآدابها.

وإذا كان الدكتور الفحّام لم يبخلْ بعطائه الثقافي واللغوي على أمّته، فإنّ الوطن لم يرضَ عليه، بما أسند إليه من مناصب رفيعة، وما أوكل عليه من مهام جلييلة، وبما أقيم له من حفلات تكريم هو أهل لها.

لم تك تلك المناصب والألقاب سوى معالم رسميّة في مسيرة الرجل فحسب، أتت وذهبت، كما كلُّ أعراض الدنيا، ولكن ما لن يذهب أبداً وما سيخلد ذكراه - إن شاء الله - هو ما يمثله السلفُ الكبير من قيم ومبادئ في الثقافة العربية المعاصرة، فمن هو في هذه الثقافة؟

أولاً: هو ثروة لغوية أدبية، فإنّ المتتبع لآثاره واجد أن السياسة والإدارة لم تصرفاه عن البحث والتصنيف، لأنّ الرجل ابن ثقافة ترى أن خير ما يترك الإنسان وراءه، علمٌ ينتفع به، وقد تمثلت هذه الثروة في:

- أربعة كتب مؤلفة هي: الفرزدق، الدلائل في غريب الحديث. ومختارات من شعر الأندلس، وكان يدرسها - ونظراتٌ في ديوان بشار بن برد - وهي في الأصل مجموعة بحوث جُمعت في سفر.

- وفي كتابٍ وأحد عشر نصّاً محقّقاً. أما الكتاب فهو ديوان الفرزدق المشهور، وأما النصوص المحققة فأهمها: (كتاب اللامات) لأحمد بن فارس، (وحدِيث الشعبي في وصف

الغيث)، وترجمة أبي علي الفارسي مستخرجة من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، وترجمة أبي الفتح البُستي مستخرجة من كتاب الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي، وترجمة حميد بن ثور الهلالي مستخرجة من تاريخ دمشق لابن عساكر. وقد جاءت تلك النصوص في نحو (٤٥٠) صفحة.

- وفي ثمانية وعشرين بحثًا ضافياً، جاءت في نحو مئتي صفحة نشرت في مجلة مجمع دمشق والقاهرة والمغرب ومجلة (العرب) السعودية.

- وفي خمسة عشر مقالاً، تحت باب (التعريف والنقد) في مجلة مجمع دمشق، جاءت في نحو (٣٨٠) صفحة.

- وفي إحدى وعشرين مقدمة لكتب، تنويهاً بما كان فيمّا منها، أو إشهاراً لما توسّم التّفّع والجدّة فيه. منها مقدمته لكتاب (مبادئ الطب الباطني) لمؤلفه هاريسون وترجمه د. حسني سبيح. ومقدمة (ديوان دريد بن الصمّة)، ومقدمة الأشباه والنظائر. وأريت هذه المقدمات على ثمانين ومئة صفحة.

- وفي ثمان وثلاثين كلمةً أو خطبة في افتتاح الندوات أو المؤتمرات اللغوية في الجمع وخارجه، أو في حفلات استقبال الأعضاء المجمعين أو تأيينهم زادت على (٣٠٠) صفحة.

ثانياً: هو منهج متفرد في التحقيق والبحث: غنيٌّ عن البيان أن حجم الأعمال التي ذكرنا ليست مقياساً لعلم الرجل، بل مسبار ذلك ما بلغته تلك البحوث والتحقيقات من الدقة العلمية والإضافات غير المسبوقة، فالدكتور الفحّام كان لا يكفي بتحقيق المخطوط، وفق القواعد المألوفة للتحقيق، بل كان يبني دراسة وافية حول النصّ المحقّق وآثاره وشيوخه وأسلوبه. وإن القارئ ليعجب من مدى صبره وجهده في تشبّع الأسانيد والروايات ومقابلتها، ومحامتها والموازنة بينها، مُلزمًا نفسه ما لا يلتزمه معظم المحقّقين. لقد كان مدرسة متميزة في التحقيق والضبط.

أما في البحث والدراسة، فأهم ما يلفت النظر في أعماله هو المنهج الديكارتي

القائم على الشكِّ وعدم التسليم بالفكرة أو المقولة أيًّا كان حظُّها من السُّطوع قبل أن يشبعها نظرًا ومحاكمة. إنه صاحب منهج علمي يتسم بالحيّدة والموضوعية والتواضع. وكثير ما كان يرَدُّ عبارات من مثل: «لا أزعج أن ما جئتُ به هو الحق الصُّراح، وإنما هو رأيُّ لاح لي فَسَجَلْتُهُ معزِّزًا بحجَّتِهِ، لا أملك أن أقطع فيه بيقين. وما ابتغيتُ إلا وَجَهَ الحَقِّ أدور معه حيث يدور، لا يميل بي هوى، ولا تستفزُّني شهوة المغالبة، ولا يعطفني إلفٌ، ولا أنزع عن عصبية، وليُعَلِّمني أساتذتي السادة العلماء، فإنما العلم بالتَّعلم ومن ترك قول لا أدري أصيبتُ مقاتلَهُ.»

ثالثًا: هو غَيْرُهُ وحميةً على العروبة والعربية، فقد كان - رحمه الله - عروبيًّا أصيلاً، والعروبة عنده عقيدة ولغة وثقافة وأرض وتاريخ، لا يساوم على هذه القيم والثوابت. ولعلَّ غيرته الشديدة على العروبة والإسلام جعلته منهومًا بقراءة التاريخ وتبصُّره، وتُفصِّح عن ذلك المقدمات التي كان كتبها لمجلة (دراسات تاريخية) إذ كان مشرفًا عليها، واستثمر معارفه التاريخية الواسعة في ردِّ الشُّبهات عن العروبة والإسلام، يقرع الحجَّة بالحجَّة والدليل بالدليل. وما كان يثير حفيظته - على وقاره - إلا أن يرى إلى متناول يمسّ مناقب هذه الأمة أو يُسيء إلى ماضيها. كان يدعو إلى إنصاف التاريخ العربيِّ ممَّا وسمه به المتعصِّبون من الغربيِّين، ولذا كان من دُعاة إعادة كتابة التاريخ العربي، ليكونَ تاريخ مجتمع وحضارة وعلم وإبداع، لا تاريخ أُسَرِّ حاكمة فحسب، كما صوره كثير من المؤرخين. بل إن غيرته امتدت إلى الشعوب الجزيرية الشقيقة - ولا أقول السامية - كالكنعانيين والآراميين والسُريان، فكان نقده جريئًا لمؤلف كتاب (تاريخ العالم) لأنه بخس الشعوب الجزيرية حقَّها ولم يعتدَّ بحضاراتها.

كما أن غَيْرَتَهُ على اللغة كانت بلا حدود، إذ أمضى حياته مُعَلِّمًا لها، حَفِيًّا بروائعها، منافحًا عن أصولها، حتى إن غيرته الشديدة كادت تسلكه في عداد المتشدِّدين - ولا سيما بأخرة - ولعل مردُّ ذلك إلى حذره البالغ من المخاطر التي رآها تترصُّ

بالعربية، على أنني لم أمس منه مثل ذلك التشدد في عهد الطلب والدراسة عليه. أما عن أسلوبه البياني - والأسلوب هو الرجل كما يقولون - فلا أجد في وصفه خيراً مما قاله هو في صفة أسلوب العلامة عبد العزيز الميمني فأقول: «لقد رُزق الدكتور الفخام ملكة التعبير، فأسلست له العربية قيادها، يُصَرِّفها كيف يشاء، فتميّز بأسلوبه المشرق المعجب، يمتّع الناس بنصاعة بيانه ورؤاء ديباحته، إنه ليدرك بأولئك المبدعين من كتاب القرن الرابع الهجري.»

وبعد.. فإنني أستميحك العذر أن ليس بمكنتي أن أختزل البحر بقطرة، ولا أن اجتزئ عن الطود بصخرة، ولا أن أختصر الرياحين بزهرة، ولا أن أوجز عقْد سيرة هذا السلف بشدرة.

السادة العلماء، الحضور الكريم:

اللغة العربية ما تزال بخير... أجل ليست هي في أحسن أحوالها التي نأمل، ولكن «التطّق بها ليس من المعايير معدوداً» كما كانت قبل سبعة قرون بحسب عبارة صاحب لسان العرب. كما أنه «لم تُدّر على ذويها الدوائر، حتى لا لها اليوم دارسٌ سوى الطلّل في المدارس، ولا مجاوب لها إلا الصدى ما بين أعلامها الدّوارس» بحسب عبارة صاحب القاموس المحيط قبل ستة قرون.

أجل ليست عربيتنا اليوم على تلك الحالة. فما زال معظم أبنائها يردّد:
«لُعَةُ إِذَا وَقَعَتْ عَلَى أَسْمَاعِنَا كَانَتْ لَنَا بَرْدًا عَلَى الْأَكْبَادِ»

وما زالت عصيّة على الفناء، ذلك أنّها تحمل في بنيتها عناصر قوّتها وبقائها، إننا لا نخشى عليها الزوال، فهي محفوظة بالوعد الإلهي الخالد:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سورة الحجر: ٩] وهي الآن اللغة الخامسة في العالم من حيث الانتشار يتلغى بها ويتواصل - وإن على درجات متفاوتة - خمس سكان هذا الكوكب عرباً ومسلمين، وهي اللغة الرسميّة السادسة في الأمم المتحدة، ممّا جعل كثيراً من

الجامعات الغربية تَنْظِمُها في مقرراتها، كما أن مؤسسات الشبابة (الإنترنت) وشركات البرمجيات العالمية صارت تصدر الترجمة العربية لبرامجها مترجمة مع ظهور النسخة الأم... ولكن الذي نخشاه وتحوط منه ألا تكون العربية لغة حياة معاصرة، أي لغة علم وتقانة، كما هي - باقتدار - لغة آداب وشرعيات. نريد لها أن تكون لغة حيّة، واللغة الحية هي التي لا تحذل صاحبها في التعبير عن شتى مناحي الحياة ومختلف ميادينها. لما كان التقدّم العلمي والتقني هما أبرز سمات العصر الذي نعيش، فعلياً أن نجعل من العربية لغة علم وتقانة، وأن ننجح في الاختبار الذي نجح فيه أجدادنا في القرون المحرّية الأولى، عندما طوّروا العربية فانتقلت من لغة بيان في الجاهلية إلى لغة بيان وعرفان في صدر الإسلام، ثمّ إلى لغة بيان وعرفان وبرهان في عصور الازدهار اللاحقة.

السادة الحضور:

يجب ألا تدفعنا الثقة بلغتنا إلى التّعاضّي عما تعانیه من مُعوّقات وما تواجهه من إشكالات: وأول هذه المعوّقات وأخطرها مزاحمة اللغات الأجنبية إياها في التعليم الجامعي. إن تقديم العلوم وتدريسها باللغات الأجنبية وما يمكن أن نُسَمِّيهِ (تعجيم التعليم) في مقابل (تعريب التعليم)، هو الذي سيحول حتماً دون تطور العربية ومعاصرتها، فلا حياة للغة لا تُعبّر عن متطلبات العصر الذي تعيش وعلومه وصناعاته. وما قول بعضهم (إنّ العلم لا يُؤخذ إلا بلغة واضعيه) إلا فريضة كبرى، لو انطلت على أجدادنا، فلم ينقلوا علوم اليونان والهند وفارس إلى العربية، يُعلّمون بها ويُصنّفون، لما كان لنا اليوم ما يعرف بالحضارة العربية الإسلامية، ذلك أنه لا يُعدُّ من حضارة أمة إلا ما كُتِب وألّف بلغتها. ولو صدّقت هذه الفريضة الأمم المعاصرة، لما كانت كل الأمم - إلاناً - تُعلّم بلغتها القومية، صغيرة كانت تلك الأمم كبلغاريا وفيتنام أم كبيرة كالصّين واليابان.

إن تعريب الإدارة والتعليم في بداية عصر النهضة والاستقلال، هو الذي طوّر العربية وجعل منها لغة معاصرة إلى حد بعيد. لقد رفع القطر العربي السوري راية التعريب منذ عشرينيات القرن المنصرم، واستطاع إدراجه ركناً من أركان الخطة القومية الشاملة للثقافة

العربية، ولقي خريجو جامعاتنا المعزبون النّجاح المهني في الوطن العربي، والفلاح العلميّ في الدراسات العليا في الجامعات الأجنبية. كان التعريب وما يزال مفخرة هذا القطر ومطمّح معظم أشقائه، وحنة أنصار العربية الذين يجاهدون لتعميم تجربة بلدنا في تعريب العلوم والتعليم، وصار قطرنا علمًا على تلك السياسة العروبية.

ولكن... وبكثير من الأسف والألم بدأنا نرى محاولات لنكث ما غزل الآباء، وفثّق ما رتّق الأجداد، عندما صارت بعض الجامعات الخاصة، بل وبعض الثانويات الأهلية تُدرّس العلوم باللغات الأجنبية، موهمةً بعضهم أن العربية لا تصلح لغة علوم... إن ما تحمله هذه الردّة اللغوية والثقافية من آثار مدمّرة على لغتنا وثقافتنا خطير، ذلك أن إقصاء العربية عن الحياة العلمية المعاصرة مَفْقَرَةٌ لها ومزهدةٌ بها، فضلاً عن إيجاد شرخ بين الشباب العربي المعرّب منه وغير المعرّب، يُدخلنا في مفاضلات سقيمة ومنافرات تُفسد ما انعقد عليه الإجماع الوطني من أن العربية هي لغتنا الرسميّة إدارةً وتعليمًا. وما كان أصدق (الملك فيصل الأول) رحمه الله عندما اقتَرَح بعضهم أن تكون الفرنسيّة لغة تعليم في المعاهد الجامعية التي أنشأها الحكومة العربية آنذاك، فأجابته: «إذا أردنا أن نعلم أبناءنا بالفرنسية فلنرسلهم إلى فرنسا ولا حاجة للمعاهد العربية». وما كان أحصف الرئيس الجزائري (هواري بومدين) رحمه الله، عندما قال للدكتور شاكر الفخّام وصحبه لدى استقبالهم عُقب أحد المؤتمرات اللغويّة: «إن قضية التعريب لها الشّأنُ الأول في حياة الأمة، وسوف أعرضها على أوّل مؤتمر للقمة القادمة وأطالب بإقرارها».

إنني أتوجه من هذا المنبر العريق إلى السادة المسؤولين في هذا القطر بأن يتداركوا هذا الخطر قبل أن يستفحل... ولا يظننّ أحدٌ أننا تُعارض تعليم اللغات الأجنبية، فنحن مع تعليمها وإتقانها، بل نحن نُليحُ على أن يقدم الطالب الجامعي بعض المقررات العلمية كاملةً باللغة الأجنبية، وهو ما تنصُّ عليه لوائحنا الجامعيّة. إننا لا نريد أن نُضعف لغتنا بدعوى التحصيل العلمي، ولا أن نوهن التّحصيل العلمي بدعوى المحافظة على العربية.

وثاني هذه المعوقات: تَدَنِّي مستوى الأداء اللغوي في تعليمنا وإعلامنا، وإذا كان يحق لنا الاعتزاز بأداء كثير من معلّميننا وإعلامييننا الذين تتألق العربية على ألسنتهم وتَحْضَلْ، فيُسْهِمُونَ في تَنْمِيتها وإغنائها، مما يدعو إلى الشناء عليهم وتثمين جهودهم، فإنه يحقُّ لنا أن نشير بأسى إلى تَدَنِّي مستوى الأداء اللغوي لدى الكثرة منهم، ولا يصح اختزال إشكالية الأداء اللغوي بالمعلم والإعلامي كفرادين، بل لابد من أن تعالج هذه الظاهرة بتشعباتها وارتباطاتها بنظام التعليم مناهج وكتبًا ووسائل وطُرق إعداد.

وثالث هذه المعوقات: التَّقْصِير في حوسبة اللغة العربية، لقد دخل العالم عصر المعلوماتية، وغزا هذا العلم كل مجالات الحياة ومنها اللغات، وكاد نظام الثقافة الورقية يأفئ مخلِّيًا السَّاحة لنظام الثقافة الرقمية. واللغة التي لا تُفِيد من هذا النظام الجديد وتتفاعل معه، سوف تجرد نفسها - مع مرور الزمن - خارج دائرة الثقافة العالمية واللغات الحيَّة. إن لغتنا - بشهادة المختصين العليين - تحمل من الخصائص والمزايا ما يؤهلها لدخول عصر المعلوماتية بجدارة، فلنعمل بلا كلال للإفادة من هذا العلم الحديث في خدمة العربية، حفظًا لتراثها وتطويرًا لأساليب تعليمها وتعلُّمها، ونَشْرًا لها في العالم.

ورابع هذه المعوقات مزاحمة العاميات للفصحى: وقد يعجب بعضهم من أنني جعلت هذا المعوق في آخر ما يواجه العربية اليوم!! ذلك أنني لا أعدُّ مزاحمة العامية الفصحى في خطورة ما سبق من المعوقات، لأمر أهمها:

١- إن اللهجة العامية مستوى من مستويات الخطاب اللغوي في أي لغة فليس من لغة ليس فيها عامية، مع اختلاف درجة بُعْد تلك العامية أو قربها من اللغة السليمة. ولغتنا ليست بدعًا بين لغات العالم في هذه الإشكالية.

٢- لقد تعايشت العامية العربية مع العربية الفصحى منذ عصر الاحتجاج. لم تستطع العامية أن تُزَعزِع مكانة الفصحى لغة بيان وعلم وأدب، حتى في أحلك سنوات الضعف العربي. ولم تستطع الفصحى أن تُزِيل العامية من موقعها الاجتماعي، حتى في أزهى قرون

الازدهار العربي. وإذا كان بعض أعداء العربية من الشعبية المعاصرة ودعاة الإقليمية قد راهن على موت العربية الفصيحة وخسر الرّهان، وتنبأ بتسيّد العاميات وكذبت نبوءته، فإننا لم نراهن أبدًا على موت العامية، بل دعونا دائمًا إلى تحسينها ورفع مستواها لتقريبها من السلامة اللغوية ما أمكن. وما زال الواحد منا - كما كان علماؤنا في القلم - يَشْتَرِحُ ظِلًّا مثل شعبي من أمثالها، ويرتاح على ضفاف مَوَالٍ شَجِيٍّ من موايلها.

٣- إن الاتجاه العام في العصر الحديث هو ميل اللهجات العامية العربية إلى التَّفْصُحِ واقتربها أكثر فأكثر من مستوى السلامة اللغوية، وذلك بفضل وسائل الإعلام المكتوبة التي تلتزم العربية الميسرة والسليمة إجمالاً، وبفضل الفضائيات العربية الجاذبة الملتزمة التي تبرهن يومًا بعد آخر على أن العربية قادرة على التّعاطي مع معظم مستجدات العصر، والوفاء بجلّ مستلزماته.

٤- إننا نرى أن الجلبة في موضوع العامية صارفة النظر عمدًا هو أخطر على العربية وأعني (تعجيم التعليم)، فليتعاون محبو الفصيحة والعامية لدرء الخطر الذي يستهدف اللغة العربية بمستوييها الفصح الآن، والعامي غدًا.

وخامس هذه المعوقات: ضَعْفُ الوعي اللغوي، مما يُقَسِّرُ التساهل في قبول المفردات الأجنبية والمسّميات الأعجمية في الشارع العربي، وإلى أولئك الذين يقولون: (دعوا الناس يتكلمون كما يريدون ولا تَضَعُوا القيود على ألسنتهم)، أقول: تُرى لو قال أبأؤنا مثل قَالَتِهِمْ عندما بدأ اللحن يُفْشُو على الألسنة في القرن الهجري الثاني، فهل كان لنا اليوم لغة عربية؟ همس لي رئيس أحد المجمع الشقيقة شاكياً التَّلَوُّثُ اللغوي الذي ألمه في شوارعنا سواءً في أسماء المحالّ أو الإعلانات، فحاولت أن أَخْفِّفَ من شكواه بأن ما من مدينة عربية تخلو من هذه اللوثة، فقال: إنكم يا أخي لا تقدرون تمامًا مكانة دمشق في نفوسنا إننا ننظر إليها على أنها معقل العربية وموئلها، فليَبْقَ هذا المعقل كما عهدناه أبيضًا على العُجْمَةِ، نفورًا من التّغريب.

السادة العلماء المجمعين:

طلما آمنت بجمع اللغة العربية بدمشق حصناً من حصون العربية، ذائداً عن حياضها أن تُهدم، غيوراً على حُرُماتها أن تُزَنَّ بسوء. وما برح هذا الإيمان ثابتاً لا يتزعزع، على تخذيل المخدلين وتعريض المعرضين. إنَّ كائناً من كان لا يستطيع إنكار جهود مجمعكم الرائد منذ تسعين عاماً، وهي جهود نعتر بها جميعاً، من إحياءٍ لنفائس الكتب تحقيقاً ونشراً، ومن تعريب لغة الإدارة والجيش والتعليم في بدء الاستقلال، ومن حراكٍ ثقافيٍّ أحياه وقاده بسلسلة ذهبية من الندوات في رحابه، بعد أن ران على المجتمع الدمشقي سُبُاتٌ سنوات التتريك العجاف، ومن فُتِحَ أبواب مجلته العريقة والرَّصينة للبحث اللغوي الجاد، ومن إسهامٍ مشهود في تصحيح الكتب المدرسية التي ما كان يجوز واحد منها دون أن يمهر بتدقيق واحد من رجالاته... أقول: إذا كان ليس بمقدور المتتبع لمسيرة المجمع تجاهل تلك الجهود، فليس بمقدوره أيضاً إلا أن يشير إلى بعض مكامن خلل أو مواطن زلل، فالرِّضا الدائم عن النفس مَظَنَّة العثار، وعُجْب المرء بعمله مُورِدُه الحُطَل والتَّبَار، والمنهج العلمي يقتضي مراجعة العمل حُطَّةً وأسلوباً وأداءً في ضوء مستجدات الحياة ومتغيِّراتها. وبسبب من هذا أجد نفسي مشيراً إلى آفاق في العمل الجمعي لا تخلو من أن تكون تأكيداً أو تذكيراً أو تحديداً لم يغيب عن نباهة أساتذتي في المجمع.

إنني أدعو إلى التعاون والتعاقد مع شركائنا في المهمِّ اللغوي والثقافي، ولا سيما اللجنة العليا للتمكين للغة العربية، ووزارة التربية، ووزارة التعليم العالي بجامعاتها ومعاهدها، ووزارة الإعلام بمؤسساتها، ووزارة الثقافة واتحاد الكتاب العرب. وحبذا لو نظمت مؤتمرات سنوية لمثلي هذه الجهات في رحاب المجمع، وأن يكون لتوصياتها صفة الإلزام لمتَّخذيها، وهم من المؤتمنين على لغة الأمة وثقافتها. وإذا كان يُنظر إلى المجمع على أنه المؤسسة الموكول إليها حماية اللغة وترقيتها، فإن اللغة أكبر من المجمع، لأنها لغة الأمة، وكل مؤسسة بل كل فرد في الأمة يقف على نُعْرَة من نُعْرَها، وعليه ألا تُؤْتَى من قبله.

ومما يساعد المجمع في أداء مهامه، ارتباطه العضوي بالمجتمع والمحيط، من خلال شبكة من العلاقات العامة مع المؤسسات والأفراد، عسى أن يكونوا رِدِّاً له في ترجمة تطلعاته اللغوية، وكذا تفاعله مع العالم الخارجي عبر الشبكة (الإنترنت)، ومن خلال موقع إلكتروني نشيط وعَنِّي، يعرض إنجازاته وخدماته اللغوية على الزائرين ويجيب عن استفساراتهم.

وإذا كنا ندعو إلى التعاون مع شركائنا في الهم اللغوي في قطرنا، فإننا ندعو أيضاً إلى التعاون والتآزر بين مجامع اللغة العربية في الوطن العربي، ولكل منا إسهاماً يذكر فيشكر في حماية العربية والدُّود عن ثقافتها، وتطويرها وتطويرها متطلبات العصر وعلومه. إن المشاريع اللغوية المشتركة في حقول المعجمية والمدونة اللغوية، وتحقيق التراث وتعليم العربية للناطقين بها ولغيرهم، كل ذلك يمكن أن يكون مضمون خطة لغوية شاملة للنهوض بلغتنا. ثم إنَّ الحاجة إلى مرصد لغوي باتت ملحَّةً، فعلى المجمع اللغوية أن تسبق الكَلِمَ المحدث في حقول الإعلام والاجتماع والاقتصاد وغيرها فتفتتح المقابلات العربية لها قبل أن تشيع مُسَمَّياتها الأجنبية فيعسرُ التَّخْلُصُ منها.

السادة العلماء:

إن من واجبنا الإفادة ما أمكن من الصحوة اللغوية العامة التي تجسّدت في قرار مؤتمر القمة العربية في دمشق حول اللغة العربية، وفي توصيات وقرارات مؤتمر وزراء الثقافة العرب في دمشق في العام الماضي، وفي القرار الذي اتخذته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية بالتنسيق مع المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بتخصيص يوم للغة العربية، يُحتفى فيه بها، يُيَصَّرُ بمكانتها في حياة الأمة ووحدها. ولا شكَّ في أن إصدار قانون لحماية اللغة العربية سوف يضيف مآثرة تتوج ما سبق من جهود خيرة.

أيها السادة: بدأت القول بأن لغتنا بخير.. وأختم بأنها ستبقى بخير... ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [سورة النحل: ١٠٣] ولن تغلب عجمةً بياناً بإذن الله.

أشكر لكم استماعكم وحسن اصطباركم. والسلام عليكم

الكتب والمجلات المهداة
إلى مكتبة مجمع اللغة العربية
في الربع الأول من عام (٢٠٠٩)

أ - الكتب العربية

أ. سعد الدين المصطفى(*)

- أحاديث فضائل الشام/ عبد القادر الأرناؤوط، دمشق: مكتبة عالم التراث، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- الأحاديث الصحاح الغرائب/ ابن رمزي، تحقيق: رابح قادري، دمشق: مكتبة عالم التراث، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- إعجاز البيان في تفسير أم القرآن/ صدر الدين الفونسوي، تصحيح: جلال الدين الأشتياقي طهران: مؤسسة بوستان كتاب، ١٤٢٩هـ.
- اقتصادنا/ محمد باقر الصدر، إيران، قم: مؤسسة بوستان كتاب، ط٣، ١٤٢٩هـ.
- ألوان/ ياسين فرجاني، إعداد: د. عبد الإله نبهان، جامعة البعث، ٢٠٠٧م.
- بحث مختصر في أنساب الأسر الملكية الإسلامية/ محمد نبيل القوتلي، دمشق: دار البشائر ٢٠٠٨م.

(*) عضو الهيئة الفنية في مجمع اللغة العربية.

- برامج ابتدائية وثانوية/إستانبول، ١٣٢٩هـ.
- بحوث ومقالات في اللغة والأدب.../ د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.
- تجليات النص الشعري، قراءة في شعر خليفة الوقيان/ د. مصطفى الضبع، حوليات الكويت، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- التفسير الاجتماعي للشعر عند أبي العلاء/ د. عبد الكريم الحسين، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٨م.
- تلخيص كتاب الشعر/ ابن رشد، تحقيق: تشارلز تروت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
- التحول الديمقراطي في الكويت، الأسباب والنتائج/ أ. ولاء علي البحيري، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الكويت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- البحث عن الحصان العربي/ أبتيايدي مورس، ترجمة: إبراهيم عبد الله العمير، الرياض: دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٧هـ.
- دراسات فقهية في مسائل خلافة/ نجم الدين الطبسي، اهتمام: خسرو شاهي، إيران: مؤسسة بوستان كتاب، ١٤٢٩هـ.
- ثقافة العلم عند العرب/ المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون/ قرطاج: ٢٠٠٨م.
- ثورة الحلبيين على الوالي خورشيد باشا العثماني/ أبراهام كوبليان، تحقيق: بطرس مراياتي، حلب: دار الطباعة، ٢٠٠٨م.
- دروس شرح منظومة/ يحيى أنصاري الشيرازي، إيران، مؤسسة بوستان كتاب ١٤٢٩هـ.
- دليل وظيفي في إدارة المواد البشرية/ المجلس الأعلى للغة العربية، إيران، ٢٠٠٦م.
- دليل وظيفي في التيسير المالي والمحاسبية/ رئاسة الجمهورية، المجلس الأعلى للغة العربية، إيران، ٢٠٠٦م.
- رسائل مولانا جلال الدين الرومي/ تحقيق: توفيق سبحاني، نقلها إلى العربية: أ. د. عيسى علي العاكوب، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨م.

- رسائل صناعية/ ميرزا أبو القاسم أسترآبادي، تحقيق: حسن جمشيدى، إيران: مؤسسة بوستان كتاب، ١٤٢٩هـ.
- شرح العيون في شرح العيون/ حسن حسن زادة الأملي، إيران: مؤسسة بوستان كتاب، ١٤٢٩هـ.
- شرح المختار من لزوميات أبي العلاء/ أبو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي، تحقيق: حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، القاهرة: ١٩٩٨م.
- شرح فصوص الحكم/ تاج الدين حسين خوارزمي، إيران: مؤسسة بوستان كتاب، ١٤٢٩هـ.
- شرح حال وآراي فلسفي مُلاصدرا/ سيد جلال أشتياني، إيران: مؤسسة بوستان كتاب، ١٤٢٩هـ.
- الشعر في ركب الحجاج بن يوسف الثقفي/ د. محمد نافع حسن المصطفى، حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- عشرة آلاف ميل عبر الجزيرة العربية/ أرنست وايز، ترجمة: عبد الله باقبص، الرياض: دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٨هـ.
- فاكهة مجالس المخلصين/ عبد القادر الأرنؤوط، دمشق: مكتبة عالم التراث، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- القرآن الكريم وترجمة معانية إلى الروسية/ إيمان فاليربوروخوفا، دمشق: دار الفجر الإسلامي، ١٤٢٨هـ.
- الكُنَّاش في النحو والصرف/ أبو الفداء عماد بن إسماعيل بن علي، تحقيق: د. صبري إبراهيم، قطر: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- كتاب القوافي/ القاضي أبو يعلى عبد الباقي عبد الله، تحقيق: د. محمد عويني عبد الرؤوف، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٣م.
- المبدأ والمعاد/ جلال الدين الأشتياني، إيران: مؤسسة بوستان كتاب، ١٤٢٩هـ.
- مبدأ الكياسة من جوايس إلى أخلاقيات الأنترنت/ د. بهاء الدين محمد فريد،

- حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الكويت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- **المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني** / د. ليلى الصباغ، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٣م.
- **المظاهر الإلهية** / صدر الدين محمد الشيرازي، تحقيق: جلال الدين الأشيائي، إيران: مؤسسة بوستان كتاب، ١٤٢٩هـ.
- **المسيح في القرآن** / آية الله رضا الصدر، اهتمام: باقر خسرو شاهي، إيران: مؤسسة بوستان كتاب، ١٤٢٩هـ.
- **المها الأبيض العربي قديماً وحديثاً** / د. سليمان محمود سليمان، قطر، الدوحة: ١٩٧٦م.
- **معجم الرياضيات** / فوزي مصطفى دنان، الكويت، مؤسسة الكويت العلمية، ١٩٨٤م.
- **معجم مصطلحات الخط العربي** / د. عفيف البهنسي، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥م.
- **المقتفى على كتاب الروضتين بتاريخ البرزالي** / أبو محمد القاسم الدمشقي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، ١٤٢٩هـ.
- **معجم العمارة والفن** / د. عفيف البهنسي، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥م.
- **مكتبة الملك فيصل بن عبد العزيز** / فهد بن عبد الله السماوي، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٨هـ.
- **منقذ المنافع في شرح المختصر النافع** / حبيب الله الشريف الكاشاني، إيران: مؤسسة بوستان كتاب، ١٤٢٩هـ.
- **موعظة المتقين** / عبد القادر الأرنؤوط، تحقيق ولد والده عبد القادر محمود الأرنؤوط، دمشق: مكتبة عالم التراث، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- **الموسم الثقافي الأردني السادس والعشرون** / عمّان، مجمع اللغة العربية الأردني، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- **مأساة ريفية** / إياد ناجي، دمشق: دار طلاس، ٢٠٠٨م.

ب- المجلات العربية

أ. ماجد الفندي (*)

اسم المجلة	العدد	سنة الإصدار	المصدر
- الأسبوع الأدبي	١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١.	٢٠٠٧ م	سورية
- الآداب العالمية	السنة ٣٣ العدد ١٣٣	٢٠٠٨ م	سورية
- الحياة التشكيلية	الأعداد ٧٦، ٧٧	٢٠٠٧ م	سورية
- الحياة الموسيقية	العدد ٤٥	٢٠٠٧ م	سورية
- صوت فلسطين	العدد ٤٧٩، ٤٨٠	٢٠٠٧ م	سورية
- الضاد	السنة ٧٧ الأعداد ١١، ١٢	٢٠٠٧ م	سورية
- مجلة جامعة دمشق	مج ٢٣ / ١ / علوم هندسية مج ٢٣ / ١ / علوم زراعية	٢٠٠٧ م	سورية
- مجلة جامعة البعث	العدد ٦ / مج ٢٩		سورية
- مجلة جامعة تشرين	مج ٢٩ / العدد ٢ / علوم ميولوجية مج ٢٩ / العدد ٢ / علوم هندسية مج ٢٩ / العدد ٢ / علوم اقتصاد وقانون مج ٢٩ / العدد ٢ / علوم صحية	٢٠٠٨ م	سورية
- المعرفة	السنة ٤٦ / العدد ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣	٢٠٠٨ م	سورية
- المعلوماتية	السنة ٢ / العدد ٢٢	٢٠٠٧ م	سورية

(*) إجازة في المكتبات من جامعة دمشق.

المصدر	سنة الإصدار	العدد	اسم المجلة
إيران	٢٠٠٧ م	عدد تجريبي العدد ١	- المعلم العربي
إيران	٢٠٠٧ م	٦٢، ٦٠	- رسالة التعريب
ألمانيا	٢٠٠٨ م	٨٧	- فكر وفن
السعودية	٢٠٠٧ م	السنة /٢٧/ العدد ٣٠٧، ٣٠٥	- الأمن والحياة
السعودية	٢٠٠٨ م	٥٧	- الأدب الإسلامي
السعودية	٢٠٠٨ م	السنة /٦٣/ العدد ١	- الحج والعمرة
السعودية	٢٠٠٨ م	٣٧٢، ٣٧١	- المجلة العربية
الكويت	٢٠٠٧ م	٤٥٣، ٤٥٢، ٤٥١، ٤٥٠، ٤٤٩	- البيان
مصر	٢٠٠٨ م	٤٥	- مجلة كلية دار العلوم
الهند	٢٠٠٧ م	١٢، ١١ مج ٣٩	- صوت الأمة
الهند	٢٠٠٨ م	السنة ٢١ العدد ٥٨	- الصحوة الإسلامية

النشرة الاجنبية:

رعى معدني (*)

I- Books:

- L'Art de Conjurer.
- Gregg Shorthand/ John Robert Gregg.
- The Black Tulip/ Alexandre Dumas.
- Le Père Goriot/ Honoré de Balzac.
- Mila/ Sally Armstrong.
- Cours de Langue et de Civilization Françaises.
- Les Survivants du Groeland/ Paul-Emile Victor.
- English Grammar by Steps/ A.C.Cray.
- Objective English Tests/ A.R.B.Etherton.
- Histoire Parallele (U.S.A)/André Maurois.
- Histoire Parallele (U.R.S.S)/ André Maurois.
- Le Français Commercial/ Gaston Mauger.

II- Periodicals:

- Orient, vol.٤٢(٢٠٠٧).
- AL-Qantara, vol.٢٧, N.٢(٢٠٠٦).
- East Asian review, Vol.١٨, N.٤(٢٠٠٦), Vol.١٩, N.١(٢٠٠٧).
- Korea Focus, Vol.١٤, N.٤(٢٠٠٦), Vol.١٥, N.١(٢٠٠٧).
- Ibla: Revue de L'Institut des Belles Lettres Arabes, N.١٩٧(٢٠٠٦).
- The Muslim World, Vol.٩٧, N.٢(٢٠٠٧).

(*) إجازة في الأدب الفرنسي من جامعة دمشق.